

الف ليلة وليلة

حسين جومهر

محمد أحمد براق

أمين أحمد المطار

٢



0018125

Bibliotheca Alexandrina

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف :	395.22
رقم التسجيل :	٣٢٤١١

الفيلسوف
الجزء الثاني

السندباد البحري

١٥/١٢

395.22

٥٩٩

كتبه
محمد أحمد براق

حسن جوهري

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



General Organization Of the Alexandria
Library (GOAL)



Bibliotheca Alexandrina

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورتيش النيل - القاهرة ج.٢٠٠٤ع.



السندباد البحري

كان بمدينة بغداد رجلٌ فقيرٌ ، رقيقُ الحالِ ، يُقالُ له السُّدْبَادُ ؛
وكان يَشْتَغِلُ سَحَّالًا ، يَسْتَأْجِرُهُ النَّاسُ فِي حَمْلِ أَهْلِهِمْ وَمَتَاعِهِمْ ، نظيرَ
أَجْرِ يَهُودُونَ بِهِ عَلَيْهِ ، قُلْ ذَلِكَ الْأَجْرُ أَوْ كَثُرَ .

فَاتَّفَقَ فِي يَوْمٍ اشْتَدَّ حَرُّهُ أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ بَعْضَ النَّاسِ خَمَلًا ثَقِيلًا ،
أُجْهِدَهُ وَأَزْهَقَهُ ، حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ التَّعَبُ مَبْلَغًا كَبِيرًا ؛ وَمرَّ فِي أَثْنَاءِ سَيْرِهِ
بِمَنْزِلٍ كَبِيرٍ نَحْمٍ ، شَامِخِ الْبُنْيَانِ ؛ يَنْطِقُ شُموخُهُ بِغَنَى أَصْحَابِهِ ، وَتَتَحَدَّثُ
نُفَامَتُهُ وَنُظَافَتُهُ وَأَنَاقَتُهُ بِرَفَاهِيَتِهِمْ ، وَبكَثْرَةِ خَدَمِهِمْ وَحَشَمِهِمْ ، وَبِمَاهِمُ فِيهِ
مِنْ عَزٍّ وَنَعِيمٍ . وَكَانَ عَلَى جَانِبِ الْبَابِ مِصْطَبَةٌ طَوِيلَةٌ ، عَرِيضَةٌ ، نَظِيفَةٌ ،
تَلِيلَةٌ ؛ تَهْدُلُ عَلَيْهَا فُرُوعُ الْأَشْجَارِ ، وَتَجْرِي أَمَامَهَا قَنَاقَةُ الْمَاءِ الْعَذْبِ ،

وَيَجْرَى فِي جَوْهَرِ الْمُهَوَّاءِ الرُّطْبُ، وَالتَّسِيمُ الْقَلِيلُ؛ وَتَصْدَحُ فَوْقَ أَشْجَارِهَا
الْأَطْيَارُ. خِمَلُهُ تَعْبُ السَّيْرِ، وَإِجْهَادُ الْحُلِّ الثَّقِيلِ، وَجَمَالُ الْمَكَانِ، عَلَى
أَنْ يَسْتَرِيحَ بَعْضُ الْوَقْتِ؛ فَوْضَعُ حِمَلِهِ فَوْقَ مَصْطَبَةٍ بِجَانِبِ بَابِ
الْمَنْزِلِ، وَجُلُوسَ إِلَى جَوَارِيهِ يُخَفِّفُ عِرْقَهُ الَّذِي يَتَصَبَّبُ مِنْ وَجْهِهِ، وَلَمْ
يَلْبَثْ أَنْ هَبَّ عَلَيْهِ نَسِيمٌ لَطِيفٌ، سَرَى إِلَيْهِ مِنْ بَابِ الْمَنْزِلِ الْكَبِيرِ
يَحْمِلُ رَاحَةً طَيِّبَةً ذَكِيَّةً، أُلْمَسَتْ نَفْسُهُ، وَرَدَّتْ إِلَيْهِ رَاحَتُهُ، وَفَقَدَتْ
إِلَى أَذُنِهِ أُنْغَامُ مُوسِيقِيَّةٍ شَجِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، تَصْدَحُ بِشَقَى الْأَحْزَانِ؛
فَانْطَابَ مَجْلِسُهُ، وَأَطَالَ جُلُوسَهُ فِيهِ يَسْتَرِيحُ نَسِيمُهُ، وَيَسْتَنَشِقُ
شَذَا عَبِيرِهِ، وَيُنِصْتُ إِلَى مَا يَتَرَدَّدُ فِيهِ مِنْ صَدَى الْأُنْغَامِ.

ثُمَّ لَمْ يَلِكْ نَفْسَهُ، فَرَفَعَ طَرَفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ: سُبْحَانَكَ رَبِّي أ
إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ أ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ أ
وَأَقْوَى سُلْطَانَكَ أ وَأَجَلُ قُدْرَتِكَ أ وَأَحْسَنَ تَدْيِيرِكَ أ تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ،
وَتَحْرِمُ مَنْ تَشَاءُ، وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، فَتَنِمُ نَاسٌ وَتَشَقُّ
آخَرُونَ؛ وَمَنْ عِبَادِكَ مَنْ هُوَ مُسْتَرِيحٌ مُتَنِمٌ: يَتَمَتَّعُ بِرَغِيدِ الْمَيْشِ،
وَيَرْفُلُ فِي الثِّيَابِ الْفَاخِرَةِ، وَتَلْهُو بِالْمَأْكَلِ الطَّيِّبِ، وَالْأَشْرَبَةِ الْمُهْنِيَّةِ.
يَسْتَظِلُّ بِأَطْيَبِ ظِلٍّ، وَيُنْفِىءُ إِلَى خَيْرِ فَيْءٍ، كَصَاحِبِ هَذَا الْمَكَانِ؛
وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ شَقِيٌّ تَمَسُّ مِثْلِي: يَقَاسِي التَّعَبَ، وَيَتَحَمَّلُ الْمَشَاقَّ،
وَيَتَقَلَّبُ فِي شَطَفِ الْمَيْشِ، وَتَجْرَعُ كَأْسُ الْبُؤْسِ، مُهْلِلَ الثِّيَابِ،
حَافِي الْقَدَمَيْنِ، تَحْرِقُهُ الشَّمْسُ بِشَوَاطِلِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَجِدُ طَعَامًا شَهِيًّا،



ولا مَنَاماً مُرِيحاً ، ولا يَظْفَرُ من الناسِ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ، أو نَظَرَةٍ رَاضِيَةٍ .
سَبَّحَانَكَ رَبِّي ! لا اَعْتَاضَ عَلَى حُكْمِكَ !

ولما فرغَ من مُناجاةِ نَفْسِهِ نَهَضَ من مَجْلِسِهِ ، واستَخَارَ اللهَ ، وحَمَلَ
حِمْلَهُ وحمَّ بِالمَسِيرِ - ولم يَكُنْ يَمُوكُ قَدَمُهُ حَتَّى رَأَى غَلاماً جَمِيلاً ، يَرْتَدِي
مَلايِسَ مَهِينَةً ، خَرَجَ إِلَيْهِ من بابِ المَنازِلِ وأَمَسَكَ يَدَهُ ، وقالَ لَهُ :
سَيِّدِي يَدْعوكَ إلى الدخولِ إِلَيْهِ ، لأنَّهُ يُريدُ التَحدِثَ إِلَيْكَ . فَخَيَّرَ
الحالُ في أَمْرِهِ ، وأَخَذَ أَخْذاً شَدِيداً ، وتردَّدَ بينَ الِامْتِناعِ عَنِ الدخولِ
وتَلْيِيَةِ دَعْوَةِ الغَلامِ ، وَلَكِنَّ الغَلامَ لَمْ يَتْرِكْ لَهُ فَرْصَةً طَوِيلَةً لِلتردِّدِ ،
فَإِنَّهُ جَرَّهُ إلى دَهليزِ الدارِ ، ووضعَ عَنهُ حِمْلَهُ فِيهِ ، وَقادَهُ إلى الدَاخلِ ،
فَلَمْ يَكُنْ يَتَجَاوَزُ الدَهليزَ حَتَّى وَجَدَ قَسمَهُ في بُستانٍ واسِعٍ فَسِيعٍ ،
بِهِ أَشجارٌ كَثيرَةٌ ، تَدَلَّتْ فُرُوعُها ، وَتَشَابَكَتْ أَغْصَانُها ، وَتَقَتَّصَتْ
أَزْهارُها ، وَنَضِجَتْ أَثْمَارُها ، وَوَرِفَ ظِلُّها ؛ وَرَأَى ماءً يَجرى مُتَدَفِّقاً
في قَنواتٍ مُستَقِيمَةٍ ومُتَرَجِّجَةٍ ، يُروى مِنْهُ البُستانِيُّونَ الأشجارُ ، فيُنْعِشُ
الحَيَاةَ في شَجَرِها وزَهْرِها وَغَرِّها . ثُمَّ نَظَرَ الحالُ بَيْنَ الأشجارِ ،
فَرَأَى طُيُوراً جَمِيلَةً ، مِنْ قُمَارَى وَهَزار وَشَغارِبَرٍ وَبِلايِلٍ وَكَروانٍ ،
تَمِيمُها تَصْدَحُ هُنا وَهُناكَ ، فَتُبْعَثُ أَصْواتُها أَنغاماً مُختلفَةً شَجِيَّةً ، يَخْتَلِطُ
بَعْضُها بِبَعْضٍ ، فَيَتَأَلَّفُ مِنْها جَميعُها لِحَنٍّ عَذْبٍ جَميلٍ ، تَقْرَحُ لَهُ النَفْسُ
وَيُنْشَرِحُ القَلْبُ .

ثم نَظَرَ أيضاً فَوَجَدَ غَلاماً كَثيرينَ يَنْتَشِرُونَ في أَرْجاءِ البَستانِ ،

كلٌ منصرفٌ إلى عمله ، فهذا يُقْلَمُ الشجرُ ، وذاك يُقَطِفُ الزهرَ ، وثالثٌ يجمعُ الثمرَ ، وهكذا رأى كلُّ غلامٍ يعملُ ، وهو مُقبلٌ على ما كُلِّفَ من عملٍ .

وبينا هُوَ يتأملُ فيما يرى حائرًا مشدوفاً مستعجياً ، إذ أحسَّ أن ذلكَ النسيمَ الجميلَ الذي يحملُ إلى قسبه عيرَ الأزهارِ ، قد اختلطَ به رائحةُ الشواءِ والتقديمِ ، فسألَ لها ألبابه ، وتحلَّبَ قفه ، وتواثبتُ أعضاؤه ، لشدةِ ما به من جوعٍ ، وتمنى أن لو نالَ منها شيئاً قليلاً أو كثيراً ، ولكنه لم يلبثَ أن اتبته لنفسه ، وأخذ يفكرُ في حاله ، فوجمَ ، وأطرقَ مفكراً متحيراً في السببِ الذي دَعَا صاحبَ تلكِ النارِ الفخمةِ إلى استدعائه ، وهو رجلٌ حالٌ ، لا حاجةَ به إليه ، فإنَّ عنده من اللحمِ والحشمِ والتلنانِ ما يُفنيه .

لم يدعه الغلامُ في ذلكَ التفكيرِ طويلاً ، ولكنه عجلَ به ، وقاده إلى مجلسٍ فيه رجالٌ يبدو عليهم المظمةُ والوقارُ ، مُدَّتْ أمامهم مائدةٌ حَفَلَتْ بصنوفٍ مختلفةٍ من الأطعمةِ اللذيذةِ ، والأشربةِ الشهيةِ ، والفواكهِ النادرةِ .

فتملَّكَ الجمالَ العجيبُ مما رأى من مظاهرِ الفخامةِ والغرِّ والثروة ، وخُيِّلَ إليه أنه في جنةٍ من الجنانِ ، أو بحضرةٍ ملكٍ أو سلطانٍ ، وأشار إليه الغلامُ أن يتقدمَ ، فتقدَّمَ إلى الجالسينَ في هدوءٍ واستحياءٍ ، وخُشوعٍ وتأدبٍ ، مُطْرِقاً رأسه ، لا يعدُّ عينيه إلا إلى قدميه ، ولا تَكَادُ رجلاه

تحملاه مِمَّا به من اضطرابٍ وخيرةٍ ، وألقى عليهم السلام بصوتٍ خافتٍ مُتَهَدِّجٍ ، لا يكادُ يُسْمَعُ ، وإذا سُمِعَ فإنه لا يكادُ يُفْهَمُ ، لا خِثْلًا نبراتِه بعضها ببعضٍ ، ولولا إشارةٌ خفيفةٌ من إحدى يديه ، وانحناءٌ خفيفةٌ من رأسِه وصدرِه — لما عَرَفَ الناسُ أنه يُسَلِّمُ .

وكان يتصدَّرُ المجلسَ رجلٌ وسَطٌ ، قد وَخَطَ الشيبُ عارضتيه ، يرتدِّي ثيابًا فاخرةً ، تحوطُه المهابةُ ، ويحفُّه الجلالُ ، وما كاد يرى الجمالَ داخلًا وهو خائفٌ وجلٌّ حتى هسَّ له ، ودعاهُ إلى الجلوسِ بجانبِه ، فجلسَ الحالُّ متأدِّبًا ، وقد أدركَ أن هذا الرجلَ الكريمَ هو صاحبُ الدارِ .

وأخذ صاحبُ الدارِ يرحِّبُ بالجمالِ ، ويؤنسُه بالحديثِ ، ليذهبَ عنه الوحشةُ ، وقدَّمَ إليه ألوانَ الطعامِ ، وأخذَ يَحْثُثُه على تناوُلها ، وما زالَ به حتى اطمأنَّتْ نفسه ، وسكنَ روعُه ، وأقبلَ على ما بينَ يديه يتناولُه ، وقد أنساهُ هيئةَ المجلسِ ، ووحشةُ العربةِ — أيناسُ الرجلِ ، ثم لذةُ الطعامِ ، وشدةُ الجوعِ .

ولما فرغَ الحالُّ من الطعامِ شكرَ ربَّه على ما أنعمَ به عليه ، وشكرَ صاحبَ الدارِ ورفاقَه على حُسنِ استِقبالِهِمْ ، وجميلِ ترحيبيهِمْ ، وعلى حقائِقِهِمْ به ، وإجلالِهِ مَعَهُمْ على طعامٍ واحدٍ ، برغمِ التفاوتِ العظيمِ بينَ مرتبتَيْهِ ومرتبتَيْهِمْ .

فأخذَ صاحبُ الدارِ ورفاقُه يُحَدِّثُونَه حتى اطمأنَّ إليهِمْ ، وهدأتْ

نفسه ، واطمأن قلبه ، وجاراهم في الحديث ، وارتفعت الكفة بينهم وبينه .

ولما رأى صاحب الدار ما داخله من الهدوء والاطمئنان سأله :

ما اسمك يا فتى؟ وما صناعتك؟ . فقال الحمال :

ياسيدى! اسمي السندباد . وصناعتى حمال ، أعمل حاجات الناس نظير أجر ضئيل ينقدونى إياه ، وأعيش منه . فابتسم صاحب الدار وقال :
يا للعجب! يا سندباد ، إن اسمك مثل اسمي؛ فأنا اسمي السندباد البحرى .
يا أخى السندباد ، سمعتك وأنت جالس على المصطبة خارج الدار تحدث نفسك شيئاً من الحديث ، وتعبّر عن خطر مرّت بك بكلام لطيف جميل ، تعجب فيه من ذلك النظام الذى جمّله الله بين الناس ، فلم يسو بينهم ، ولكنه فضل بمصهم على بعض ، وجمّلهم فى الرزق درجات؛ فيسّطه لمن يشاء ، ويقدره على من يشاء .

سمعتُ هذا الكلام يا أخى السندباد فأعجبني ، فهل تستطيع أن تميدّه علينا ، لنسمعه مرةً أخرى؟ .

استخيا الحمال ، وخجل خجلاً شديداً ، وتوسّل إلى الرجل أن يُفقيه من ذلك ، فألحّ عليه ، فقال له :

بالله عليك يا سيدى لا تؤاخذنى ، فإن التعب والمشقة ، وضيق ذات اليد — تدفع بالإنسان أحياناً إلى سفاهة القول .

فقال السندباد البحرى : لا تثريب عليك ، فإنك سميت ، وقد اتخذتك

أخاً ، فأعذ على أسياننا هذا الكلام حتى يطرب هؤلاء الإخوان ، كما طربت أنا حين سمعته منك ، فقد تأثرت له قيسى ، واهتزت مشاعري .
فأخذ الحمالُ بِسَمْعِهِم والقومُ مُصْغَوْنَ إِلَيْهِ فِي سُرُورٍ ، حتى إذا ما فرغ

قال صاحبُ الدار :

يا حمالُ ؛ إن لي قصةً طويلةً عجيبةً ، وسوف أقصُّها عليك حتى تعلمَ ما لقيته من تعبٍ ، وما قاسيته من أهوالٍ ، قبلَ أن أصلَ إلى هذه المنزلةِ من المالِ ، والنِّقْيِ ، والثَّراءِ ، والنِّعيمِ ؛ وقبلَ أن أجلسَ في هذا المكانِ الذي ترائي فيه راضى العَيْنِ ، ناعمَ البَالِ ، هادئَ النفسِ ، قَرِيرَ العَيْنِ .
فقد سافرتُ في سبيلِ التَّلاَسُيعِ سَفَرَاتٍ ، وكلَّ سَفَرَةٍ لَهَا قِصَّةٌ ، وفي كلِّ قِصَّةٍ مَجَانِبٌ وَغَرَائِبٌ ، إذا حَدَّثْتُكَ عَنْهَا ضَاقَ صَدْرُكَ عَنْ تَصَدِّيقِهَا ، وَخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّ مُحَدِّثَكَ سَاحِرٌ ، أَوْ كَاهِنٌ ، أَوْ مَجْنُونٌ . وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أُمُورٌ شَاهَدْتُهَا ، وَعَقَبَاتٌ صَادَقْتُهَا ، وَأَهْوَالٌ لَاقَيْْتُهَا ، وَكَثِيرٌ مَا كُنْتُ أَقْفُ أَمَامَهَا حَائِرًا ؛ وَلَكِنْ اللَّهُ يَسِّرُ كُلَّ عَسِيرٍ ، وَيُسَهِّلُ كُلَّ صَعَبٍ ، وَقَدْ كَتَبَ لِي فِيهَا التَّوْفِيقَ ، وَمَا التَّوْفِيقُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .
وَيَقْدِرُ مَا لَقَيْتُ مِنْ أَهْوَالٍ وَصَعَابٍ — كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيَّ بِمَا أَسْبَغَ مِنْ نَيْمٍ وَعَزٍّ ، وَثَرَاءٍ وَغِنَى ؛ فَالرَّاحَةُ لَا تَصِلُ إِلَيْهَا إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنْ كَثْبٍ .

وَرَغِبَ أَكْثَرُ الْحَاضِرِينَ فِي الْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ ، وَالْحَوَالِيهِ أَنْ يَسْرُدَ عَلَيْهِمْ بَعْضَ مَا لَقِيَهُ فِي سَفَرَاتِهِ السَّيِّحِ ، فَقَالَ :



السَّفَرَةُ الْأُولَى

اعلموا، يا سادة، أَنَّ أَبِي كَانَ تاجِرَ آَمَنٍ كَبَارِ التِّجَارِ، وَكَانَ غَنِيًّا يَمْلِكُ
كَثِيرًا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالضِّيَاعِ وَالْعَقَارِ، وَقَدْ مَاتَ وَأَنَا حَدَثٌ صَغِيرٌ
وَخَلَفْتُ لِي ثَرَوَةً عَظِيمَةً. فَلَمَّا كَبُرْتُ، وَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى هَذِهِ الثَّرْوَةِ
غَرَسْتُ مَبَاهِجُ الدُّنْيَا، وَخَدَعْتُ زَيْتُهَا، فَأَنْدَفَعْتُ إِلَيْهَا، وَأَطْلَقْتُ الْعِثَانَ
لِشَبَابِي، وَأَخَذْتُ أُسْتَمِيعُ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْمِعَ بِهِ، غَيْرَ مَبَالٍ شَيْئًا؛
وظَلَلْتُ أُبَثِّرُ هُنَا وَهَنَاكَ، وَأَتَفَقُّ عَلَى قَيْسٍ وَعَلَى مَنْ أَحَاطُوا بِي مِنْ
رِفَاقِ السُّوءِ، وَأَخْلَاهُ الشَّيْطَانُ.

أَخَذَ الْمَالُ يُنْقَاصُ شَيْئًا فَشَيْئًا — عَلَى كَثَرَتِهِ — حَتَّى قَبِيَ، وَجِبَالَ
الْكُحْلِ تَقْنِيهَا الْمَرَاوِدُ، فَأَطْلَقْتُ يَدِي فِيَا أَمْلِكُ مِنْ ضِيَاعٍ وَعَقَارٍ، وَأَخَذْتُ
أُبِيعُ مِنْهَا، وَأَتَفَقُّ عَلَى قَيْسٍ وَعَلَى أَصْحَابِي حَتَّى قَدْ كَلَّمْتُ أَمْلِكُ، وَلَمْ يَبْقَ

عندى شيء إلا التَّزُّرُ اليسير؛ فنفرَ منى كلُّ هؤلاء الأصحاب، وجَعَلُونِي
 وقاطعُونِي؛ فانتبهتُ من غَفَلَتِي، وصحوتُ من سَكَرَتِي، وتلفتُ حَوْلِي
 فوجدتُ نفسي وحيداً، لا مالَ يُعِينُنِي على نَوَائِبِ الزَّمانِ إِلَّا نَفْسِي من
 عَقَارٍ، لَا تُسَمِّنُ وَلَا تُغْنِي من جُوعٍ. ولا صديق يُؤاسِينِي، ويَحْتَفِ عَنِّي بِمَضْ
 مَا بِي من أَلَمِ الْفَقْرِ، وَتَرَارَةِ الرَّحْدَةِ؛ فَصِحْتُ: وَأَغَوَّنَاهُ! لَقَدْ أَضَعْتُ
 فِي اللَّهِوِ وَالْعَبَثِ مَالَ أَبِي، الَّذِي قَضَى زَهْرَةَ عَمْرِهِ فِي جَمْعِهِ وَاسْتِمَارِهِ بِالْجِدِّ
 وَالْعَمَلِ، وَسَرَتْ فِي طَرِيقِ النَّيِّ وَالضَّلَالِ الَّذِي زَيَّنَهُ لِي شَيَاطِينُ الْإِنْسِ
 وَأَحَاطُوا بِي، وَأَعْمَوْا عَيْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَا يَسْتَلْذُونَهُ مِنْ مُتَبِعِ حَلَالٍ أَوْ
 حَرَامٍ، حَتَّى إِذَا فَقَدَ مَالِي، وَسَاءَ حَالِي - انْقَضَوْا مِنْ حَوْلِي، وَتَرَكُونِي
 فَرِيسَةَ الْأَوْهَامِ وَالظُّنُونِ، فَرِيسَةَ الْفَقْرِ وَالْبُؤْسِ وَالْأَلَمِ، فَرِيسَةَ الرَّحْدَةِ
 وَالشُّرُودِ؛ وَأَغَوَّنَاهُ! وَأَغَوَّنَاهُ! وَلَمَّا أَنْ عَثَبْتُ عَلَى نَفْسِي مَا اتَّسَعَ لِي
 الْقَتَبُ، وَبَكَيْتُ مَا أَسَفَنِي الْبُكَاءُ - أَخَذْتُ أَعْمَلُ الْفِكْرَ لَعَلَّنِي أَصِيلُ
 إِلَى رَأْيٍ أَتَقِدُّ بِهِ نَفْسِي، وَأَخْلُصُهَا مِنْ هَذِهِ الْحُمَاةِ الَّتِي قَذَفَتْ بِهَا فِيهَا
 وَأَعْلَوْ بِاسْمِي وَاسِمَ أَبِي الَّذِي كِدْتُ أَنْ أَعُتِّي عَلَيْهِ. فَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ الْأَبِي
 كُنْتُ أَسْمُهُ يَرُدُّهُ، وَهُوَ:

ثَلَاثَةٌ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ: يَوْمُ الْمَمَاتِ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِ الْمِيلَادِ، وَكَلْبٌ حَيٌّ
 خَيْرٌ مِنْ سَبْعٍ مَيِّتٍ، وَالْقَبْرُ خَيْرٌ مِنَ الْفَقْرِ. فَصَمَّمْتُ عَلَى الْعَمَلِ وَالْجِهَادِ
 وَعَقَدْتُ الْعَزَمَ عَلَى الْكَدِّ وَالْكَدْجِ، وَخَطَرَ بِيَالِي السَّفَرَ وَالسِّيَاحَةَ
 لِلتَّجَارَةِ بَيْنَ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ، وَعَرَفْتُ أَنَّي بِقَدْرِ مَا أَبْذُلُ مِنْ جَهْدٍ

وبقدر ما أحتملُ من تعبٍ — يكون نجاحي في الحياة ، وكسي غيرِها وميرِها ؛ فطالبُ الآلائي لا يحصلُ عليها إلا إذا غاصَ في المله ونزلَ إلى قرارِ البحارِ ، وكذلك طالبُ المالِ لا يصلُ إليه ، ولا يحصلُ عليه ، إلا إذا تعبَ وجَدَّ ، واستسهلَ الصعبَ ، وسهرَ الليالي ، واستقامَ ، وصاحبَ خيارِ الإخوانِ ، واستعانَ بالصالحينَ منهم ، وخاصَمَ شرارَ الناسِ ، وبعدَ عنهم ، وفرَّقَ بينَ السليمِ والأجربِ . حدثتُ قيسى هذا الحديثَ فاطمأنتُ إليه ، وارتاحتُ له ، فاستخرتُ الله ، ويستُ البقية الياقية لي من المقار ، واستعنتُ برأى بعضِ التجارِ الذين اختادوا الأسفارَ ، وركوبَ البحارِ في شراءِ ما يلزمُني للتجارةِ من أسبابِ ، واشتريتُ ما أشاروا به عليَّ ، ثم رافقتهم في المركبِ ، وانحدرتُ إلى البصرة .

خرجنا إلى عرضِ البحرِ ، وسرنا فيه الأيامَ والليالي في ربحٍ طيبةٍ رُخاء ، وجوِّ رائقٍ صحوٍ ، ومررنا بجزيرةٍ بعد جزيرةٍ ، وجزرنا من برٍّ إلى برٍّ ، وكنا كلما مررنا بمكانٍ بُعنا واشترينا وقايضنا بما معنا من بضائعٍ ، حتى مررنا بجزيرةٍ كأنها روضةٌ من رياضِ الجنةِ : ماءً وأنهار ، وظلٌّ وأشجارٌ وأزهارٌ وأثمارٌ ، وحمامٌ وأطيَّارٌ ؛ وأمرَ صاحبُ المركبِ بإلقاءِ مراسيه بجانبِ الجزيرةِ . فألقيتُ المراسي ، ومُدَّ مَعْبُرٌ من السفينةِ إلى الشاطئِ . فعبرَ جميعُ الركابِ عليه ، وتفرَّقوا في أنحاءِ الجزيرةِ : فبعضُهم من أوقَدَ ناراً وصارَ يطهو ما صاده من طيرٍ ، ومنهم من أخذَ يقطفُ مما نضجَ من مزارِها ،

ومنهم من سارَ متفرِّجاً في أنحائها ، ومنهم من بلغ منه التنبُّ مبلغاً عظيماً
فاستلقى على عُشْبِهَا يَتَفَيَّأ ظِلَّهَا .

وكنْتُ أنا من الذين سارُوا في أنحاء الجزيرة يحوسُّون خلالها ، فسرتُ
أنأملُ جالَ مشاهدِها ، وبدبجَ صنْعِ الله فيها . وبينما جِئُنا في أكلٍ
وشربٍ ، ولهوٍ ولعبٍ ، إذ بكبيرِ البحارةِ يصيحُ بأعلى صوته قائلاً :

يا رُكَّابَ السفينةِ ، أنشدُوا السلامةَ ، واتمسُّوا النجاةَ ، واتركُوا
أسبابكم وما أَتَمُّ فيه ، وبادِرُوا بالصُّعُودِ إلى المركبِ ، لتسلَمُوا بأنفسِكُم
من الهلاكِ ، فإن هذه الجزيرةَ التي أَتَمُّ عليها ما هيَ بجزيرةٍ ، وإنما هي
سمكةٌ كبيرةٌ ، رسبتْ في وسطِ البحرِ من أزمانٍ طويلةٍ ، وهودٍ سحيقةٍ
فترآكت عليها الرمالُ ، وجرى فيها الماءُ ، ونبتتْ فيها الأعشابُ والنباتاتُ
وأوتِ إليها الأطيَّارُ — فبذتْ كالجزيرةِ الموقَّعةِ المعجبةِ ، فلما أوقدتم عليها
النيرانَ ، وسرت فيها الحرارةُ — أحسَّتْ وتحركتْ ، وبعد قليلٍ
ستفُوصُ بكم في البحرِ ، وتغرقُون جميعاً ؛ فأسرِعُوا وبادِرُوا بالنجاةِ بأنفسِكُم .

فما سمعَ الرُكَّابُ هذا النذيرَ ، حتى بادِرُوا إلى السفينةِ مسرعين ،
مُخْلِفين وراءهم حوائجهم ومتاعهم : فمنهم من استطاعَ الصُّعُودَ إليها ،
ومنهم من لم يستطعْ ، ففاصت بهم الجزيرةُ المزعومةُ إلى قرارِ
البحرِ ، وطوَّتْهم بين أمواجه ، وكنْتُ أنا بين المتخطفين الذين لم يدركوا
السفينةَ ، فسقطتُ بين أمواجِ البحرِ المتلاطمةِ المفرقةِ ، وظللتُ أكافُحُ
الموجَ ، وأصارعُ الموتَ في هذا البحرِ المعجَاجِ ، حتى قَبِضَ اللهُ لى قطعةٍ

من الخشب ، فتشبت بها واعتلتها ، وأخذت أذفع الأمواج بها ، كأنها
 مجدافان ، وعنى ثابتة في السفينة الثقلية ، استنيت ولا منيت ، فإن من
 عليها لم يلتفتوا إلى من خلفهم وراءهم يفرقون ، فرحاً بنجاتهم بأنفسهم
 وأرواحهم ، وظلت السفينة تبعد عن رويداً رويداً ، وعنى متعلقة بها
 تعلق الهالك بخيط الحياة ، حتى أضحت نقطة سوداء في عرض الأفق .
 حينئذ انطلقاً أمامي شعاع الأمل ، وأيقنت أن لا مفر من الموت غرقاً ،
 ولا مهرب من أن يكون قاع البحر لمطامى قبراً . فوهنت عزيمتي
 وضعفت أعصابي ، واسترخت أعضائي ، واستسلمت لمصير المحتوم ،
 وتركت نفسي ملقى فوق لوح الخشب تتقاذفني الأمواج ، وتطوح
 بي هنا وهناك ، حتى لقي الليل بسواده ؛ ومرّ الليل ثم جاء النهار ،
 وانقضى اليوم الثاني كما انقضى اليوم الأول ، تلعب بي الأمواج
 وتتقاذفني ، وأنا مستسلم لا حول لي ولا قوة ، فازدادت نفسي يأساً ،
 وماتت أطرافي ، وسكنت عن الحركة ، وتبدل حسّي ، وصرت لا أشعر
 بمرور الزمن عليّ . ولجأة شعرت بشيء يصدمني ، فالتفت من ذهولي ،
 وأحسست شعوراً خفياً يشحذ حواسي ، ويحدّ عزري ، ففتحت عيني ،
 ونظمت حولي ، فرأيتني بالقرب من شاطئ جزيرة عالية ، باسقة
 الأشجار ، تتدلى أغصانها إلى البحر ، ورأيت ما صلتني ، فإذا هو شجرة ،
 فتجدد عني الأمل ، ودبت في جسي الحياة ، وجاهدت ، فأمسكت
 بالعصن المتدلى ، وتعلقت به ، وظلت أجاهد وأناضل مستعيداً من حبي

للحياة قوةً ، ومن شَقِيَّ النَّجاةِ عزيمةً ؛ فأفلحتُ في الخروج إلى أرضِ الجزيرة ، وما كدتُ أطوُّها حتى وجدتُ رَجُلَيْنِ ثَقِيلَيْنِ خَدِرَتَيْنِ ، ورأيتُ آثارَ نهش السمكِ بِأَحْمَصَيْهِمَا ، فارتعيتُ على الأرضِ ثَقِيلاً ، ثم غبتُ عن وُجُودِي .

وظِلَّتُ فاقدًا رُشْدِي ، حتى أرسلتُ شمسُ النهارِ حرارتها على ، ففتحتُ عيني ، وكأفحتُ نصلبَ أعضائي ، حتى استطعتُ الجلوسَ ، فوجدتُ قدميَّ الداميتين قد تورمتا ، فلم أستطيعَ النهوضَ عليهما ، ورأيتُ من حولي أشجارَ الجزيرةَ محملةً بالثمارِ الكثيرة ، والفواكهِ الناضجة ، ورأيتُ عيونَ الماءِ العذبِ تجريَ بينها . فتحاملتُ على نفسي ، وأخذتُ أزحفُ ، حتى استطعتُ أن أنالَ ما يُمسِكُ رِمَقِي من فاكهةٍ ، وأشربَ ما يُروى جِسمِي من ماء ، واستمرَّ بي الحالُ كذلكَ عدةَ أيامٍ ، أزحفُ أو أأخبُوكلما ألحَّ عليَّ الجوعُ ، وزقزقتُ عصافيرُ بطني ، فإذا وصلتُ إلى بعضِ الفاكهةِ ، وإلى مجرى الماءِ - أكلتُ وشربتُ ثم استلقيتُ ؛ فلما انتعشتُ نفسي ، وقويتُ رُوحِي ، واستردَّ جِسمِي بعضَ نشاطِهِ ، صنعتُ لنفسي عصاً من فروعِ الأشجارِ أو كُكَّ عليها ، وأستعينُ بها على السيرِ حتى تُشَقِّ قَدَماي .

وبينما أنا يوماً سائرٌ ، وقد توغَّلتُ في أحدِ جوانبِ الجزيرة - لاح لي شَيْخٌ حيوانٍ قُرب شاطئِ البحر ، فظننتُ أنه حيوانٌ من حيواناتِ البحر ، فاقتربتُ منه أتفرَّجُ عليه ، فوجدتهُ فرساً عظيماً مربوطاً في شجرةٍ ضخمةٍ ، فعجبتُ من ذلكَ أشدَّ العجبِ ، وأحسَّ بي القَرسُ ، فصلَّ

صَهْلَةً عَظِيمَةً ارْتَعَبْتُ لَهَا، وَأَرَدْتُ الرُّجُوعَ، وَلَمْ أَكْذُ أَفْكَرُ فِي الرُّجُوعِ
حَتَّى خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ مَكَانٍ تَحْتَ الْأَرْضِ فَرَجَمْتُ فَرْعًا مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ
فَصَاحَ عَلَى الرَّجُلِ، وَتَبِعَنِي، وَقَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ وَمِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟
وَكَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ؟

فَتَوَقَّفْتُ عَنِ الْمَسِيرِ، وَقُلْتُ لَهُ: يَا سَيِّدِي؛ إِنِّي رَجُلٌ غَرِيبٌ، وَكُنْتُ
فِي مَرْكَبٍ فَفَرَقْتُ أَنَا وَبَعْضُ مَنْ كَانَ فِيهِ، فَرَزَقَنِي اللَّهُ قِطْعَةً خَشَبٍ
رَكَبْتُهَا، وَظَلَّتْ الْأَمْوَاجُ تَلْعَبُ بِي، وَتَتَفَادَّتُنِي، حَتَّى طَرَحْتُنِي فِي
هَذِهِ الْجَزِيرَةِ.

فَأَخَذَ الرَّجُلُ يَدِي، وَقَالَ: تَعَالَ مَعِي.

فَسَرْتُ مَعَهُ، فَزَلَّ بِي إِلَى سِرْدَابٍ مُظْلَمٍ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَدَخَلَ بِي
إِلَى حُجْرَةٍ يَنْتَهِي إِلَيْهَا السِّرْدَابُ، وَأَجْلَسَنِي فِيهَا، وَأَتَى لِي بِشَيْءٍ مِنَ
الطَّعَامِ، فَأَكَلْتُ حَتَّى أَكْتَفَيْتُ، وَأَحْسَسْتُ شَيْئًا مِنَ الْإِطْمِئْنَانِ يُدْخِلُ
نَفْسِي حِينَمَا أَقْبَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ، وَارْتَحَمْتُ لِمَصَاحِبَتِهِ. وَأَتَى الرَّجُلُ وَجَلَسَ
بِجَانِبِي، وَسَأَلَنِي عَنْ حَالِي، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِي كَامِلَةً مِنَ الْمَبْتَدَأِ إِلَى
الْمُنْتَهَى. ثُمَّ قُلْتُ لَهُ:

اأَقْدَ أَخْبَرْتُكَ بِكُلِّ مَا حَصَلَ لِي، فَبِاللَّهِ عَلَيْكَ — يَا سَيِّدِي — إِلَّا
أَخْبَرْتُكَ بِحَالِكَ؟ وَمَا سَبَبُ جُلُوسِكَ فِي تِلْكَ الْقَاعَةِ الَّتِي تَحْتَ الْأَرْضِ؟
وَمَا سَبَبُ رِبْطِكَ الْقُرْسِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ؟

قَالَ الرَّجُلُ: أَعْلَمُ أَنَّنَا جَمَاعَةٌ مُتَفَرِّقُونَ الْآنَ فِي جَوَانِبِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ،
وَنَحْنُ سَوَاسُ الْمَلِكِ الْمَهْرَجَانِ، وَخَيَالَتُهُ، وَتَحْتِ أَيْدِينَا جَمِيعُ خَيْلِهِ، وَفِي

كل شهر عند اكتمال الفجر تأتي بالأفراس الجياد ، وتربطها على شاطئ
الجزيرة قرب البحر ، وتحتفي في قاعات تحت الأرض ، فتجبي خيول
من خيول البحر على راحة تلك الأفراس ، وتخرج إلى البر ، وتتألف
أفراسنا ، حتى تأنس إليها ، فتخطب بها ، ثم تريد أخذها معها فلا تقدر أن
تتبعها لإحكام الرفاق ، فتصيح عليها ، وتحمي لها ، وتضربها برأسها ،
وترفسها برجليها ، فتسمع نحن صوتها ، فنخرج عليها صارخين ، فتخاف
منا ، وتجفل ، وتزول في البحر ، وتكون الأفراس قد حملت منها ، فتلد
بمد ذلك هياراً لا يوجد لها نظير على وجه الأرض ، ولا تقدر قيمة المهر
منها ببال ، وأنا جالس الآن في انتظار خروج الخيل من البحر ، وسأصحبك
معي - إن شاء الله - إلى اللك المهرجان ، وأريك بلادنا ، ولولا أننا
ليناك الآن ما كنت لتقابل أحداً في هذه الجزيرة ، وما كنت لتستطيع
الرجوع إلى بلادك أبداً .

فأخذت أشكره ، وأحمد الله الذي هيا لي لقاءه .

وما مضت إلا فترة قصيرة ، حتى خرجت الخيل من البحر ، وصرخت
صرخة عظيمة ، وحممت ووثبت على الأفراس ، وأرادت أخذها معها ،
فلم تقدر ، فرفست وصاحت عليها ، فأخذ الرجل السائس سيفاً ودرعاً
وخرج من القاعة ، وهو يصيح وينادي على رفاقه : اخرجوا إلى
الحسن يارفاق .

وأخذ يضرب بالسيف على الدقة ، وسرعان ما جاء رفاقه مسرعين



وبأيديهم الرماح ، وهم يصرخون ويصيحون . فجفلت الحصن ، ومادت من حيث أتت . وبعد قليل أتى قرء آخر من الرجال يقود كل منهم فرسه ، والتفوا جميعاً حيث كنت أنا وصاحبي : فلما رأوني مع صاحبيهم استغربوا وسألوه عني ، فأخبرتهم بأمرى .

ثم إنهم أحضروا طعاماً ، وجلسوا جميعاً حوله ، ودعوتني إليه ، فجلست أكل معهم ، وبعد أن فرغوا ركبوا الأفراس واصطحبوني معهم .

وما زلنا سائرين حتى وصلنا إلى مدينة الملك المهرجان ، ودخل السواس إليه ، وأخبروه بقصتي ، فطلبني ، فلما مثلت بين يديه ، رحب بي ، وسألني عن حالى ، فأعدت عليه قصتي ، فلما فرغت منها قال لى :

يا ولدى ، لقد قاسيت كثيراً من الشدائد والصعاب ، ولولا لطف الله ، وطول أجلك — ما نجوت منها . فحمد الله على سلامتك .

وأمر لى الملك بكساء فاخر ، وعيّننى عاملاً على الميناء ، وكاتباً أخصى كل ما يمر فيه من سفين ، وأجبي ضرائب الملك .

وأخلصت للعلك فى العمل ، فأحببني ، وقرّبنى منه ، وصرت مقدماً عنده فى الشفاعات ، وقضاء مصالح الناس .

ومكثت فى هذه البلاد زمناً طويلاً ، وأنا لا أفتأ كلما مرت سفينة بالميناء أسأل بحارتها ، وأستفهم من رُكّابها ، عنّ يعرف الطريق إلى بغداد ، فلم يدثنى أحد ، برغم كثرة الوافدين على هذه البلاد من مختلف الأقطار والأجناس والأديان .

وأخذَ الأملُ في إمكان عودتي لبلادي يضمُّني في نفسي شيئاً فشيئاً ،
حتى انقلبَ ياساً ، وكنتُ سئمتُ هذه القريةَ الطويلةَ ، وحننتُ إلى
وطني ، واشتقتُ إلى أهلي وولدي ؛ ولم يطفئ اليأسُ نار الحنينِ إلى الوطنِ ،
والاشتياقِ إلى الأهلِ والولدِ .

قال السندبادُ لسامعيه :

وقد رأيتُ في هذه الفترةِ كثيراً من العجائبِ والقرائبِ مما
لو رويته لُكم لطلالَ بنا الكلامُ .

فقد رأيتُ مثلاً سمكاً طُولُ الواحدةِ مائتا ذراع ، كما رأيتُ سمكاً
وجههُ مثل وجهِ البوم ، ورأيتُ أقواماً لهم عاداتٌ وتقاليدُ غاية في الغرابةِ
والعجبِ .

وأخيراً أتى يومُ الفرجِ ، فبينما أنا واقِفٌ يوماً على شاطئِ البحرِ ،
أقبلتُ سفينةٌ كبيرةٌ ، وألقتْ مراسيها في الميناءِ ، وأخرجَ البحارةُ
جميعَ ما بها من أنواعِ البضائعِ ، وأسبابِ التجارةِ - إلى البرِّ ، وأنا
أحصيها وأكتبها . وبعد أن انتهيتُ سألتُ صاحبَ السفينةِ ، وكنتُ
أحسستُ في نفسي أني رأيتُ هذا الوجهَ من قبلُ .

هل بقي شيءٌ آخرٌ من البضائعِ ؟

فقال : لم يبقَ معي غيرُ تجارةٍ كانتُ لرجلٍ تاجرٍ ، وغرقَ منّا في البحرِ ،
فهو ودبنةٌ لدينا ، وقد عزمنا على بيعها ، وتخلّصَ منها إلى أهلِ
بمدينةِ بغدادِ .

فقلت للرئيس، وقد بعث اسمُ بغداد رغبةً في جسدي : وما اسمُ
هذا الرجل صاحبِ البضائع ؟ .
فقال : اسمه السندباد .

فلما سمعتُ اسمي دَقَقْتُ النظرَ في وجهِ الرجلِ فعرَفْتُ فيه رَئيسَ
المركبِ الذي كنتُ عليه ، فصَحْتُ به صيحةً عظيمةً ، وقلت له :
يا رئيسَ المركبِ ، ويا كبيرَ البحارةِ ؛ إنني أنا السندباد ، وأنا
صاحبُ البضائع التي معك ، ثم أخذتُ أقصُّ عليها القصةَ من وقتِ
أن كنتُ على ظهرِ السمكةِ التي ظَنَنَّاها جزيرةً إلى أن نَجَّاني الله ووصلتُ
إلى هذا المكانِ .

فهزَّ الرئيسُ رأسه متأسِّفًا وقال : لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ ! ما بقي
لأحدٍ ذمةٌ ولا ضميرٌ ! فقلتُ له مُندهشًا : ولِمَ هذا القولُ يا سيدي ؟ !
فقال : لأنك سمعتني أقول : إن معي بضائعَ غريقِ صاحبها ، فأردتُ
أن تأخذها بلا حقٍّ ، لقد رأيتُهم يفرقُ مع جماعةٍ من الركابِ ، وما نجا
منهم أحدٌ .

فقلت له : يا سيدي ، اسمع قصتي ، واتَّبِعْ لكَلامِي ، فإنا بكاذِبِ
ولا منافقٍ ؛ ثم أعدتُ عليه قصتي من حين خروجنا من بغداد حتى غرقنا
وذكرته ببعضِ أمورٍ حصلتْ بيني وبينه .

عند ذلك تحقَّقَ الرجلُ صدقي ، وأيقنَ أني أنا السندبادُ ؛ وأتى بعضُ

التجار من رفاق فرعونى ، وفرحوا بى ، وعانقهم وعانقونى ، وهتفونى
بالسلامة . وقالوا :

والله إننا ما كنا نصدق أنك نجوت من النرق ، ولكن ، لقد
وهب الله لك عمراً جديداً ، وصدق المثل : أعطني عمراً وارزمني
فى البحر .

ثم أخرجوا لى بضائى ، فوجدت أسى مكتوباً عليها ، وهى كاملة
لم ينقص منها شىء ، ففتحتها ، وأخرجت منها بضائع نفيسة غالية الثمن ،
وحملتها إلى الملك المهرجان هديةً منى إليه ، وقصصت عليه قصة
الركب ، وقصة بضائى التى وصلت إلى سليمة ، فتعجب الملك من ذلك
غاية العجب ، وظهر له صدق فى جميع ما أخبرته به ، فبالغ فى إكرامى ،
وهب لى هبة عظيمة نظير هديتى .

وبعت بعد ذلك بضائى فى المدينة ، وربحت فيها ربحاً كبيراً ،
ثم اشتريت بضائع أخرى من منتجات تلك البلاد ، ثم ذهبت إلى الملك
وشكرته على فضله عالى ، وإكرامه لى ، واستأذنته فى السفر إلى بلادى
وأهلى ، فأذن لى وودعنى وأعطانى عطايا أخرى جزيلة .

وسافر بنا المركب وساعدتنا الرياح مدة سفرنا الطويل ، حتى
وصلنا بمونة الله سآلين إلى البصرة .

وما كان أشد فرحى حين وضعت قدمى على أرض الوطن . وأقت

بالبصرة وقتاً ، ثم رحلتُ إلى بغداد ، دارِ السَّلام ، ومَعِيَ من الأَحمالِ شَيْءٌ كثيرٌ عظيم القيمة .

ولا تَسْأَلُوا عن فرجِ أَهلي وأَصحابي بمودَّتِي ، فإنهم لقَوْنِي خَيْرَ لِقَاءٍ ، ورجبُوا بي أَكْرَمَ تَرْحِيبٍ ، ووجدتهم كما تَرَكْتُهُمْ إِلَّا ما كان من تَقْدِيمِ السَّنِ ، والتَّغْيِيرِ القليلِ في الشَّكْلِ واليَسَمَتِ . واشتريتُ لِي دُوراً وَعَقَّاراً واتَّخَذْتُ خَدَمًا وَحَشَمًا ومالِكاً وَسَرَّارَ ، وعادَ إِخوانُ السَّوءِ ، ورُقِّعَ الشَّرُّ إلى مُعاصرتِي ومَنادَتِي ، وَأَغْوَوْنِي فَنَوَيْتُ ، ونَسِيتُ ما كانَ من أَمْرِي مَعِيَ ، وما أَصابَنِي من البُؤْسِ والنَّذْلِ بِسَبَبِهِمْ ؛ فرَجَعْنَا سِيرَتَنَا الأولى من الانْتِباسِ في اللّهُو واللذاتِ ، والاستِمتاعِ بالمآكلِ الطَّيِّبَةِ والأشربةِ المنعشةِ ، ولكن كانَ ذلكَ بِقَدَرٍ .
وهذا ما كانَ في أولِ سَفَرَاتِي السَّبعِ .

ولم يَنْتِهِ السَّنْدُ بادُّ البحرِ من حديثه حتَّى كانَ النِّهارُ قد انْصَرَمَ ، ومَضَى جِزءٌ كبيرٌ من اللَّيْلِ ؛ ووعدَهم أَن يَقصَّ عليهم خَبَرَ السَّفَرَةِ الثَّانِيَةِ في جِلْسَةٍ أُخْرَى .
وأمر السَّنْدُ بادُّ البحرِ ، للسَّنْدِ بادِّ الحِمالِ بِعِشاءٍ فاخِرٍ ، فأَعَدَّتْ لَهُ مائدةً جَمَعَتْ بَيْنَ قَبِيْدِ اللَّحْمِ وشِواءِهِ ، وصنُوفِ الفاكِهَةِ ، وألوانِ الفَطائِرِ ، فزَحَمَ مَعَدَّتَهُ بما اشْتَهَى من هَذَا الطَّعامِ الَّذِي كانَ غَايَةَ ما يَتَمَنَّاهُ أَن يَملَأَ أَفْقَهُ بِرَأْيِجَتِهِ الَّتِي تَفُوحُ في الهِواءِ ، لا أَن يَملَأَ مَعَدَّتَهُ ، حتَّى لَمْ يَتْرَكْ فيها فِراغاً لِمَا لَيْسَ وَلَا لِنَفْسِهِ . ثم أَمَرَ لَهَ بِمائدةٍ مِثقالِ ذَهَبًا . فشَكَرَهُ الحِمالُ ، وأَخَذَ الهِبَةَ ، وانصَرَفَ وهو في أَشدِّ العَجَبِ بما رَأَى وَسَمِعَ .

وكان السندبادُ الحمالُ أمينًا ، فإنه عاد إلى حمّله الذي كان يحمله وينوء به وأوصله إلى صاحبه قبل أن يَمِضِيَ الليلُ ، حتى يستطيع أن يدرك مجلس السندبادِ البحرى ، ليستمتع بما يقصّه عليه من أنباء سَفَراته ، وبما عسى أن يتبع ذلك من طعامٍ شهى ، وماءٍ روى .

• • •

وفى اليوم الثانى قصد الحمالُ إلى منزلِ السندبادِ البحرى فرحبَ هذا به ، ولما اكتملَ جمعُ الأَمرس من الأصحاب أمر صاحبُ الدارِ بإحضارِ الطعامِ ، وبعد أن تناولوه فى جَوْهٍ بهيجٍ مَرِجٍ ، ونالوا نصيبَهم من الراحة - طلبوا من السندبادِ البحرى أن يُقصَّ عليهم ما وعدهم به . فقال :



السَّفَرَةُ الثَّانِيَّةُ

لقد أخبرتكم أمس ، يا إخواني ، أنني عدتُ من تجارتي الأولى موفورَ
الرزقِ ، واسعَ النقي ، وأخذتُ أتقنُ ماوسعتي الإفتاقُ ، وقد تساقطَ
حولِي الرفاقُ السابقون تساقطَ الذبابِ على المسلِ ، ولكني لم أحرهم
ولم أغرمهم ، وحاولوا أن يَخدعوني فلم أُنخدع ، وزئنا إلى السوء فلم يَحُلْ في
عيني ، لأن هذا المالَ كسبته بـرق جَيِّني ، ومع ذلك فقد صرقتني الله عنهم
بما أودع في قسِي من حب السفر ، والميلِ إلى المخاطرة . والرغبة الشديدة
في مصاحبة التجار ، ورُكوبِ الأخطارِ في البرِّ والبحر ، وزادني رغبةً أن
الله يُجاني في سَفَرتي الأولى من المكاري ، وعدتُ إلى بلدي بمالٍ كثير
قهيأتُ للرحلة الثانية مع التجار زُملائي فأخرجت جزءاً من مالي ،

ابتعثُ به ما يلزَمُ للسفر من بضائعٍ ، وما يحتاج إليه المسافرُ من متاعٍ وزادَ وخلافهما ، وقصدتُ إلى الساحل ، فوجدتُ سفينةً جديدةً لها قُلُوع من قماشٍ جيدتين ، وبها عددٌ كبير من البحارة ، فَأُثِرْتُ حولي فيها مع جماعة من التجار ، ثم سافرنا في ذلك اليومِ فسيه ، وسارت بنا السفينةُ من بحرٍ إلى بحرٍ ، ومن جزيرةٍ إلى جزيرةٍ ، وكلما رست بنا على مدينةٍ نخرجُ إليها ، وتقابلُ تجارها ، وأربابَ دولتها ، ونبيعُ ونشتري ، وقايضُ ، ثم نَسْتَأْنِفُ السَّفَرَ .

وَأَلَقْتُ بنا المقاديرُ إلى جزيرةٍ جميلةٍ كثيرةٍ الأشجار ، يانعةٍ الأثمار متفتحةٍ الأزهار ، كثيرةٍ الأطيّار ، وبها كثيرٌ من الأنهارِ الصافيةِ الجارية ، قفزنا فيها ، فلم نَجِدْ بها أحداً ، فأخذنا نتجولُ في أرجائها ، ونطوفُ في أنحائها ، مُتَفَرِّجينَ معجبينَ .

وَقَعَ بصري على عينِ ماءٍ صافيةٍ نبتت حولها أشجارٌ كثيرةٌ عاليةٌ ، قد تشابكتُ غصونها ، ونما بجانبها الوردُ والريحانُ ، ففدتُ كأنها غرفةٌ جميلةٌ ، سقّفها غصونُ الشجرِ وزهره ، وتجرى من تحتها الأنهارُ .

لما رأتُ نفسي ذلك المنظرَ الجميلَ البهي تاقْتُ إلى الجلوسِ فيه ؛ فجلستُ وأخرجتُ طعاماً كان معي فالتهمتهُ ، واتتمشتُ نفسي بما هبَّ عليّ من نسيمٍ رطبٍ عطريِّ الرائحةِ ، وشمّرتُ أعضائي بالراحة ، وأحسستُ أثني في شبه سكرَةٍ ، فثقلَ رأسي ، واسترختُ أعضائي ، ثم غلبني النومُ ، فَنِمْتُ .

استترقتُ في نومٍ طويلٍ صميقٍ ، فاستيقظتُ إلا والمكانُ قفرٌ ،
ليس فيه إنسى ولا جنى . قهضتُ من مكاني أبحثُ عن رفاقي فلم أجِدْ
منهم أحداً ، فجريتُ صوبَ السفينةِ فلم أجدها في ترساها ، فقد أفلتتُ
بالركابِ جميعاً وخلفتني في الجزيرةِ وحيداً .

وجنَّ جنونى ، وعلسكتنى ثورةٌ عنيفةٌ ، فأخذتُ أبكي وأصيح ،
وأصرخُ ، وألطمُ رأسى ، وأندمُ على ما فعلتُ ، فإن الله قد نجاني في المرقّةِ
الأولى ، وأحسنَ إلىّ بما هيأ لي من فرصةِ النجى والمالِ الكثيرِ ، فلم كان
هذا الطمعُ والجشعُ ؟ وأيقنتُ أنّي هالكٌ لا محالة ، إن لم يكن من وحيى
صّارٍ ، أو سبَّحٍ مُفترسٍ ، فسيكونُ من الجوعِ ، وبقيتُ أوّلبُ نفسى ،
والنّسوةُ تلكَ الساعةِ التى وطئتُ فيها قدمائى ذلكَ المكانَ المشؤمَ ، الذى
جعلنى أستغرقُ في النومِ فلا أشعرُ بمرورِ الوقتِ ، ولا بقيامِ القومِ
للرحيلِ نفلقونى في الجزيرةِ دون أن يَفْطِنُوا لنيابى .

وذُرتُ في الجزيرةِ كالمجنونِ ، لعلّى أجِدُ أحداً آنسُ به ، وأطمئنُ
إليه ، فلا أجِدُ ، وكلما ألحَّ على التعبِ من كثرةِ المسيرِ أندبُ سوءَ حظّى ،
وظلامَ مصيرى ، بعد أن خرجتُ من بلادى ، حيث كنتُ أنمُ بين
أهلى وأصحابى بأجلِ حياةٍ وأهلى عيشٍ وأرغده ، وأدفعُ بنفسى إلى طرقِ
المخاطرِ والمهلكِ . وإذا كنتُ قد نجوتُ في المرقّةِ السابقةِ بأن قيَّضَ
اللهُ لى من أخذنى إلى البلادِ العامرة ، فما فى كلِّ مرةٍ نسلُ الجزيرةِ ،
وهيئاتَ هيئات أن أجِدَ من يحمِّلنى إليها .

وخطر لى أن أصعد فوق شجرة مالية، أستكشف منها ما حول الجزيرة، فجعلت أعلو شجرة باسقة حتى بلغت قممها، وأخذت أنظر هنا وهناك، وبعينا وشمالاً، وأدور بعيني في كل ناحية، فلم تقع إلا على ماء وسماء وأرض ورمال وأشجار، وبينما أنا أدقق في النظر لاح لي شيء أيضاً كبير الحجم، قد درت أن عنده الثجاة، فهبطت من فوق الشجرة على عجل، وقصدت ناحية ذلك الشبح الأبيض، وقطعت مرحلة كبيرة قبل أن أشرف عليه، وما كنت أقرب منه حتى رأيت قبة عظيمة بيضاء، شاهقة الالو، واسعة الدائرة؛ فدنوت منها، ودُرت حولها، فلم أجدها منفذاً ولا باباً، وأردت الصعود عليها فغاثني قواى، ولم أستطع لشدة ملاسيتها؛ وكنت كلما حاولت ذلك تزلزلت قدمائى، وأملت يداى، وبعد أن يئست من ذلك، وضعت في مكان وقوفى علامة ثم دُرت حولها، أقيس محيطها، فإذا هو خمسون خطوة وإفية. وبينما أنا واقف بجانب هذه القبة اللساء متعجراً في أمرها، أفكر في طريقة تمكننى من دخولها أو الصعود عليها - إذ غامت الشمس وأظلم الجو، فظننت أنه قد حجبها غمامة كبيرة، وتسجيت لذلك أشد العجب لأن الوقت كان صيفاً، وسحابات الصيف قليلة، وليست دكناء ولا معتية، وإذا ظهرت فإنها عن قليل تتفشى وتزول، فرفست رأسى فرأيت في الجو طائراً عظيم الخلق، كبير الجثة، عريض الأجنحة، وهو الذى حجب ضوء الشمس عن الجزيرة، فازددت لذلك عجباً.

وتذكرتُ في هذه اللحظة ما كان يَنقلُه السَّيَّاحُ من أخبار ، ومن أن في بعض الجزائر طائراً عظيمَ الخلقَةِ ، يقالُ له الرُّخ ، يزقُّ أولاده بالأفيال ، وعرفتُ أن هذه القبة البيضاء اللساء ، ما هي إلا بيضة من بيض الرُّخ ، وسرعان ما صدمتني هباتٌ قويةٌ من الهواء آتيةٌ من تصفيق جناحي ذلك الطائر الضخم الذي هبطَ فوق القبة ، واحتضنها ، ونشرَ جناحيه حولها .

تملكني فزعٌ شديدٌ ، وأردتُ الفرارَ من هذا المكانِ ، خوفاً من أن يراى ذلك الحيوانُ الكاسيرُ ، ولكن إلى أينَ الفرارُ وهو إذا حوَمَ في الجوِّ رأى كلَّ شيءٍ في الجزيرة ، ووقعَ بصرُهُ على كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ فيها ، فالهربَ لن يُنجيني من أذى ذلك الطائر إذا أرادَ بي شرّاً ، ومن حُسنِ حظي أني وجدته قد هدأ واستكان ، واستغرقَ في النومِ ، ورجلاه ممددتان على الأرضِ . دارَ في خاطري : ماذا لو أوقفتُ نفسي برجلِ هذا الطائرِ القويِّ الضخمِ ، وسوف لا يُحسّ ، فيطيرُ بي ، وينقلني من هذه الجزيرةِ النائيةِ إلى موقعٍ آخرَ أستطيعُ أن أصلَ منه إلى مكانٍ أهلٍ بالسكان ، لأنه لا بد أن يَنشَى أما كن عامرةً في أثناء رحلته ؟

لم أتوانَ في تنفيذِ خطتي ، فكلكتُ عمامتي من فوقِ رأسي وثنيتهما ، وقتلتها حتى صارت مثلَ الحبلِ ، وحزمتُ بها وسطى ، وربطتُ نفسي في رجلِ الطائرِ ، وأوقفتُ الرباطَ .

وقضيتُ ليلتي ساهراً مُوتهاً برجلِ الطائرِ ، حتى إذا لاحَ الفجرُ ،



وبانَ الصَّباحُ ، انتفض الطائرُ من فوق يَبْضَتِهِ ، وصاحَ صيحةً عظيمةً وألقَعَ بى فى الجو ، وما زالَ يملو ويرتفعُ حتى ظننتُ أنه وصلَ إلى عَنانِ السماء . وبعد قليلٍ أخذَ يتدرجُ ها بَطا ، حتى نزلَ بى إلى الأرضِ ، وحطَّ فى مكانٍ مرتفعٍ عالٍ ؛ وما كدتُ أشعرُ أنى صرتُ فوقَ الأرضِ ، حتى أسرعْتُ وفككتُ الرباطَ من رجليه وأنا خائفٌ أن يشمرَ بى فينقضَّ عَلىّ ، ثم اتمدتُ عنه وأنا أتنفّضُ وأرتجفُ ، وما كدتُ أفعلُ ، حتى رأيته قد طارَ ، واقتضى عَلىّ شئاً وأخذهُ بمخالبِهِ وارتفعَ يشقُّ به أجوازَ الفضاء ، فتأملْتُ هذا الشئَ ، فإذا هو حيةٌ عظيمةٌ كبيرةُ الجسمِ . والتفتُّ حَولِي أستكشفُ المكانَ ، فوجدتُنى فى مكانٍ عالٍ تحته وادٍ كبيرٌ واسعٌ عميقٌ ، وبجانبه جبلٌ عظيمٌ شاهقٌ لا يستطيعُ الإنسانُ أن يرى أعلاه ، ولا يقدرُ أحدٌ على الصعودِ فيه ، فأخذتُنى حسرةٌ ، وشملنى ندمٌ على ما فعلتُ ، ولتُ نفسى إذ تسبَّبتُ فى ثَقَلِي من الجزيرةِ حيثُ كانتُ بها الأثمارُ والأنهارُ إلى هذا المكانِ الموحشِ القفر ، الذى ليس به ما يؤكلُ ولا ما يُشربُ . وقلتُ لِنَفْسِي ، وأنا فى شدَّةٍ من الهمِّ والحسرةِ : لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العلى العظيمُ ! إني ما خلصتُ من مصيبةٍ إلا لأقعَّ فى مصيبةٍ أعظمَ .

واستجمعتُ قُوَاى ، وقتُ أمشَى فى ذلك الوادى ، فرأيتُ ما يخلبُ الأنظارَ .

رأيتُ أرضَه من حجرِ الماسِ ، وهو أعلى الجولهرِ وأسناها ، ورأيتُ

الأفاعي والحياتِ تحبِّي بين الصخورِ خوفاً من طيرِ الرِّيحِ ، حتى إذا ما جَنَّ الليلُ خَرَجْتَ تَسْعَى ، وهى عَظِيمَةُ الخِلْقَةِ ، عَظِيمَةُ الطولِ ، لو صادفَ الواحدةَ منها فإلَّا تَبْلَعْتُهُ ، فبلغَ منى الحزنِ مَبْلَغَهُ ، وَأَيَقَنْتُ أَنى هَالِكٌ لَا عَمَالَهَ ، بل إني قُلْتُ :

والله ، لقد عَجَلْتُ بِالْهَلَاكِ إِلَى نَفْسِي ، وَسَقَمْتُ إِلَى الْمَوْتِ سَوْقًا .
وولَّى النهارُ وأنا لَا أَتَّبِعُهُ إِلَى جُوعِي وَلَا إِلَى عَطَشِي ، وَنَسِيتُ أَكْلِي وَشُرْبِي ، وَاشْتَلْتُ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَكَانٍ آمِنٍ فِيهِ عَلَى نَفْسِي شَرٌّ هَذِهِ الْحَيَاتِ الْخَفِيفَةِ . وَأَخِيرًا لَاحَتْ لِي مَنَارَةٌ فَسَرْتُ إِلَيْهَا ، فَوَجَدْتُ بَابَهَا ضَيِّقًا ، وَوَجَدْتُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ حَجَرًا كَبِيرًا فَأَخَذْتُ أَدْفَعُهُ حَتَّى قَرَّبْتُهُ مِنْ بَابِ الْمَنَارَةِ ثُمَّ دَخَلْتُ فِيهَا ، وَشَدَوْتُ الْحَجَرَ نَحْوَ الْبَابِ ، حَتَّى سُدَّ بِهِ ، وَأَنَا دَاخِلُهَا ؛ فَشِمْتُ بِالرَّاحَةِ ، وَقُلْتُ : لَقَدْ أَمَنْتُ عَلَى نَفْسِي فِي هَذَا الْمَكَانِ ، وَغَدًا أَخْرَجُ وَأَنْظُرُ مَا تَفْعَلُ بِي الْمَقَادِيرُ ، وَتَأْهَبُ لِلنَّوْمِ ، بَعْدَ مَا تَكْبَدْتُ مِنْ تَسَبٍّ مُضْنٍ ، وَجَلْتُ بِنَظَرِي دَاخِلَ الْمَنَارَةِ ، فَوَقَعَ نَظَرِي عَلَى حَيَّةٍ عَظِيمَةٍ نَائِمَةٍ فِي صَدْرِ الْمَكَانِ فَوْقَ بَيْضِهَا ، فَأَعْتَدْتُ فِي جِلْسَتِي ، وَقَدْ اقشَعَرَّتْ بَدَنِي ، وَجَفَّ رِيقِي ، وَجَدَّ لِسَانِي فِي فَمِي ، وَقَضَيْتُ جَمِيعَ اللَّيْلِ سَاهِرًا أَنْظُرَ إِلَيْهَا ؛ وَقَدْ سَأَلْتُ أَمْرِي لِلْقَضَاءِ .

ولما لَاحَ الْفَجْرُ ، وَدَخَلَ بَصِيعُ النُّورِ مِنْ فَجَوَاتِ الصُّخُورِ — أَرْحَتُ الْحَجَرَ مِنْ مَدْخَلِ الْمَنَارَةِ ، وَخَرَجْتُ أُرْتَفِعُ مِمَّا بِي مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ، وَمِنَ الشَّهْرِ .

وينما أنا أسيرُ متحاملًا على نفسي — رأيت شيئًا قد سقطَ
وارتطمَ بالأرضِ أماي، فتأملته فوجدته ذبيحًا عظيمًا، فدرتُ بعينَيَّ في
المكان فلم أجِدْ أحدًا، فتعيرتُ من أمر هذا اللحم، واستعجبتُ مما
رأيتُ؛ وسألتُ نفسي: ومن الذي ألقى به؟ لعله سقطَ من تحالب طائرٍ
أتى به. وما انتهيتُ من تفكيري هذا إلا على صوت ارتطام ذبيحةٍ
أخرى بالأرض، فازداد عَجبي، واشتدت حيرتي، وتذكرتُ ما كنتُ
أسمعه من أقاصيص عن تجار الماس، وما يتبعونه من وسائل، وما يحاولون به
من حيل للحصول على الماس، ومنها: أن كلَّ تاجرٍ منهم كان يأتي بذبيحةٍ
ويضعُ فيها علامة، ثم يقذفُ بها في الأماكنِ الفائرة العميقة التي بها
أحجارُ الماس، ولا يستطيعون الوصول إليها، فتلصقُ بها أحجارُ الماسِ
وتأتي الطيورُ الكبيرة الضخمة، وتحملها إلى أعالي الجبال، فيخرجُ
التجارُ إليها، ويخيفونها بشقَى الوسائل، فتفرعُ الطيورُ، وتتركُ الذبائحَ
وتطيرُ، فيجىء كلُّ تاجرٍ إلى ذبيحته، ويأخذُ منها ما يكونُ قد علقَ
بها من قطع الماس، ثم يتركون اللحمَ للطيور.

فلما تذكرتُ هذه القصة، دبَّ في نفسي بعضُ الأمل، في إمكانِ
الخلاصِ من هذا المكانِ الموحش، وذلك بربطِ قسِي في إحدى هذه
الذبائح، ليحملني طائرٌ معه إلى مكانٍ آخرٍ ربما أجِدُ به بعضَ الأملِ في
الخلاصِ من الكربِ الذي أنا فيه.

فلما اختبرتُ هذه الفكرة في ذهني انتقيتُ من أحجار الماسِ أنفسها

وأكبرها حجماً ، وأثقلها وزناً ، وأغلاها قيمة ؛ مما لا يمكن أن يملق باللحم ووضعت في جيوبى ، وبين طيات ملايىسى . ثم صعدت إلى الرباط الذى هيات له من عمامتى ، وربطت به نفسى فى ذبيحة كبيرة ، حديثة الذبح ، تُفترى أضخم الطيور وأقواها ؛ وقبضت عليها بكلتا يديّ ، وتمنيت على الله أن يأتى بفريج سريع ، يُزجج عنى هذا العيب الثقيل .

وحقق الله أمنيّتى سريعاً ، فما مضى قليل حتى أقبل نسر كبير ، واقبض عليها ، وحملها بين غالبه ، وارتفع بها إلى الجو ، وأنا معلق فى أسفلها ، وظل النسر طائرًا حتى وصل إلى قمة الجبل ، وحطّ عليها ذبيحة ، وأراد أن ينهش منها ، وإذا بصيحة عظيمة أتت من خلف ذلك النسر ، وأصوات أخشاب تترج فوق الجبل ، فجعل النسر وطار مصعداً فى الجو ، تاركاً اللحم ، فكككت نفسى من الذبيحة على هجلى ، ونهضت على قدى وقد تلطخت يابى بالدماء ، ورأيت رجلاً يتقدم من الذبيحة فما إن رآنى بجانبها حتى فزع ، وارتب منى ، ولم يخاطبني ، ووقف متردداً مشدوهاً . وأخيراً استجمع شجاعته ، وتقدم من الذبيحة وأخذ يُقلبها ظهرًا لبطن ، وينظر فيها باحثاً ، لعله يجد شيئاً من الماس عالقاً بها فلم يجد شيئاً ، فصاح : واضيعتاه ! ويا حسرتاه ! ويا سوء حظى ! أى شيء هذا الحال ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ! وأخذ يعض بنانه تارة ، ويُقلب كفّه تارة أخرى ، ويرفُس الذبيحة بقدميه حيناً آخر ؛ فأشفقت

على الرجل وتقدمتُ منه ؛ فلما رآني ، وملأ عينيه مني — هذا بعض الهدوء ، وقال :

من أنت ؟ وما سببُ مجيئك إلى هذا المكان ؟

فقلتُ له : لا تخف ، ولا تحزن ، وهون عليكِ فلاني من خيارِ الإنس ، وكنتُ تاجراً ، ولِي حكايةٌ عجيبية ، وقصةٌ غريبةٌ ، وخبرٌ وصولي إلى هذا المكانِ أعجبُ الأخبارِ ، وسأقصُّه عليكِ ؛ وأنا معي شيءٌ كثيرٌ من حجرِ الماسِ ، وسأعطيكِ منه ما يكفيك ؛ وكل قطعةٍ مما معي أحسنُ من كل ما كانَ سيأتيكِ ، فلا تظنِّي أنَّ الفرصةَ ضاعتِ عليكِ ، بل إنَّ اللهَ هَيَأَ لكِ خيراً مما كنتِ تُريدُ ، وساقُ إليكِ أكثرَ مما ساقَ إلى زملائك جميعاً ؛ فاهدأ ، وشرِّ عن نفسك ، فشكرني الرجلُ واطمأنَّ إليَّ وأخذَ يتحدثُ معي . وعلمَ بي بقيةَ التجارِ فاتوا سراعا والتفوا حولي ، يسألونني خبري ؛ فأخذتُ أقصُّ عليهم قصتي ، واستمعوا إليَّ وهم في دهشةٍ وحُجبٍ ، وقالوا : واللهِ إنه قد كُتِبَ لكِ عمرٌ جديدٌ ، وجعل اللهُ حياتك ممدودةً موصولةً بهذه الحيلةِ العجيبةِ ، وأعطيتُ صاحبَ الذبيحةِ التي تملَّقتُ بها شيئاً كثيراً مما كانَ معي من الماسِ ، ففرحَ به أشدَّ الفرحِ وشكرني على حُسنِ ضياعي معه .

وصحبني التجارُ حيثُ قضينا ليلتنا في مكانٍ مريحٍ أمينٍ ، نمتُ فيه مِلَّ جفوني بعد ما قاسيتُ في اللَّيْلَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ مِنْ أهوالٍ .

ولما طلَعَ النهارُ استأقنَّا المسيرَ ، فسرنا في غاباتٍ واسعةٍ ، أشجارها

كَيْفَةً بَاسِقَةً، تَظَلُّ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا مِائَةَ إِنْسَانٍ؛ وَبِهَا أَشْجَارٌ إِذَا ثَقَبَ
الْإِنْسَانُ لِحَاوَهَا بِشَيْءٍ طَوِيلٍ حَادٍ - سَالَ مِنْهَا مَآوُهَا، وَعَقْدَ مِثْلَ
الصَّنْعِ، ثُمَّ تَجَفُّ الشَّجَرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتَصِيرُ حَطْبًا .

وَتَفَرَّقَ التَّجَارُ كُلُّهُ إِلَى وَجْهِهِ، وَبَقِيَ نَفَرٌ مِنْهُمْ مَعِيَ كَانَتْ وَجْهَتُهُمْ
وَجْهَتِي، فَفَرَحْتُ بِصَحْبَتِهِمْ، وَأَطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهِمْ، وَأَنْسَيْتُ بِهِمْ، وَصَرْنَا
نَتَقَلُّ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَنُشَاهِدُ مُشَاهِدًا لَمْ أَرَاهَا مِنْ قَبْلُ، وَتَتَفَرَّجُ
عَلَى مَا نَعْرِهُ بِهِ مِنَ الْبِلَادِ؛ وَقَدْ رَأَيْتُ فِيمَا رَأَيْتُ مِنَ الْحَيَوَانَ حَيَوَانَ
الْكُرْكُزِ كَدَنٌ وَهُوَ حَيَوَانٌ كَبِيرٌ الْجِسْمِ، لَهُ قَرْنٌ وَاحِدٌ غَلِيظٌ، فِي وَسْطِ
رَأْسِهِ وَيَرْعَى مِثْلَ الْجَامُوسِ فِي بِلَادِنَا، وَقِيلَ لِي إِنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ يَظْلُبُ
الْفِيلَ، وَيَفْرِزُ قَرْنَهُ فِي بَطْنِهِ وَيَسِيرُ بِهِ، فَيَسِيلُ شَحْمُ الْفِيلِ عَلَى عَيْنَيْهِ
فَيُغَمِّمُهَا . فَيَرْقُدُ بِجَانِبِ السَّاحِلِ، فَيَأْتِي طَائِرُ الرِّخِّ، وَيَحْمِلُهُ، وَيَرْقُ
أَوْلَادَهُ مِنْ لَحْمِهِ، وَبِمَا عَلَى قَرْنِهِ مِنْ شَحْمِ الْفِيلِ .

وَبُنْتُ بَعْضَ مَا مَعِيَ مِنْ مَاسٍ، وَاشْتَرَيْتُ تِجَارَةً، وَغَلَّظْتُ أُيْعُ
وَأَشْتَرَيْتُ إِلَى أَنْ وَصَلْنَا إِلَى الْبَصْرَةِ .

وَجِئْتُ بَنْدَادَ، وَدَخَلْتُ دَارِي، وَمَعِيَ مَالٌ كَثِيرٌ، وَبِضَائِعُ وَأَمْتَعَةٌ
وَاجْتَمَعْتُ بِأَهْلِي وَأَقَارِبِي وَأَصْحَابِي، وَتَصَدَّقْتُ، وَوَهَبْتُ، وَأَعْطَيْتُ،
وَأَهْدَيْتُ، وَأَكَلْتُ طَيِّبًا، وَلَبَسْتُ فَاخِرًا، وَصَرْتُ فِي سُرُورٍ وَانْبِطَاحٍ
وَفَرَجٍ وَانْتِشَاحٍ، وَنَسِيتُ جَمِيعَ مَا تَكَبَّدْتُهُ وَقَاسَيْتُهُ، وَصَارَتْ قِصَّتِي
قِصَّةَ مَسَلَّةٍ، أَقْصَاهَا عَلَى كُلِّ مَنْ يَسْأَلُنِي .

وغداً إن شاء الله أقصُّ عليكم حديثَ السَّفرَةِ الثَّالثَةِ . وأمر
السندباد البحري ، للسندباد البري الجمال بمشاء فاخر ، فتمشَّى ، وأمر
له بمائة مثقالٍ ذهباً فأخذها وانصرفَ وهو يكرِّرُ الشُّكرَ والدُّعاءَ
للسندبادِ البحري .

وفي الصُّباحِ أتى السندبادُ الجمالُ إلى منزلِ السندبادِ البحري ، ولما
اكتملتْ حلقةُ الأصحابِ وتناولوا طعامَهم ، قال السندبادُ البحري :



السَّفَرَةُ الثَّالِثَةُ

اعلموا يا إخواني ، أني عدتُ من السَّفَرَةِ الثَّانِيَةِ وأنا فَرِحُ جُذْلَانُ
بِعُودَتِي إلى بِلَادِي ، وقد ربحْتُ مالاً كثيراً عَوَضَنِي مَا فَقَدْتُهُ مِنْ
بِضَائِعٍ ، وجلبتُ قطعَ الماسِ الكَبِيرَةِ الغَالِيَةِ الَّتِي لَمْ تَوْجَدْ فِي قُصُورِ
أَغْنَى الْمُلُوكِ ، قَلَوِ أَرَدْتُ بَيْعَ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِحَصْلَتُ مِنْ ثَمَنِهَا مَا أَتَقَيُّ مِنْهُ
جَمِيعَ حَيَاتِي . وَمَضَتْ مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ وَأَنَا أَسْتَمْتَعُ بِكُلِّ أَسْبَابِ التَّعَمُّعِ ،
وَلَمَّا طَالَ بِي الْمَقَامُ ، سَيِّئْتُ الرَّاحَةَ وَاشْتَاقْتُ نَفْسِي إِلَى الْعَمَلِ وَالسَّعْيِ ،
وَالتَّجَارَةِ وَالرِّبْحِ ، لِأَنِّي لَسْتُ مِنَ الَّذِينَ يَرْكُنُونَ إِلَى الْكَسَلِ وَالذَّلْعَةِ ،
وَيُؤَثِّرُونَ السَّلَامَةَ — مَتَى تَوَفَّرَ لَهُمُ الرِّزْقُ وَكَثُرَ عَنْدهُمُ الْمَالُ ، فَهَيَأْتُ
نَفْسِي لَدَافِكَ ، وَاشْتَرَيْتُ بِضَائِعَ كَثِيرَةً وَسَافَرْتُ بِهَا مِنْ بَنْدَادٍ إِلَى
الْبَصْرَةِ ، عَلَى عَادَتِي ، وَجِئْتُ إِلَى السَّاحِلِ فَوَجَدْتُ مَرْكَبًا عَظِيمًا عَلَى

وشك الإنبحار وفيه تجاز وركابٌ كثيرون . كلُّهم أهلٌ خيرٍ ودينٍ
وصلاح ، فنزلتُ معهم ، وسافر المركبُ على بركةِ الله ، وجميعنا
مستبشرون بالخير والسلامة .

وطاف بنا المركبُ في البحارِ ورسا بنا على جُزُرٍ وبلادٍ كثيرةٍ وكان
كلُّما رسا بنا على مكانٍ نخرجُ إليه فنبيعُ ونشترى ونتفرَّجُ ، ونحنُ على
غايةٍ من السرور والانبساط ، وأصبنا في طوافنا هذا رباناً جزيلاً .

وفي أحدِ الأيامِ ، والمركبُ يسير بنا في وسطِ البحرِ العجاج ،
المتلاطمِ الأمواجِ وكان الرئيس واقفاً في مقدمةِ المركبِ ، ينظرُ في أفقِ
البحر - رأيتناه فجأةً قد صرخَ بأعلى صوته ، وأمر بطى القلوع وإرساء
المراسي ، فدهشنا لذلك جميعاً والتفتنا حوله سائلين ما الخبرُ ؟ ما وجه
الخطرِ ؟ أغارقون نحنُ أم نأجون ؟ فدارت عيناهُ في رأسه ، وقال :

إن ريحاً هوجاء عاصفةً لاح خطرُها في الأفقِ ؛ ها هي ذى مقبلةٌ
علينا ؛ ها هي ذى قد غلبتنا ، وعصفت بنا ؛ إنها تدفعُ المركبَ دفعا ، لقد
أقلتَ الزمامَ من يدينا ، لقد قذفت بنا المقاديرُ لسوء حظنا إلى جبلِ
الربع ، وأهلُه قومٌ مثل القرود ، وما وصلَ إلى هذا المكانِ أحدٌ وسلمَ
منه قط . وما نحن إلا هالكون جميعاً .

وما أتمَّ الرئيسُ كلامه حتى زحفت علينا هذه المخلوقات كالجرادِ
المنتشرِ ، وأحاطت بالمركبِ من كلِّ ناحية ، وأخذوا ينسلقونه وينزلون
فيه ، فرأيناهم أناساً متوحشين قصارِ القامةِ ، لا يزيدُ طولُ الواحدِ

منهم على أربعة أشبار ، وهم سود الوجوه ، صفراء العيون ، فطس الأنوف ، لهم شعر مثل اللبد الأسود لا يفهم لهم كلام ، ولا تعرف لهم إشارة . فخشينا إن بدأناهم بالقتال أن يقتلونا أكثر منهم ، والكثرة تغلب الشجاعة ، وتريننا لننظر ما يفعلون فرأيناهم قد ساعدوا الريح وساقوا المركب إلى جبلهم . وأخرجوا الركاب إلى الجزيرة واعتقلوهم بها . ثم استولوا على المركب وما فيه ، وساقوه بعد ذلك ولا ندرى إلى أين ذهبوا به :

وأنسانا حزننا على سوء مصيرنا ، صياح أموالنا وفقدان متاعنا ، فانتشرنا في الجزيرة نستكشف أمرها ، ونبحث عن منفذ لنا ، فوجدنا بها أشجارا كثيرة مثيرة ، محملة بأصناف النقول ، والفواكه الشهية ، وبها أنهار عذبة جارية ، فأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ، ولاح لنا من بعد بناء شامخ قائم في وسط الجزيرة ، فقصدنا إليه ، وقد تحرك في قلوبنا الأمل . واتعش الرجال .

وصلنا إلى القصر ، فإذا هو قصر مشيد الأركان ، متين البنيان ، على الأسوار ، له باب كبير من خشب الأبنوس مفتوح على مصراعيه ، فوجدنا داخله ساحة واسعة ، محاطة بأبواب مرتفعة ، وفي صدر المكان مصطبة كبيرة عالية نصبت عليها مواقد لإيقاد النار ، وعلقت فوقها أوانٍ وقدور ، وقد انتشر حولها كثير من العظام . ولم نجد في المكان أحدا قد هشنا كثيرا لذلك . وكان التعب قد استبد

بنا ، وألح علينا ، فجلسنا نستريحُ بتلك السّاحة ، ثم أخذنا النومُ فيمنّا .
 وظلّنا نائمين حتى غروبِ الشمسِ ، وإذا بالمكانِ قد ارتجّ بنا ارتجاجاً
 شديداً فكأنما زلزلت الأرضُ زلزالها ، وسمعنا من الجوّ دويّاً مزعجاً ،
 فارتجفت أجسامنا وارتعشت أوصالنا ، وحالت ألواننا ، وزاغت
 أبصارنا وجفّ ريقنا ، وأيقنّا أن بلاءً عظيماً سيحلّ بنا وما هي إلا رجعةُ
 طرفٍ حتى أبصرنا غملاً قد تدلّى من أعلى القصرِ ، طويلَ القامةِ
 كأنه نخلةٌ عظيمةٌ أسودَ اللونِ كالليلِ الحالكِ وله عَيْنانِ حمراوانِ كأنهما
 شعلتانِ من نارٍ ، وأنيابٌ مثل أنيابِ الحيوانِ ، تبرز من فمٍ كأنه فمٌ
 بشرٍ ، ذى مشايرَ كشافرِ الجملِ — تدلتْ نحوه صدره حتى كادت
 أن تبلّغه ..

وأذناه مرتجيتان إلى أكتافِهِ ، وله أظافرُ كخالبِ الأسدِ . فأرائناه
 حتى ارتمينا نلهثُ من شدةِ الخوفِ والفرجِ ، ثم غابَ أكثرُنا عن
 وعيهِ ، وطار صوابه ، وقد رشده وزل هذا الغملاقُ فجلسَ فوق
 المصطبةِ ، وأخذ يسلطُ شواظَ شعلتيهِ علينا . ونحن ننظرُ إليه ويتداخلُ
 بعضُنا في بعضٍ رُعْباً ، وبعد أن أصلانا غداً من الخوفِ والفرجِ نهضَ
 متثاقلاً وأتى إلينا ، وأمسكَ بي من بينِ أصحابي ، وأخذ يلبّني ويحسّني
 كما يحسُّ الجزاءُ الذبيحةَ ، وأنا بين يديه كفريخٍ صغيرٍ ، أرتجفُ فرقا
 ولا أحاولُ منه فكاً ، خشيةً أن يبتطشَ بي ، فلما لم يجدني كثيراً
 اللحمَ موفورَ الشحمِ أطلقني ، وأمسكَ بئيري ، وما زال يقلّبُ فينا



واحدًا بعد واحدٍ ويحسُّ بأصابه لحنا حتى وصلَ إلى رئيسِ المركبِ
وكبيرِ البحارةِ ، وكان رجلاً سمينًا ، غليظًا عريضَ الأكتافِ فما أمسكَ
به حتى أعجبه ، فقبضَ على رجلَيْه ، وألقى به إلى الأرضِ ، ووضعَ قدمه
على رقبته فقصَّفها ، وجاء بسفودٍ طويلٍ من الحديدِ ، فأدخله فيه ، وأوقدَ
نارًا شديدةَ اللمبِ في أحدِ المواقدِ ، ووضعَ الرئيسَ فوقها ولم يزلْ
يقلِّبه على الجمرِ ، حتى نضج لحمه ، وقطر شحمه ، فأخرجه من النارِ ،
وضعه أمانته ، وفسخه فسخًا كما يفسخُ المراه الدجاجة ، وأخذ يمزق اللحمَ
بأظافره تمزيقًا ويأكلُ ، حتى أتى عليه جميعه ثم عرقَ عظمه ، وألقاهُ
بجانبيه ، وتمدَّدَ على المصطبةِ ، وراح يهدرُ كما يهدرُ الجملُ المخشوشُ ،
ولفحةِ النسيمِ ، فأخذهُ التَّوَمُ ، وعلا شخيرُهُ ، فمرقنا أنه مستغرقٌ فيه ،
ومع ذلك فإنَّ الخوفَ الذي تملكنا جعلنا مأخوذِينَ ، وبقينا ننظرُ إليه
ونحن لا تطرفُ لنا عَيْنٌ ، ولا نرى إلا صورةَ بشعةٍ لا تتصورُ بشاعتها
مخيلةُ إنسانٍ ، ولما لاحَت تباشيرُ الصباحِ تَحَلَّى ونهضَ ، وخرجَ إلى
حيثُ لا ندرى فلما تحقَّقنا بئمه ، تحدثنا ، وبكينا ، وقلنا : يا ليتنا غرقنا
في البحرِ ، أو أكلتنا القروُدُ ، فإنَّ ذلك كان خيرًا من شينا على الجمرِ ،
ثمَّ خرجنا إلى الجزيرةِ نبحتُ عن مكانٍ نهربُ إليه ونحتبِ فيه ، وظلَّلنا
كذلك حتى أمسى علينا المساء دونَ جدوى فضاقت الدنيا في وجوهنا ،
وهان علينا الموتُ ، على أى وجهٍ إلا أن نوضع على السفودِ ونشوى
في النارِ .

ولم نلبث أن ارتجعت بنا الأرض رجاً عنيفاً فعرفنا أنه التذير بقُدوم
 النولِ الأسود، فأسرعنا نجري هُنا وهناك، كَتَبْنِي الفِراَر، ولكن من
 غير وعي أو إدراك، ولم تمر إلا لحظة حتى رأيناه مُقبِلاً، فلما رأى تصايحنا
 وجريتنا واضطرابنا كما تتصايح الفِرا ريجُ وتجرى وتضطربُ حيناً يُزعجُها
 ذئبٌ أو ثعلبٌ، مدَّ النولُ يدهُ قَبَضَ على واحدٍ منا فلم يعجبه لهُرَّاله
 فأطلقه، وأمسك غيره ثم أطلقه وهكذا حتى عثر على شخص أعجبته،
 فأخذه، وفعل به كما فعلَ بالرئيسِ في اليوم السابق على مرأى منا،
 فوجَّعت قلوبنا، وارتعدت فرائصنا. وقضينا ليلةً ليلاً، لم يَمضُ لنا
 فيها جَنُّ، ولم يرقاً دمعٌ، ولم يهدأ قلبٌ. ولما أصبح الصبحُ تركنا
 وذهب إلى سَبِيلِهِ، واجتمعنا تبادُلُ الرأى، وتشاورُ في أمرنا. فقال
 بعضنا: إننا نُلقي بأنفسنا في البحر، ونموتُ غرقاً، خيرٌ من أن نموتَ
 حرقاً، بعد طولِ العذاب.

وقال واحدٌ منا: عجبا يارفاقِ كيف نَمَجُزُ عن الاحتيالِ للتخلصِ من
 ذلك النولِ الأسود ١؟ وكيفَ لا نستطيعُ أن ننقيمَ منه ١؟ وقد يبلغ
 الإنسانُ بالحييلةِ وحُسنِ التصرفِ، ما لا يَلْتَلُهُ أقوى المخلوقاتِ قوَّةً،
 وأشدُّها بأساً؛ وإن الماءَ مع سلاستِهِ وليوتتهِ يَشُقُّ الصخرَ؛ فاهدءوا
 وفكروا، وأنجموا أمرَكم، واصطنعوا حيلةً تَقْضِي بها على ذلك الحيوانِ
 المفترس وتقتله لِتُريحوا أنفسكم، وتُريحوا غيرَكم من شرِّه؛ وإن الفرصةَ

ساححة حينما ينام ، بعد الأكل ، فإننا نفقا عينيه ، فلا يرى ، وبعد ذلك
نُفكرُ في قتله .

فقلت لهم : اهتموا يا إخواني ، قبل أن نحاول قتله لا بد أن نهني لنا
سبيلاً للفرار حتى إذا فشلنا في تدميرنا ، ولم تمكن منه تأمن بطشه
بالفرار ، والرأى عندى أن ننقل هذا الخشب والحطب وتعاون جميعا
في صنع فلك منه نجمله تحت أعيننا ، يسير بنا إلى عرض البحر حينما
نلجأ إليه فإذا ما أراد بنا هذا الإملاق شرا هربنا في الفلك ، ودفعناه إلى
البحر ، فإن سلمنا كان ذلك من رحمة الله ، وإن غرقنا فذلك
مصيرنا المقدور .

فأمنوا جميعاً على رأى .

وقالوا : هذا والله هو الرأى السديد .

وشرعنا من فورنا في العمل ، فنقلنا الأخشاب إلى خارج القصر ،
وتعاوننا جميعاً في عمل الفلك ، وربطناه على جانب البحر ، وأنزلنا فيه شيئاً
من الزاد ، ثم عدنا إلى القصر في انتظار الإملاق ، وقد عزمنا على أن
نسلم عينيه .

فلما كان المساء ارتجت بنا الأرض ، وأقبل رسول الموت ، ودخل
علينا ليأخذ ضحيته الجديدة ، ومد يده يفتيها ، ونحن نكش ويدخل
بعضنا في بعض ، وبعد وقت عصيب رهيب خرجت يده بالمسكين
الذى جاء أجله .

وسرعان ما انتهى الرجل ، وكأنه لم يكن ، ولم يبقَ منه إلا بعضُ عظامٍ ، اتخذت مكانها فوقَ المظالمِ القديمة .

وما مضى قليلٌ حتى نامَ ، واستغرقَ في النومِ استغراقاً شديداً ، وعلا شخيرُهُ ؛ فنهضنا مشمّرينَ للعمل ، وقد استمددنا من يأسنا قوةً ، ومن حقدنا عزماً ، تغلبَ على ما كان من رهبتنا وخوفنا .

وأخذنا سيخينِ مسنُونينِ من الأسياخِ المنصوبة ووضنّاهما في لَهيبِ النارِ القوية ، حتى احمرّا وصارا مثلَ الحجرِ . وقبضنا عليهما قبضاً شديداً ، وجننا بهما إلى ذلكِ الأسودِ ، وهو نائمٌ ، وقد علا شخيرُهُ ، ووضنّاهما في عينيه ، ووضنّنا عليهما جميعاً بكلِّ قُوَّتِنَا وعزْمِنَا ، فأدخلناهما فيهما ، فانتلمتا وانطلمستا ، فصاحَ المِثْلَاقُ صيحةً عظيمةً ما سمِعتُ في حياتي أنكرَ منها ، ونهضَ قائماً من فوقِ المصطبةِ يَحوِلُ في المكانِ كالوَخْشِ الهائجِ يَبْحَثُ عنا ولكنه لا يرانا ، فقد انفقَتُ عيناه ، فكانَ يَحْبِطُ حَبْطَ عَشْوَاءٍ ، يَصْطَدِّمُ بالشجرِ ، ويقعُ في الحُفْرِ ، وينزلُ في الماءِ ، وينسَكِي على وجهِهِ ، وتشجُّ فروعُ الأشجارِ رأسَهُ ، وهكذا ظلَّ يُحوِلُ وَيَصيحُ ، ويضنطُ على أُنْيَابِهِ مَنِيظاً مُنْعَقاً ، ويمدُّ يديه الطويلتين ليقبضَ على أحَدِنَا ، ولكنه ما كانَ يقبضُ إلا على فرعِ شجرةٍ ونحن نجرى ونهربُ منه هُنا وهناك وهو لا يرانا ، ولكننا برغمَ ذلكِ كُنّا في أشدِّ حالاتِ الرعبِ والفزعِ لشدِّ هياجه ، حتى أننا يَلْسَتُنا من النجاةِ ، أو كدنا تَبْأَسَ ، فإنه كانَ يُحِيلُ إلينا أنه يمدُّ ذراعيه على الجزيرةِ كُلِّها ، فلا

يدعُ شيراً واحداً من غير أن يتَحَسَّسه ، وأخيراً قصدَ هذا الوحشُ الهائجُ
ناحيةَ بابِ القصرِ وتحسَّسَ طريقه إليه وخرجَ منه وهو لا يزالُ يصيحُ
ويزأرُ ، ونحن نرتجفُ ندماً .

ولما خفتَ صدَى صوته ، وخَفَّ عن آذاننا وغاب هو عن أعيننا
خرجنا واتخذنا مجلسنا أمامَ القصرِ ، نَسْتَجِيعُ قِوَانَا المنهوكَ ونَتَشاورُ
في أمرنا .

وما استقرَّ بنا المقامُ قليلاً ، حتى رأينا قد هبطَ علينا تقودهُ أثى
أكبرُ منه جسماً وأبشعُ خِلقةً ، فأسرعنا هارين إلى الفلكِ ، يتسَرَّعُ بمضنا
في بعضٍ ، فتكنفُ على وجوهنا من النعيرِ والفرعِ .

وبلغنا الفلكَ بعد وقتٍ عَصِيبٍ خِلناه دُفراً ، وأسرعنا فقطعنا حيالَه
ودفعناه إلى البحرِ بعد أن صعدنا فيه ، والمملاقانِ مُسرَّعانِ وراءنا يتبعاننا
وقد أمسكتِ الأثى برفيقها ، ويد كلِّ منهما صخرةٌ ضخمةٌ . وما أشرفاً
علينا حتى قدقنا بما في أيديهما ، وكانت الأثى تلتقطُ الأحجارَ الكبيرةَ ،
وهذفنا بها ، وتوالتِ الرِّجَماتُ علينا بشدةٍ وقسوةٍ ، قبل أن نستطيعَ أن
نبعدَ بالركبِ إلى عرضِ البحرِ .

وما بُدَّ المركبُ عن مَرَّتَي قدائيهما ، حتى كانَ ، ويا حَسْرَتاه ، قد
هَلَكَ أَكْثَرُ مَنْ بِالْفَلَاقِ ، وزهقتِ أرواحهم من شدَّةِ وُجْعِ
الأحجارِ عليهم ، فمَضُّهم أُمِيبٌ في رأسه ، وبمضهم تحطمتْ ضلوعه ؛
واضطربنا اضطراباً شديداً ، ولم يبقَ منهم ما بذلوا من جهودٍ في سبيلِ

الخلاص ، وكان قد دأبَ أُنسَهُم الأملُ في النجاة ، ولم يَتَّجُ بعد هذا الصِّراع إلا ثلاثة أشخاص ، كنتُ واحداً منهم .

ولما رأينا أن لا نجاةً لواحدٍ من رفاقنا ، وأنهم أسلموا أرواحهم ، قذفنا جثثهم في الماء ، فراحت طاماً السمك والحيتان وحيوان البحر ؛ وهي على أيِّ حال ميتةٌ خيرٌ من الشيء على السُّقود .

طوَّحَ بنا الفلكُ إلى جزيرةٍ أخرى ، ونزلنا فيها وتبلغنا بشيء من غارها وانطرحنا على الأرض نَسْتَعِيدُ قُوانا المخلَّاة . وأقبلَ علينا الليلُ ونحنُ على ما نحنُ عليه فأغمضنا عيوننا ونمنا . ولم يأخذنا النومُ طويلاً لقرط ما نَحْمَلُهُ من رُعبٍ وفزعٍ . وانتبهنا ، فإذا ثعبانٌ هائلٌ ، عظيمُ الجسم ، واسعُ الفم ، مرَّشٌ بسوادٍ وصفرةٍ ، خشنُ الجلد ، عريضُ الرأسِ يصفرُّ صغيراً مُزَعَجاً ، ويصيحُّ صياحاً ، ويضجُّ فحيحاً قد التَفَّ حولَ واحدٍ منا ، وغَيَّبَ رأسه في فيه ومنغطٌ بجسمه عليه ، وطحنه طحن الرِّحَى ، وما هي إلا لحظةٌ قصيرةٌ حتى كانَ الرجلُ قد اختفى في جوفِ ذلك الثعبانِ المخيفِ .

وابتعد الثعبانُ عنَّا وتركنا في ذهولٍ من هولِ ما مرَّ بنا وما رأينا ، وأحسَّنا أخيراً أننا لا نزالُ على قيدِ الحياة ، واشتدَّ بنا الحزنُ على رفيقنا ، وعلى أنفسنا ، وأخذنا نقولُ :

لا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله ، ما نجوتنا من الأسودِ ، ومن الفَرَقِ ، إلا انموتَ هذه الميتةُ الشنيعةُ !! وما نخرج من هَوْلٍ إلا إلى هَوْلٍ ! وما ننجو من مَوْتٍ إلا إلى مَوْتٍ ، وكان يُمزِّقُ قلبي أني أنا التي بطرتُ ،

وأنى أنا الذى لم أُنقِصَ بما هَيَّا الله لى من غنى وثرء ، جُفِرْتُ على نفسى ما أنا فيه من بُؤسٍ وشقاء .

وفى اليومِ الثانى جُبْنَا الجزيرةَ نَحْتُ عن مأوى أمين يَمُصُّنا من شَرِّ هذه الآفةِ الجديدةِ التى ابتُلينا بها ، فلم نجد خيراً من التسلُّقِ فوقَ شجرةٍ عاليةٍ وقضاء الليلِ فوقَها ، ولما أَمسى المساءُ نَقَدْنَا ما اعتَزَمْنَا . فاختَرْتُ أنا ورفيقي شجرةً باسقةً ، واتخذ كلُّ منا مكاناً له بين فروعِها . واعتمدنا على الله ، وجلسنا بين اليأسِ والرجاء .

أتى الثبانُ وجلسَ هنا وهناك وسرعان ما زحفَ إلى الشجرةِ التى اعتليناها ، فكأنه شمَّ رائحتنا وصعد إلينا ، وماهى إلّا ثَوَانٍ حتى كان رفيقُ فى فيه ، فنطيتُ وجهي براحتي من هولِ ما رأيتُ ، ولكنى ما استطعتُ أن أَمْنَعُ عن أذنى صوتِ تكسيرِ عظامِهِ ، ثم سرعاناً ما ابتلعَ الرجلُ ، وأسكنه جوفهُ ؛ ثم هبطَ من فوقِ الشجرةِ يَفْحُ فَحِيحاً كالأنينِ ، لثقلِ بطنِهِ ، وقضيتُ بقيةَ الليلةِ فوقَ الشجرةِ ، وما أدرى كيفَ تَمَاسَكْتُ ؟ ولم يُسلِّمْنى الاضطرابُ إلى الأرضِ صَريماً ، ولكنها إرادةُ الله ورحمته .

وفى الصباحِ هبطتُ من فوقِ الشجرةِ ، وقد تملكتنى الوسواسُ والأوهامُ ، فإنه لم يَتَقَ غيْرِى ؛ واشتدَّ بى الكربُ وأردتُ أن ألقى بنفسى فى البَحْرِ لأستريحَ من هذا المذابِ الأليمِ ، فخافتنى شجاعتي

وخذلثني عزيزي ، ثم خَطَر بيَلي أَن أختال حيلةً أُخرى تُنجيني من مَكْرِ
هذا الثعبانِ الخَيف .

وهذانِ التفكيرُ إلى أَن أَصْنَعَ لِنَفْسِي شِبَهَ صُنْدُوقٍ أُخْتَمِيَ فِيهِ ،
وشرَعْتُ في جَمع ما يَلزُمُنِي مِنَ الخَشَبِ ، ولكنتُ لِمَ أَعْزُ على كُلِّ
ما يَلزِمُ لِصَنعِ الصُنْدُوقِ ، فَاكْتَفَيْتُ بِأَن رَكَنْتُ لَوْحاً عَرِضاً فَوْقَ
رَأْسِي ، وَلَوْحاً عِنْدَ قَدَمِي ، وَمِثْلَهُمَا عَنِ يَمِينِي وَعَنِ شِمَالِي ، وَوَاحِداً
على صَدْرِي ، وَآخَرَ تَحْتَ ظَهْرِي ؛ ثُمَّ أَحْكَمْتُ رَبَطَهُمَا مِنْ حَوْلِي ،
وَطَرَحْتُ نَفْسِي وَأَنَا مُحَاطٌ بِالْأَلْوِاحِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ عَلَى الْأَرْضِ ،
فَصِرْتُ وَكَأَنِّي قَدْ حُشِرْتُ فِي صُنْدُوقٍ ضَيِّقٍ .

وَأَقْبَلَ الثَّعْبَانُ عَلَى عَادَتِهِ ، وَقَصَدَ إِلَيَّ مِنْ فُورِهِ ، فَوَجَدَنِي دَاخِلَ
هَذِهِ الصُّومَةِ ، فَدَارَ حَوْلَ الْأَخْشَابِ يَرِيدُ الْوُصُولَ إِلَيَّ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ
فَحَاوَلَ أَن يَنْقُذَ مِنْ بَيْنِهَا فَلَمْ يَقْدِرْ . فَأَخَذَ يَتَعَبَّدُ عَنِّي ثُمَّ يَمُودُ ،
وَيَتَعَبَّدُ ثُمَّ يَمُودُ . فَتَمَنَّيْتُ الْأَخْشَابُ وَتَصَدَّه ، وَهَكَذَا اسْتَمَرَّ يَحُومُ
مِنْ حَوْلِي وَيَفْجَحُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَقَدْ أَشْرَفْتُ عَلَى الْمَوْتِ مِنَ الرَّغْبِ
وَالْفَزَعِ ، وَظِلٌّ كَذَلِكَ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى شُرُوقِهَا . وَأَخِيرًا
تَرَكَنِي بَعْدَ أَن تَهَدَّمَتْ أَعْصَابِي وَيَيْسَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيَّ ، وَلَوْ أَنَّهُ
لَفَّ جَسَمَهُ عَلَى الْخَشَبِ ، وَضَغَطَ عَلَيْهِ ضَغْطًا خَفِيفًا لَا تَقْصَلُتِ الْأَلْوِاحُ
بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ ، وَانْكَشَفَ جَسَدِي لَهُ ، وَفَعَلَ بِي كَمَا فَعَلَ بِنِيرِي ،
وَلَكِنْ اللَّهُ قَدَّرَ لِي السَّلَامَةَ ، فَعَمِيَ الثَّعْبَانُ عَنْ ذَلِكَ ، فَتَنَجَّوْتُ .

جاهدتُ إلى أن تخلصتُ من محبسى ، وجرتُ ساقى جراً حتى
 ساحل الجزيرة ، حيثُ جلستُ أرقبُ الأفقَ بين يقطعة ، وأنظرُ
 إلى الشمسِ راجياً ألا ينصرمَ النهارُ حتى أجِدَ لي مخلصاً ؛ وبقيتُ
 أرسِلُ النظرةَ وراء النظرةَ إلى البحرِ ، لعلنى ألمحُ سفينةً مارةً تُنجدنى
 وتُنشِلنى ، وإلا قذتُ ما صممتُ عليه ، وهو أنه إذا جاء المساء ولم
 يبعثِ اللهُ إلىَّ بالفريج ، قذتُ نفسى بين أمواج البحر ، تطوينى فى
 جوفها ، وترىحنى مما أُنسى من عذابٍ ، ومن شرِّ قضاء ليلةٍ أخرى ،
 حافلةً بالأهوالِ ، وقد لا تكونُ فيها نجاةً .

وكان اللهُ فى عونى ، فلم ألبثُ أن تبيّنتُ شيئاً يظهرُ ثم يختبئ بين
 لجةِ الماء . ثم مالبتُ أن ظهرَ ، وتبينَ لى أنه مركبٌ يعخرُ البحرَ ،
 ودبَّ النشاطُ فى فجأةٍ وأتقنُ عافيةً لم أكن أعهدُها فى إبانِ قوتى .
 وغدوتُ كالجبوتِ ، فالتزعتُ فرعَ شجرةٍ طويلاً ، جعلتُ فى طرفه
 قيصى الأيضى ولوّختُ به لرُبَّان السفينةِ ، وأنا أصبحُ بأعلى صوتى
 وأذكرُ كثيراً من كلماتِ الاستغاثةِ والنجدةِ ، وقوى اللهُ حنجرتى ،
 فكانَ صوتى يملؤ هديرَ الموج .

ونجحتُ فى توجيهِ نظري من فى السفينةِ إلى ، لأننى رأيتُ السفينةَ
 تدنو منى رؤيذاً رؤيذاً ، وتقتربُ من الشاطئِ شيئاً فشيئاً ؛ وبعد
 قليلٍ وصلتُ إلى مكانى ، فالتقيتُ بنفسى بها ، فلتقانى الربانُ والبحارةُ
 ومن معهم فرجين ، ولكنى لم ألبثُ أن أصابتنى غشيةٌ من الفريج

بنجأتني من ذلك التعبانِ الفظيعِ ! ولم أكْذأ فبقُ من غشيتي حتّى رأيتهم ملتفتين حولى ، مستعجيين لما أصابنى ، من النّشبةِ ، متأملين فى حالى ، وقد بدا على أثرُ الجهدِ الشديدِ ، والسهرِ الطويلِ . لونٌ حائلٌ أَصْفَرُ ، وعَيْنانِ خائرتانِ ، ووجهٌ معروقٌ ، وأعضاءٌ مسترخيةٌ .

فلما تفتّحتْ عَيْنَايَ ، وتحركتْ شَفَتَايَ ، ودبّ فى جسمي ديبُ الحياءِ ، أطمعوني وسقوني ، ثم سألوني عن شأنى ، فقصصْتُ عليهم ما صادفتُ فى تلكِ السفرةِ المشثومةِ فاستمعُوا إلىَّ مشدوهين مستعجيين ، وهنّونى بالسلامةِ .

وقضيتُ مع ركابِ السفينةِ وقتاً طيّباً ، وهم لا يَنُونُ عن إكرايى والحفاوةِ بي ، حتّى رستِ السفينةُ بنا على جزيرةٍ يقالُ لها السلاطة ، وأخرجَ جميعُ من بها من التجارِ بضائعهم ليبيعُوا ويشترُوا ، فأتانى صاحبُ المركبِ وقال لى اسمعْ يا هذا إنك رجلٌ غريبٌ فقيرٌ ، وقد أخبرتنا بما قايضته من الأهوالِ الكثيرةِ وأنا أريدُ أن أقمّك بشىء يُعينك على الوصولِ إلى بلادك .

فقلتُ : يا سيدى ، إننى شاكرٌ لكم فضلكم علىَّ ، وقد طوّقتمونى بكثير من المعروفِ فقال : إننا منّا تجارةٌ لرجلٍ كان برققتنا وقُدَميتنا ، ولا ندرى أهو ميتٌ أم حيٌّ ، أريدُ أن أدفعَ إليك أحمالهُ لتبيعهما فى هذه الجزيرةِ وغيرها من البلادِ التى سوفَ نمرُّ عليها . ولكَ جملٌ فى نظيرِ خدمتكِ هذه . وما تَبَقَّ من أرباجِ نرذه إلى أهلِ هذا الرجلِ

حينَ رجوعنا إلى مدينةِ بغداد . فهل تُوافقُ على هذا الرأي ؟ .
 فقلتُ : سَمعاً وطاعةً يا سيدي وسأُجِلُّ لك ما حيثُ هذا الجليل .
 فأمرَ الحمالينَ والبشارةَ بإخراجِ تلكَ البضائعِ ، وتسليمها إلى .
 فقال له كاتبُ المركبِ : يا رئيسُ إن أصحابَ التجاراتِ الذين
 فقدناهمُ كثيرون وقد تصرفنا في بعضها ، وبقي بعضها الآخرُ كما هو ،
 فأىَّ التجاراتِ تُريدُ ؟ وبانهم منَ التجارِ أكتبُ هذه التجارةَ
 التي أخرجُها ؟ .

فأجابَ الرئيسُ : باسمِ السندبادِ البحريِّ الذي كان معنا وقد قُتِلَ
 في الجزيرةِ ولا تَدري ما أصابه وسندفَعُ بها إلى هذا الرجلِ الغريبِ يبيعُ
 ويشترى ويمارضُ ويقايضُ ، ويستشترِها بكلِّ الوجوهِ الممكنةِ ؛ ونجعلُ
 له نظيرَ ذلكَ أجراً ، ونُدفعُ بالباقي إلى أهلِ صاحبِ التجارةِ عندما نَؤدُّ .
 فقال الكاتبُ : والله إن هذا لهُوَ الرأيُ الصوابُ .

فلما سمعتُ إن هذهِ التجارةَ باسمي ، أيقنْتُ أنها تجارتي التي خرجتُ
 بها في السفرةِ السابقةِ ، وعرفتُ أن هذا المركبَ هو عينهُ الذي
 كنتُ عليه وتركني ربائهُ بالجزيرةِ نائماً وأَقْلَع . ففكرتُ في وجهِ
 الربَّانِ وفي التجارِ ففرقتُ منهم رفاقي في تلكَ السفرةِ ولكنَّ ما مرَّ
 عليَّ من أهوالٍ ، وما مرَّ عليهم من متاعبِ السفرِ ومشاقِّه جعلهمُ
 لا يعرفونني ، وجملي لا أعرفهم لأوَّلِ وهلةٍ وانتظرتُ على مضضٍ
 حتى انقَضَ التجارُ ، وقلتُ لصاحبِ المركبِ :

ياسيدي أنعرف كيف كان صاحب التجارة التي سلمتها إلى لا يبعها
له ، ما شأنه ؟ وما شكله ؟ وماذا جرى له حتى ترك تجارتها ؟ .

فقال : لا أعلم له حالا ، ولكنه كان رجلاً من مدينة بغداد يقال
له السندباد البحري وفي أثناء سفرنا رسونا على إحدى الجزائر ، فقعد
منا هناك ولا ندري ، أغرق أم ماذا أصابه ؟ ! وقد قعد منا في هذه
الرحلة ركاب آخرون غيره فلم أستطع أن أملك نفسي وصحت قائلاً :

يارئيس . اعلم أنني أنا السندباد البحري ، ولم أغرق ، وأنت لما أمرت
بإرساء السفينة في تلك الجزيرة ، وصعد جميع التجار إليها كنت
في جملتهم ، وكان معي شيء آكله فاستطيت مكافأة

ومن ثم قصصت عليه كل ما مر بي ، وهو ينظر إلى منشككاً
في قولي . وأتى التجار واستمعوا إلى ، فمنهم من آمن ومنهم من كذب .
وجاهدت في إقناعهم بصدق قولي ، دافعاً عن وضمة الكذب ، وتهمة
الاستيلاء على مال غيره . وأخذت أؤيد أقوالي بالبراهين وأستشهد
بعلامات وأحوال كانت مني ومنهم ، وأذكر تجار الماس الذين التقيت
بهم في وادي الماس وأذكر أسماء بلادهم ، وإذا برجل قد شق الجمع من
حولي ، حتى وصل إلى وقرس في ملياً ، ثم احتواني بين ذراعيه
وقال للقوم :

أنصتوا لي أيها الرجال : إن هذا الرجل صادق في كل ما قال وليس
بكاذب . ألا تذكرون أنني قصصت عليكم يوماً أعجب ما مر علي في

أسفاري إلى وادي الماس ؟ وما أخبرتكم به عن الرجل الذي طلع مُعلقاً في ذيختي التي ألقيتها فيه ؟ وكيف أنكم كذبتموني في قصتي ولم تؤمنوا بها ؟ ! فالآن قد ظهر لكم صدق من قصته وصدقته من قصتي .

قال الرجال : نعم لقد قصصت علينا هذا الأمر حقاً ولم نُصدّقك .
 قال الرجل — وكنت قد عرفت فيه التاجر الذي تعلقْتُ بذِيخِته وزاملته بقية سفرتي — : هذا هو الرجل الذي تعلقَ بذِيخِي ، وأعطاني من الماسِ العالي الثمن أضعافَ ما كنتُ مقدِّراً أن يعلقَ بها . وقد صاحبتُه حتى مدينة البصرة ، وعرفنا اسمه وهو السندباد البحري ووقفنا على باقي قصته التي أخبركم بها .

فابتسم رئيسُ المركب وقد ظهرَ عليه أنه قد اقتنعَ بصدقِ قولنا وقال لي :

ما علامةُ بضائِك ؟ وما سَمَتُها ؟ وما أنواعُها ؟ وما مقدارُها ؟ وما عددُ أحمالِها ؟ فأخذتُ أعدُّ له ما يحوي كلَّ حملٍ منها ، فلم يبقَ لديه أيُّ شكٍّ في أنني حقاً السندبادُ البحريُّ . فجاء إلى وِطَاقِي ، وهنأني بسلامتي وقال لي : والله يا سيدي إن قصتك عجيبةٌ ، وأمرُّكَ غريبٌ ، ولكنَّ حمداً لله الذي جمعَ بيننا وبينك ، وردَّ تجارتك ومالكَ إليك ، وقد عرفتُ أننا كنَّا أمناه عليها حريصين على رَدِّها إلى أهلِكَ كاسبةً راجحةً .

شكرتُ له حُسنَ صنيعِهِ . وتسلَّمتُ بضائِكي وتصرَّفتُ فيها كما

ترأى لى ، وربحتُ فيها ربحاً وافراً ما ربحتُ في تجارة مثله ، وما زلنا
 نجوبُ البحرَ ونَطُوفُ بالجزرِ والموانئ ، حتى وصلنا إلى بلادِ السندِ ،
 وقد رأيتُ في البحرِ من العجائبِ ما لا يُعدُّ ولا يُحصى ، ومما رأيتُ
 سمكةً على هيئة البقرة ، وأخرى في شكلِ الحمارِ ، ورأيتُ طائراً يخرجُ من
 صدف البحر ، ويبيض ويُفْرَخُ على وجهِ الماء ، ولا يفادرُ البحرَ
 إلى البر أبداً .

وأتمنا رحلتنا ووصلنا بسلامة الله إلى البصرة ، فقضيتُ بها بضعةَ
 أيامٍ ثم شددتُ الرحالَ إلى بغداد ، دارِ السلام ، فوصلتُ إليها آمناً سليماً
 مُعافئاً ، وتوجهتُ إلى دارِى ، والتقيتُ بأهلى وأصحابى ، ووهبتُ
 وتصدقتُ على المعوزين والأيتام والأرامل .

ثم قضيتُ مدةً طويلةً وأنا أرتعُ في بحبوحةِ العيش ونعيمِ الراحة ،
 وهناءةِ السعادة ، حتى نسيتُ ما أصابنى ، ومرتُ النهارُ والليلُ يُنسى فتاقت
 نفسى إلى السفرِ والتَّرحالِ .

وسأقضى عليكم غداً إن شاء الله حديثَ السفرةِ الرابعةِ . وأمر
 السندبادُ البحرى على عادتهِ للجمالِ بالمشاءِ الفاخِرِ وبمائةِ مِثقالٍ من الذهبِ
 فتعشى وأخذَ الذهبَ ، وانصرفَ إلى دارِهِ شاكراً .

وفى اليومِ الثانى حضرَ إلى منزلِ السندبادِ البحرى فتلقاه بالبشرِ
 والترحابِ وأجلسته بجانبه ، ولما اكتملتِ عقدُ الجماعةِ ، وتناولوا طعامهم .
 ابتدأ يتحدثهم ويقول :



السَّفَرُ الرَّابِعَةُ

أخبرتكم بما كنتُ عليه من السرور والانشراح بعد عودتي سالماً
من سَفَرِي الثالثة ، وكيف ظلمتُ أرتعُ في نعيمِ الراحة ، وأنتم في بُحْبُوحَةِ
العيشِ وقتاً طويلاً نسيتُ معه ما قاسيتُ من أهوالٍ ، ولا سيما أن العاقبةَ
كانت سلامةً وعافيةً ، ومالا كثيراً ، فحدثني نفسي أن أعاودَ السفرَ
والسياحةَ في البلادِ ، فإن في السفرِ معرفةً بأحوالِ البلادِ والعبادِ ، ووقوفاً
على عجائبَ وغرائبَ ، وزيادةً في العلمِ والمعرفةِ ، وكسباً للأصدقاءِ
والإخوانِ ، وعلماً بماداتِ الناسِ وأخلاقهم ، وطبائعهم ، ورؤيةً لصنوفٍ
مختلفةٍ من الوحشِ والطيرِ ، وهذه كلها أمورٌ إذا ذكرها الإنسانُ سَهْلَ
أمامها كلَّ صعبٍ ، وهانَ كلَّ خطبٍ .

أخذتُ شيئاً من مالي وذهبتُ إلى سوقِ التجارِ واشتريتُ أنواعاً

مختلفة من السلع ، وحزمتها أحمالاً أحمالاً ، وتقلتها إلى الشاطئ .

وهناك أنزلت بضائني في مركبٍ على أهبة السفر ، وكان بصحبتي جماعة من تجار أهل البصرة .

وسار بنا المركبُ على بركة الله الأيام والليالي في جوٍّ جميلٍ ، صافٍ رائقٍ ، ريحهُ طيبة رُخاء ، تسوقُ المركبَ على سطحِ الماءِ سوقاً هادئاً رقيقاً . وبقاة قلب الجوِّ ، واختلقت الريحُ وصارت هَوْجاء عاتيةً ، وهاج البحرُ ومائج ، فاضطربت السفينةُ ، وتمايلت ، وترنحت . فأمر الرُّبانُ بإرساء المراسي وَوَقَفَ المركبُ في وسط البحرِ خوفاً عليه من الغرق ، ولكن الريحَ ظَلَّتْ تلعبُ بالسفينةِ ، وأخذ الموجُ يتقاذفُها ، فامتدُّوا إلى التَّيْلِ ، وما تَمِيلُ عَيْنًا إِلَّا لَتَيْلَ شِمَالًا ؛ فوجفت قلوبُنا ، وزاغت أبصارُنا ، ولا سيما أن الريحَ كانت تشتدُّ عصفًا ، وأن الموجَ كان يزدادُ علوًّا وعُتُوًّا ، فتمزقت القُلُوبُ ، وطغى الموجُ ، وهجم الماءُ على السفينةِ فلأَها وفتر البحرُ فأه لِيَتَلَمَّها ، وأخذ يغميها في بطنه شيئاً فشيئاً ، وحاولَ الرِّبانُ إِنْجَاءَها ، ولكن قضاء الله كان قد سبقَ ففترقت ، وقبل أن يُفِيقَ أكثرُ من فيها من دهشة البتَّةِ ، طوام البحرُ فكانوا من الغرقين . أخذتُ أغالبُ الأمواجَ أنا وبضعة رجالٍ كانوا يحمِدُونَ السباحةَ ، وكانت الأمواجُ تتألبنا فتغلبُها حتى ساقَ الله لنا لَوْحاً خشبياً كبيراً فأمسكناه ، واتخذنا من أرجلنا مجاديفَ وسرنا باللوح في أنجاء التيارِ حتى انقضى الليلُ وقد تعبت أجسامُنا ، وتصلبت أطرافُنا وبدأ

الجوعُ يُؤْلِمُنَا ، وفي ضَحوةِ النهارِ — ثارتْ علينا الرِّيحُ من جديدٍ
 وهاجَ البحرُ ، وارتفعَ الموجُ فسَلَّنا في أنفُسنا ، وأيقنَّا ألاَّ نَجاةَ لنا
 وأقبلتْ علينا موجةٌ عاليةٌ كالجِبِلِّ المرتفعِ ، فأغمضنا عيوننا ، ونكسنا
 رموسنا ولكنا اكنسحتنا ممَّا ، وقفتْ بنا قذفةٌ هائلةٌ ، أصابتنا منها
 غشِيَةٌ ، ثم اتَّبهَّنا بعد قليلٍ فوجدنا أنفُسنا مبعثرينَ على أرضٍ رطبةٍ ،
 نُظِّلها الأشجارُ ، ونظرَ بمضنا إلى بعضِ مَبْهُوتينَ ؛ أفى يقطعةٍ نحنُ أم في
 حُلْمٍ ، أمواتٌ نحنُ أم أحياءُ ١٩

وقرِعَ آذَانَا زئيرُ البحرِ ، وهديرُ الموجِ ، وورشنا برذاذِ مائه ،
 فسمعنا وأحسَّنا وعرفنا أن البحرَ أَلْقَى بنا في تلكِ الأرضِ ، وأن قلوبنا
 ما زالتْ تنبضُ بالحياةِ ؛ فمدَّنا فأغمضنا عيوننا ورُحنا في نومٍ عميقٍ من
 فَرَطٍ ما قاسَّينا من تعبٍ وسهرٍ وخوفٍ وجوعٍ .

ولم ينبهنا من سباتنا إلاَّ عَضُّ الجوعِ أمعاءنا ، قمضنا نأبى نداء بطوننا ،
 وطفنا بالجزيرةِ ، فوجدنا فيها كثيراً من النباتاتِ والأعْارِ ، فأكلنا حتى
 شَبِعنا ، ثم ابتدأنا نبحثُ عن مَخْرَجٍ لنا .

فيسرنا في الجزيرةِ ، وتوغَّلنا بينَ أخراجها ، فلاحَ بناه عاليٌّ عن بُعْدٍ
 فأسرَعنا في السَّيرِ إليه ، وأناقلِقُ ، أوْجَسُ خيفةً من كثرةِ مامرٍّ على
 مِنْ بِلَايَا عَظَامٍ ، وكنتُ أخافُ التَّصْرِيحَ بِخَشْيَتِي إلى رِفاقي ، فينسُبُونِ
 لي الجَبْنَ والْخَوَرَ ، فتكلَّفتُ الشَّجَاعَةَ والجَلَدَ ، وسأيرثهم إلى
 البِنَاءِ العَالِيِ .

فلما وصلنا إليه وجدناه بناءً ضخماً كبيراً ، قائماً وسطَ بناياتٍ أُخرى صغيرة ، وله بابٌ واسعٌ عريض ، ذهبنا إليه .

وما كدنا نبلغَ عتبةَ حتى خرجَ إلينا منه قومٌ حفاةٌ عراةٌ ، لا يسترُ جِسمَهم شيءٌ ، وما أَفقنا من فرطِ الدهشةِ ، وهولِ المفاجأةِ — حتى أحاطوا بنا ، وقبضوا علينا ، دُونَ أَنْ يَخاطِبُونَا أو يُخاطِبَهم ، وساقونا إلى رجلٍ فهمنا من جلستِهِ ، ومن اصطَفَ حوْلَهُ من الأتباعِ — أَنَّهُ مَلِكُهم ، وأمرنا هذا الملكُ بالجلوسِ ، فجلسنا .

وأحضروا لنا طعاماً لم نَعْرِفْ ما هو ، وأمرُّونا أَنْ نَأْكُلَهُ ، وما تذوّقناه حتى ماقته نفوسنا ، وكرهناه ؛ ولكنَّ تحاملاً رفاقٍ على أنفُسِهِم وصاروا يأْكُون منه وهم له كارهُونَ ، أما أنا فلم أستطِعْ أَنْ أحاولَ ذلك أبداً ، وإن تظاهرتُ أمامَهم بأني آكُلُ مِثْلَهم .

وخار الله لي في ذلك ، فقد كان امتناعي عن الأكلِ سبباً في نجاتي ، وبقائي حيّاً إلى الآن : فإنه ما كادَ الطعامُ يستقرُّ في بطنِ رفاقي ، حتى تغيّرتْ أحوالُهم ، وأقبلوا على الطعامِ يَلْهَمُونَهُ كَالْجَائِعِينَ من غيرِ وعيٍ ولا إحساسٍ ؛ فلما رأى منهم هَوْلَاءِ المرأةِ ذلك ، أحضرُوا لهم دُهْنًا وكأَنه دهنُ النَّارِجِيلِ ، فسقَوْهم منه ، ودهنُوا أجسامَهم به .

فلما شربُوا ، اشتدتْ أعراضُ البَلِّ والجُنُونِ بهم ، وزاغتْ عيونُهم ، وصارُوا يُقبِلون على كلِّ ما يَأْتُونَهُمْ به مِنْ طعامٍ فَيَأْكُونَهُ ، وما يُقدِّمونه لهم من شرابٍ فيشربونه ، وكنتُ أنا أَصْطَنِعُ الحِيلَةَ والخِدَاعَ للتخلُّصِ

من الشرب والأكل وكنت أجاري رفاقي في حركات العتة والبلة التي يأتونها حتى لا يفطن إلى أحد، من هؤلاء القوم .

واشتد حزني وأسني على حال هؤلاء الرفاق ، وأخذت أمحسّر على ما حلّ بهم ، ولكن ذلك لم يطّل كثيراً فإنهم أصابهم ما أصابهم ، ولم يبقَ إلا أن أفكر في نفسي .

تحوّل تفكيري إلى نفسي ، وإلى ما سيحلّ بي . ورأيت أن أعمل سريعا على نجاتي من بين برائن هؤلاء القوم قبل أن يفطنوا إلى .

وبينما أنا أفكر في ذلك إذ رآني بعضهم أتصنّع ما يملّه رفاقي ، إذ آتني لست مصابا مثلهم ، فنظروا إلى نظرة ذات معنى ثم تركوني وشأنني ، ولم يترني أحد منهم أقلّ اهتمام لما صيرت عليه من الضعف والستقم والهزال ، في حين أنهم سلّموا رفاقي الذين ذهب عقولهم إلى شخص منهم ، يخرج بهم إلى القلاية كلّ يوم فيرعاهم مثل ما يرمي البهايم ، فكثّر لحمهم وشحمهم ، وغلظت أجسامهم من فرط ما كانوا يتهمون من طعام لأنّ ذهاب عقولهم جعلهم لا يحسّون جوعا ولا شبعاً ، وأدركت أن هؤلاء العراة ، قوم مجوس ، وأن ملكهم غول من آكلي لحوم البشر ، وأنهم يتصيدون كل من يسوقهم سوء طالعهم إلى الاقتراب من بلادهم ، فيقبضون عليهم ، ويملؤون بهم ما قتلوا برفاقي فتذهل عقولهم وتتطمس أذهانهم ، ويقبلون على الطعام بشراهة فيتهمونه اتهاماً ؛ فيزيد لذلك وزئهم ، ويمتلئون شحماً ولحماً ، فيذبجونهم ويطهونهم

لِلْمَلِكِهِمْ أَمَا أَصْحَابُ الْمَلِكِ فَيَا كَاوْنَ اللَّحْمِ نَبْتًا دُونَ شَيْءٍ أَوْ طَبِخٍ . هَالِكِي
مَا رَأَيْتُ ، فَاحْتَلْتُ حَتَّى أَفْلَحْتُ فِي التَّسَلُّلِ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ الْبَقِيضِ ،
وَابْتَعَدْتُ بِمِيدَافِ الْخَلَاءِ ثُمَّ أَطْلَقْتُ سَاقِيَّ لِلرَّيْحِ ، وَمَا زِلْتُ أُعَدُّ وَحَتَّى
أَشْرَفْتُ عَلَى الْبَحْرِ . جَدَدْتُ فِي السَّيْرِ إِلَيْهِ وَكُلِّي أَمَلٌ فِي النِّجَاحِ كَمَا عَوَدْتُ
رَحْمَةُ اللَّهِ وَإِذَا بَرَجُلٌ يَجْلِسُ أَمَامِي عَلَى صَخْرَةٍ مَرْتَفَعَةٍ بِشَاطِئِ الْبَحْرِ ،
فَدَقَّقْتُ النَّظَرَ إِلَيْهِ . فَإِذَا هُوَ الرَّاعِي الَّذِي وَكَلَّ إِلَيْهِ أَمْرٌ . رَعَى رِفَاقِي .
وَمَا لَبِثْتُ أَنْ تَبَيَّنْتُ بَيْنَ الصَّخُورِ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْهُمْ وَمِنْ أَشْبَاهِهِمْ ،
فَاسْتَعَدْتُ بِاللَّهِ وَتَحَوَّلْتُ أُرِيدُ الْفَسَاكَ قَبْلَ أَنْ يَرَعَفَنِي وَلَكِنَّهُ كَانَ قَدْ
رَأَانِي ، وَسَبَقَتْ عَيْنُهُ عَيْنِي وَأَدْرَكَ أَنِّي مَالِكٌ لَعَقْلِي ، وَلَمْ يَصْنُبْنِي مَا أَصَابَ
أَصْحَابِي ، فَانْجَحَ نَحْوِي وَأَشَارَ أَلَّا تَخْفَ فَإِنَّكَ آمِنٌ ، فَوَقَفْتُ مَرْتَدِّدًا ،
أَنْظَرُ إِلَيْهِ مُتَوَقِّعًا شَرًّا يُصِيبُنِي مِنْهُ وَلَكِنَّهُ قَالَ :

ارْجِعْ قَلِيلًا إِلَى الْخَلْفِ ، وَسِرْ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي عَنْ عَيْنِكَ ، تَصِلُ
إِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ .

فَهَزَزْتُ لَهُ رَأْسِي ، وَرَجَعْتُ كَمَا أَشَارَ عَلَيَّ ، فَوَجَدْتُ الطَّرِيقَ
كَمَا وَصَفَ وَلَكِنِّي كُنْتُ لَا أَزَالُ غَيْرَ مَطْمَئِنٍّ إِلَى نَوَايَا الرَّجُلِ مَعِي ،
وَهَلْ هُوَ يَبْنِي خِلَافِي حَقًّا مِنْ قَوْمِهِ وَهُوَ مِنْهُمْ ، أَوْ هُوَ يُرِيدُ أَنْ
يُوقِنَنِي فِي شَرِّكَهِمْ بَعْدَ فَكَاكِ مِنْهُمْ بِمَا اصْطَنَعْتُ مِنَ الْحِيلَةِ .

وَعَلَى أَيْ حَالِي فَإِنِّي لَمْ أَجِدْ مَفْرَأً مِنَ السَّيْرِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ .

وَعَلَّيْتُ أُسِيرُ إِلَى أَنْ غَابَتْ الشَّمْسُ ، وَأَسْدَلْتُ أَسْتَارَ الظَّلَامِ دُونَ

أَنْ يَمْتَرِضَ سَبِيلِي مَمْتَرضٌ . فجلستُ لأستريح . وأردتُ أن أنام فلم يطرق جفني النوم ، من شدة التعب والجوع والخوف ، فنهضتُ وواصلت السير بقية الليل إلى أن بزغت الشمس ، فوجدتني في طريق به بعض النباتات والأعشاب فاقتلعتُ منها ما آكله وأمسك به رمقي وبقيتُ على هذه الحال سبعة أيام : أسيرُ في الجزيرة أتبلغُ من نباتها ، وأشربُ من ينابيعها ، دونَ أن يصادفني إنسانٌ أو حيوان ، فلم يقع لي حادثٌ جديدٌ .

فلما كانت صبيحة اليوم الثامن خرجتُ أسير على عادتي ، فطوّحتُ بي رجلاي بعيداً وأمنعتُ في السير حتى أشرفتُ على نهاية الجزيرة ، وهناك لاح لي شبحٌ من بعيد . فالتحذتُ جانب الحذر . وتقدمتُ متلصصاً أسترقُ الخطأ ، لأتبين كنهه . فقد علمتني التجاربُ التي مرّت بي وجوبَ الاحتراسِ والتحرّزِ .

استبانَ لي في هذا الشبح رجلٌ ضمن جماعةٍ من رجالٍ ينتشرون في أرجاء المكانِ ويجمعون حب الفلفل من الأشجار .

استولت على الحيرة ؛ أأظهرُ لهم ، أم أظلُّ مخفياً عنهم ؟

قلبتُ الأمرَ على وجوهه ، وفرضتُ جميع الاحتمالات التي يمكنُ أن تقع ؛ وقدرتُ الحيلَ التي يمكن أن أنمخلصَ بها عما عسى أن يصادفني من الصواب ، بعد هذا كله رأيتُ أن أظهرَ لهم ، وأن ألقاهم ، ولا سيما أتى رجحتُ أنهم جماعةٌ من التجار ، وإن لم أظهرهم على حقيقتي

وَأَصْطَحِيهِمْ فِي سَيْرِهِمْ ، فَلَنْ تَكُونَ لِي نَجَاةٌ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ أَبَدًا .
 فَقَصَدْتُ إِلَيْهِمْ فَمَا رَأَوْنِي حَتَّى أَحَاطُوا بِي ، وَسَلَّوْنِي : مَنْ أَنْتَ ؟
 وَمِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ .

فَأَخْبَرْتُهُمْ بِحَالِي ، وَبِمَا مَرَّ عَلَيَّ ، وَبِمَا قَاسَيْتُهُ ، فَتَمَجَّبُوا مِنْ نَجَاتِي مِنْ
 الْعُرَاقِ أَكَلِي لَحُومِ الْبَشَرِ ، وَهَتَّؤُونِي بِسَلَامَتِي ، وَأَبْقَوْنِي مَعَهُمْ حَتَّى
 فَرَّغُوا مِنْ عَمَلِهِمْ ، وَدَعَوْنِي إِلَى مَشَارِكَتِهِمُ الطَّعَامَ ، وَكَانَ طَعَامًا لَذِيذًا
 سَائِقًا أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ بِهِمْ . بَعْدَ أَنْ حُرِمْتُ مِثْلَهُ مَدَّةً طَوِيلَةً .

وَلَا أَزْمَعُوا الرِّحِيلَ أَخَذُونِي مَعَهُمْ إِلَى سَفِينَتِهِمْ ، الَّتِي مَا لِيَتْ أَنْ
 أَقْلَمْتُ بِنَاثِمِيَّةَ شَطْرِ بِلَادِهِمْ .

وَلَا وَصَلْنَا إِلَى دِيَارِهِمْ ، عَرْضُوا أَمْرِي عَلَى مَلِكِهِمْ . فَرَحَّبَ بِي ،
 وَأَكْرَمَنِي وَسَأَلَنِي أَنْ أَقْصَ عَلَيْهِ قِصَّتِي ، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ ، فَتَمَلَّكُهُ
 الْعَجَبُ ، وَازْدَادَ إِكْرَامُهُ لِي ، وَأَذِنَ لِي بِالْخُرُوجِ وَالتَّفَرُّجِ عَلَى مَدِينَتِهِ .

خَرَجْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ وَكَفَى الْمَلِكُ إِلَيْهِمْ ، وَطَفْتُ فِي نَوَاحِي الْمَدِينَةِ .
 فَوَجَدْتُهَا مَدِينَةً وَاسِعَةً ، عَامرةً كَثِيرَةَ الْأَسْوَاقِ . زَاخِرَةً بِالْحَيَاةِ ،
 كَثِيرَةَ الْحَرَكَةِ ، زِدْحَةً بِالسَّكَّانِ ، وَمِنْهُمْ عَدَدٌ كَبِيرٌ يَمَارِسُ الْبَيْعَ
 وَالشِّرَاءَ ، فَارْتَاخَتْ نَفْسِي إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، وَاسْتَأْنَسْتُ بِأَهْلِهَا ،
 وَشَكَرْتُ عِنَايَةَ اللَّهِ الَّتِي سَاقَتْني إِلَيْهَا ، فَأَكْرَمَنِي مَلِكُهَا وَسُكَّانُهَا ،
 وَلَا حِظِّي فِي أَمْنَاءِ تَجْوَالِي أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ : وَوُجْهَاءَهَا وَتُجَّارَهَا ، وَصِنَافَهَا

وكيأزها - يركبون الخيول من غير سُروج . وكان الملك نفسه إذا
ركب حصاناً ركبته عارياً من غير سُرَج .

فقلتُ للملك يوماً : يا مولائي لماذا لا تركبُ على سرج فإن فيه راحةً
لراكبٍ عليه ؟

قالَ الملكُ : وما هو السُرَجُ ؟ إننا لا نعرفه ، ولا نعرفُ
الركوبَ عليه ؟ .

فقلتُ له : هل تأذنُ لي يا مولاي أن أصنعَ لك سرجاً لتجربهُ .
فقال : افعَلْ ما شِئتَ .

فطلبتُ ما يلزمُ لصُنعِهِ ، فأمر لي به . وطلبتُ نجاراً حاذقاً فأحضَره ،
ومكثتُ معه أُرشدُهُ إلى ما يجبُ أن يَتِمَّعَهُ في صناعةِ السُرَج ، ثم أخذتُ
صُوفاً ونَقَشْتُهُ ، وصنعتُ منه لبداً وأحضرتُ جلدأ وهيائُهُ على صورةِ
السُرَج ، وحشوته باللبدِ المصنوعِ من القطن ، وركبتُ سيورَهُ ،
وشدذتُ شريحَتَهُ ، وأحضرتُ الحدادَ ووَضَعْتُ له كيفَ يكونُ
الركابُ ، فصنَعَهُ ثم بردتُهُ ، وطليتُهُ بالقصدير وصَلَتُ السُرَجَ ،
وجعلتُ له أهداً بآ من الحرير .

وانتَهِيتُ بعد ذلك جَواذاً من أَكْرَمِ خُيولِ الملكِ وشدذتُ عليه
السُرَجَ ، وعلقتُ فيه الركابَ ، وألجمتُهُ ، وقدمتُهُ إلى الملكِ ، فسرَهُ
منظرُهُ ولما رَكِبَ عليه فَرِحَ به فرحاً عظيماً ، وشكرني ، ومنحني
هبةً كبيرةً .

وَأُعِيبَ بِهِ الْوَزِيرُ كَذَلِكَ ، فَطَلَبَ مِنِّي أَنْ أَصْنَعَ لَهُ مِثْلَهُ ، فَقَبِلْتُ ،
وَأَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا .

وَقَصَدَنِي النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ ، مِنْ أَرَبَابِ الدَّوْلَةِ وَالْأَعْيَانِ وَغَيْرِهِمْ ،
يَطْلُبُونَ مِنِّي صَنْعَ سُرُوجٍ لَهُمْ فَلَسْتُ أَجِزْتُ دُكَانًا أَعْمَلُ فِيهِ سَرَّاجًا .
وَاتَّخَذْتُ مِنَ النُّجَّارِ وَالْحَدَّادِ شَرِيكَيْنِ وَعَلَّمْتُهُمَا صَنْعَةَ السُّرُوجِ وَاللَّحْمِ ،
وَتَعَاوَنَّا فِي صَنْعِ مَا يُطْلَبُ مِنَّا .

وَرَبِحْتُ مِنْ ذَلِكَ مَالًا كَثِيرًا ، وَأَصْبَحَ لِي عِنْدَهُمْ مَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ ،
وَمَكَانَةٌ مَلْحُوظَةٌ . وَذَاتَ يَوْمٍ . قَالَ لِي الْمَلِكُ ، وَكُنْتُ بِمَحْضَرَتِهِ :

يَا هَذَا لَقَدْ صَرْتَ وَاحِدًا مِنَّا ، وَلَا لَدَيْنَا مَنْزِلَةٌ كَرِيمَةٌ ،
وَلَا نَسْتَطِيعُ مَفَارَقَتَكَ لَنَا ، وَأَوْدُ أَنْ تُطِيعَنِي فِيمَا سَأَلْتُهُ لَكَ .

فَقُلْتُ لَهُ : يَا مَلِكَ الزَّمَانِ ، إِنِّي أَسِيرُ كَرَمِكَ وَمَسْرُوفِكَ ، وَكَلْتُكَ
عِنْدِي أَمْرٌ ، وَإِشَارَتُكَ مُطَاعَةٌ .

فَقَالَ : أُرِيدُ أَنْ أَزُوجَكَ مِنْ عِنْدِنَا زَوْجَةً حَسَنَةً مَلِيحَةً ظَرِيفَةً ،
ذَاتَ مَالٍ وَدِينٍ ، فَيُطِيبَ لَكَ مَقَامُكَ عِنْدَنَا .

فَلَمَّا سَمِعْتُ هَذَا الْعَرْضَ الَّذِي لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُهُ مِنَ الْمَلِكِ خَجَلْتُ ،
وَلَمْ أَجِزْ جَوَابًا .

فَقَالَ لِي : لِمَ لَا تُجِيبُ ؟ .

فَقُلْتُ : الْأَمْرُ أَمْرُكَ يَا مَلِكَ الزَّمَانِ .

فَأَمَرَ مِنْ فَوْرِهِ بِإِحْضَارِ الْقَاضِي وَالشُّهُودِ ، وَزَوْجَتِي مِنْ أَمْرَاقِهِ

كريمة الحسب والنسب ، على غاية من الجمال والبهاء ، ذات مالٍ وعقار .
وأفردَ لي الملكُ بيتًا جميلًا فيه خدمٌ وحشمٌ ، ورتَّبَ لي رواتبَ وجِراياتٍ ،
ولذَّ لي العيشُ ، واستطبتُ حياتي الجديدةَ ، ونسيتُ ما مرَّ بي من شقاء ،
وما تحمَلْتُهُ من متاعِبَ ، وما نزلَ بي من بلايا .

ووافقتُ زوجتي وكانتُ مثالَ الزوجةِ الطيبةِ الحريصةِ على راحةِ
زوجها ، الماملةِ على إسماعِهِ ، المضحيةِ بكلِّ شيءٍ في سبيلِ إرضائه ،
فزلتُ من قلبي منزلةَ عظيمةَ ، وأحَلَّتْها في نفسي محلًّا رفيعًا ، لا آلو
جُهدًا في إرضائها ، وتوفيرِ الراحةِ لها . وقلتُ لنفسِي يومًا : إذا قُدِّرَ لي
أنْ أعودَ إلى بلادِي فلا بُدَّ أنْ آخذَها معي لأنِّي أصبحتُ لا أطيقُ
الحياةَ بدونِها ، ولا يَهْنَأُ لي عيشٌ إلا معها .

وفي يومٍ سمعتُ أن زوجةَ جاري قد توفيتُ ، وكان صديقًا لي ،
فذهبتُ إليه لأعزيه في امرأته ، قبلَ دفنها ؛ فوجدتهُ حزينا مهومًا واجمًا
قد علتُ وجهه كآبةٌ ، وتملكهُ سُهومٌ شديدٌ ، فقلتُ له مُواسيًا ، بعد
أن عزيتُهُ فيها :

يا أخى لا تحزنْ هكذا ، ولا تَبْتَئِسْ ، فسوفَ يموئُك اللهُ خيرًا ،
ولعلَّه يرزُقُك أحسنَ منها فبكى بكاءً شديدًا . وقال لي :

يا صاحبي كيفَ يموئُني اللهُ خيرًا منها ؟ أو كيفَ أترُوجُ غيرَها ؟

ولم يبقَ من عُمرِي إلا يومٌ واحدٌ ۱۱

فقلتُ : يا أخى عُدْ إلى عَقْلِكَ ، ولا تَقُلْ عن نفسك مثلَ هذا القولِ ،

وكل شِدَّةٍ مصيرُها إلى الزَّوالِ . وما تَدْرِي قَسُّ ما ذا تَكْسِبُ غداً ، وما
تَدْرِي قَسُّ بايِّ أرضٍ تموت .

فقالَ وهو لا يزالُ يبكي : وحياتِكَ عِنْدِي . ما سَبَّحَ لي إلا اليومُ ،
ولنَ تَراني بعدَ ذلكَ أبداً ،

فقلتُ ، وقد تعجبتُ لقوله : وكيفَ ذلكَ يا صَدِيقِي ؟

قالَ : اليومَ سَيُدفَنُونَ زوجَتِي ، وَيُدفَنُونِي مَعَهَا . فهذه هي عَادَتُنَا في
بلادِنَا إذا ماتَتِ الزَّوجَةُ يَدْفَنُونَ مَعَهَا زوجَها وهو على قَيَدِ الحَيَاةِ ، وإذا
ماتَ الزوجُ يَدْفَنُونَ مَعَهُ زوجَتَهُ كذلكَ ، حتى لا يَتَمَتَّعَ أَحَدُهُما ، ولا
يَلْتَذِ بِعَيْشٍ بعدَ رَفِيقِهِ .

فقلتُ متَحَسِّراً : وقد اشتدَّ بي السَّجْبُ ، واستبدَّ بي الأَلَمُ : يا وَيْلَاهُ ،
واللَّهِ إِنْ هَذِهِ العَادَةُ قَبِيحَةٌ جَدًّا ، ولا يَقدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مطلقاً .

وَبَيْنَمَا أَنَا خَاطِئُهُ ، أَخَذَ النَّاسُ يُتَوافَدُونَ على النَّارِ زَرَافَاتٍ وَوَحْدَانًا ،
وَيَتَقَدَّمُونَ مِنْهُ يَمِزُّونَهُ في نَفْسِهِ وَزَوْجَتِهِ . وَشَرَعَ قَرُبَ مِنْهُمْ في تَجْهِيزِ
الزَّوْجَةِ المَيِّتَةِ على عَادَتِهِمْ ، فَاحْضَرُوا تَابُوتًا ، وَوَضَعُوهَا فِيهِ ، وَسَارُوا جَمِيعًا
يَسْجُبُهُمْ زَوْجُهَا ، حَتَّى صَارُوا خَارِجَ المَدِينَةِ . وَأَتَوْا إلى مَكَانٍ يَجُورُ جَبَلٍ
مِنَ الصُّخُورِ ، قَرِيبٍ مِنَ البَحْرِ ، وَرَفُؤًا عَنْهُ حَجَرٌ كَبِيرٌ ، ظَهَرَتْ
مِنْ تَحْتِهِ بَكَرَةٌ . مِثْلَ بَكَرَةِ البَنَرِ لَفَ عَلَيْهَا حَبْلٌ مَتِينٌ ، وَمِنْ تَحْتِهَا قُوَّةٌ
عَمِيقَةٌ . مِثْلَ الجَبِّ . فَالْتَمَسُوا بِالرَّأَةِ المَيِّتَةِ فِيهَا . ثُمَّ جَاءُوا بِزَوْجِهَا فَرَطَوْهُ

بالجل ، وأنزلوه إلى الجبِّ ، ومعه إناء ماء كبير ، وزادُ مكوّن من سبعة أرغفة .

فلما تدلّى الرجلُ إلى أسفل الجبِّ ، خلّصَ نفسه من الحبل فسحبوه ، وغطوا فوهة البئرِ بذلك الحجرِ الكبير ، كما كان أولاً . ثم انصرفوا لشأنهم .

أخذتني حسرةٌ على ذلك الرجلِ الذى دُفِنَ حيّاً ، وتوجّهت من قورى إلى الملكِ وقلتُ له :

يا مولاي ، كيف تدفنون الحى مع الميتِ فى بلادكم ؟

فقال : اعلمْ أن هذه هى عادتنا فى بلادنا ، توارثناها عن أجدادنا ، فإذا ماتَ الرجلُ تُدفنُ معه زوجته ، وإذا ماتتِ المرأةُ يُدفنُ معها زوجها ، لأنه لا يجوزُ عندنا أن يفرقَ بينَ الرجلِ وزوجِهِ لا فى الحياة ولا بعدَ الماتِ .

فقلتُ : وكذلك حالكم مع التريبِ مثلى إذا ماتتِ زوجته عندكم ؟ قال : نعم .

فاضطربتُ وفاضَ بى الأملُ ، وكادتُ أن تنشقَّ مرارتى غماً وكداً ، وخَوْفاً من أن تموتَ زوجتى قتلى ، فيدفنُونى معها حيّاً .

وصرتُ بعد ذلك أتلّهُ عن ذلك الخطيرِ ، وأحاولُ إبعاده عن ذهنى باحتمالِ موتى أنا أولاً ، وتجنّبي شرَّ هذا العذابِ ؛ وكنتُ بجانب ذلك أبالغُ فى رعاية زوجتى ، وأحافظُ عليها من كل صغيرة وكبيرة ، وكنتُ

أحرصُ منها على صحتها : فإذا اشتكت الماء أو منصفاً أو زكاً أو دُواراً
أو أيَّ شيء - أرتبكتُ ، واضطربتُ ، وصاقت الدنيا في وجهي ،
وبذلتُ كل نفيسٍ وغالٍ في علاجها وتخليصها من مرضها .

ولكن ما كلُّ ما يتمناه المرء يدركه ، فما مضى وقتٌ طويلٌ على
موت زوجة جاري ، حتى مرضت زوجتي مرضاً عُصلاً ، فجزعتُ عليها وعلى
نفسِي ، وأخذتُ أعالجُها ، وأمرضُها ، بكل ما وسعني حيلتي ، ولكن ،
حُمَّ القضاء ففاضت روجها ومائت ، وسقطتُ أنا بجوارها شبه ميت .
وجاء الملكُ ليواسيني ، واجتمعَ الناسُ يمزونني ويمزون أهلَ
زوجتي ، وأحضرُوا الفاسلةَ فنسلتها . وألبسوها أغرَ ثيابها ، وحلَّوها
بأغلى حلِّيها ووضعوها في الثابوتِ وحمله بمضهم ، وساروا جميعاً ، وأنا
بينهم أسير كالخالمِ من فرطِ الذُّهول .

ووصلنا إلى الجبل ، ورفضوا الصخرةَ عن فوهة الجبِّ ، وألقوا بالمتوفاة
فيه ، ورأيتُ أصحابي وأهلَ زوجتي يقبلون على ويدعوني ، فصحوحتُ
من سباتي وجرتني موجةٌ من البكاء والصراخ ، وأخذتُ أصيحُ فيهم :
أنا رجلٌ غريبٌ ، ولا دخلَ لي بماداتكم .

فنظرَ بعضهم إلى بعضٍ مشفقين ، وتقدَّم نفرٌ منهم ، فأمسكوني ،
ليربطوني بالجبل ، وأنا أتلصُّ منهم ، وأتوسَّلُ إليهم أن يطلقوني ،
وأستشفع لهم بإلههم وملكيهم وأحيائهم ، وكلما تكاثروا على زاد نحيبي
وإغوالي ، وما زلنا في أخذٍ وردٍّ ، وإرخاءٍ وشدٍّ ، حتى خارت قواي ،

وصنفت ، فقلت لهم بصوت خافت ضعيف : لا تمشوني ، لا تقربوني ،
أنا رجل غريب ، ولا صبر لي على تقاليدكم .

ولكنهم لم يأنهوا لي ، ولم يُميروا توسلي أذنا ، وأمسكوني على الرغم .
منى وربطوني بحبل الجب ، وربطوا معي سبعة أقراص من الخبز ، وإناؤه
من الماء ، وأنزلوني في ذلك الجب . وقالوا لي :

فك نفسك من الجبال فلم أرض أن أفك نفسي ؛ وظللت أستعطفهم
وأستريحهم أن يُخْرِجوني . فلما لم يجدوا معي جدوى ، ألقوا عليّ
الجبال ، وانصرفوا بعد أن سدّوا فوهة الجب .

وعلى شعاع النور الضئيل الذي كان ينقذ خلال شقوق الفوهة
رأيت نفسي في منارة كبيرة ، واسعة جداً ، لم تكشف عني آخرها ،
لتكاثف الظلام في أرجائها . ورأيت من حولي جثثاً مكسدة ينبعث من
أكثرها رائحة كريهة منتنة ، أقشعر جسدي من رؤيتها ، فانتبذت
ناحية ، وجلست أبكي نفسي وأرثيها ، وأعود باللائمة عليها ، وأحملها
وزر ما حلّ بي أولاً وأخيراً بالزجّ بي في المخاطر بعد أن كنت هاتئاً
ناعماً مستقراً في وطني بين أهلي وأحبابي ، ثم رضائي بالزواج في غير
بلدي ، وآمنتُ بأنّي أستأهل كل ما مرّ عليّ من مصائب ، وما ينتظرني
من موتٍ شنيع .

ومكثتُ على هذا الحال وقتاً لا أدرك مدته ، ولا أحسّ مسيراً
لساعات الزمن فيه ، فإني لا أعرف لي من نهاري ، ولا أشعر بأي ميلٍ

إلى طعامٍ أو شرابٍ ، وقد غثيتُ قيسى وسأمتُ حالي ، وماتَ أُملي ،
 فطرختُ قيسى على الأرضِ أُنظر الموتَ وأستعجلُهُ ، ولم يأتني ما انتظرتهُ ،
 وإنما رُختُ في يومٍ لا أدري كيف أتاني رغمَ كلِّ ما بي ولا أدري أطلالَ
 نومي أم قصرَ ، ولكنتي صموتُ وفي فيي مرارةٌ كمرارةِ العلقمِ ، وكأدُّ
 حلقِي أن ينشقَّ من الهيبِ . فجاهدتُ حتى استوتُ جالساً ، وأخذتُ
 أُمحسُّ يدي إناءَ الماءِ حتى وجدتهُ ، وشربتُ منه جرعةً أطفأتُ بها
 نارَ ظمئِي ، ورطبْتُ جفافَ لِساني ، ثم سرختُ يدي حتى عثرتُ على
 الخبزِ فأخذتُ كسرةً وصرتُ ألوكُها بين أسناني حتى استطعتُ ابتلاعها
 عندئذٍ ارتدَّ إلى بعضِ الشمورِ بالحياة ، ورأيتُ ألا أسئَلَمَ هكذا سريعاً
 للموتِ بل يجب أن أجاهدَ في سبيلِ الحياة ، وأبحثَ لي عن طريقَةٍ
 تُنجيني من هذا المكانِ .

فهبضتُ قائماً وسرتُ في المقارةِ أُمحسُّ جدرانها ، وأختبرُ صخورها ،
 وأطوفُ في أنحائها لعلني أجدها أنشدُ ، فوجدتها مغارةً متسعةً الجوانبِ ،
 خاليةً البطونِ ، صلبةً الجدرانِ ، تتكرُّ في أرضها جثثٌ كثيرةٌ ،
 قد قرشَ أديمها بعظمِ رميمٍ . ولم أهدِ إلى منفذٍ يمكنُ أن أُمخِذَ منه وسيلةً
 إلى النجاةِ ، فهاودني اليأسُ ، وعدتُ منخِذاً إلى زادي ، فأخذتهُ
 وبحثتُ لي عن مكانٍ بعيدٍ عن الجثثِ الحديثةِ فسوقتهُ وجلستُ ، أُنظر
 ساعتِي التي لا مفرَّ منها ولا مَعْدِي ، ولكنتي آليتُ على قيسى أن أقصِدَ

في زادي ما أمكن فلا أتبلغُ بلقمةٍ ولا أعصِرُ جرعةً إلا إذا وجدتُ
نفسِي في حاجةٍ قُصوى إليها .

وبينما أنا أفكرُ يوماً فيما سيصيرُ إليه حالي بعد فراغِ مؤوَّتِي . إذا
بصوتِ فرقةٍ شديدةٍ وضوءِ نافذٍ ساطعٍ قد غشى بصرِي ، فسألتُ
نفسِي : ما الخبرُ يا ترى ؟

وظللتُ عينيَّ يدي ، وتنبَّعتُ وميضَ الضوء ، فرأيتُه منبعثاً من
مَدْخَلِ المغارةِ ، وقد رفعتُ من فوقه الصخرةَ ورأيتُ القومَ واقفينَ
من حوله يُلقونَ بَمِيتٍ جديدٍ ، ثم تلاوا ذلك بإذلاء امرأةٍ بالجبالِ وهي
تصرخُ وتولولُ نادبةً نفسها .

عرفتُ أن صَيْقاً جديداً سيحلُّ بالمغارةِ ، ويقاميني شقائي حتى تحينَ
ميَّنتُه بعد فراغِ زاده الذي زوَّدَ به .

وجالتُ بخاطري فكرةً طارئةً : لماذا لا أبيعُ هذا الطارقَ مِن
شرِّ العذابِ الَّذِي سيقاسيه مثلي ، وأقربَ ميَّنتِه ، بدلا من هَوْلِ ترقُّبها
ساعةً بعد ساعة .

رحلَ القومُ بعد أن سدُّوا منفذَ المغارةِ ، وتركوا المرأةَ تنوحُ ،
وتبكي نفسها ، وكُنْتُ أراها ولا تشعُرُ بي . فتناولتُ قصبةَ رجلٍ
ميتٍ ، وتسَلَّلتُ نحوها ، وأهويتُ بها على أمِّ رأسِها ، فسقطتُ على
الأرضِ منشيئاً عليَّها ، فواليتُ الضرباتِ حتى فاصَّتْ روحُها ففتحيتها
جانباً ، وكانت تحلِّي بشيءٍ كثيرٍ من الخلى والجواهرِ ، وحملتُ زوجها



إلى جانبها وأخذتُ زادها ، وعدتُ إلى مكاني ، وقد أزمستُ الاقتصاد
في تناوله حتى يَأْتِنِي صيدٌ جَدِيد .

ما أَحْبَبْتُ الشَّرَّ ، وما كُنْتُ يوماً من الأيامِ شَريراً ، ولكنَّ
الحياةَ غاليةً ، لا يَسْتَرَخِصُهَا الإنسانُ ولا يُفَرِّطُ فيها مهما كانت
الأسبابُ ؛ وإن الضُّيُوفَ الذين يَنْزِلُونَ هذا الجبَّ قد أسلموا أنفسهم
للموتِ ، فلا بأسَ أن تَجَلَّتْ بهم لأعيش .

وإلى هذا التفكير ارتاحَ قلبي واطمأنتُ نفسي .

وقصَّيتُ بالجلبُ زمتاً طويلاً ، اتقلَّبتُ فيه إلى وخشٍ جَائِعٍ ، قابِجٍ
ليَتَصَيَّدَ فرائسهُ ، فكُلَّما فُتِحَ الجبُّ وأُلقي إليهِ بَيْتٌ جَدِيدٌ ومعه رَجُلٌ
أو امرأةٌ قُتِلَتْ إليه فَقَتَلْتُهُ في حُلْكِ الظلامِ ، واستولَّيتُ على زاده ،
أَقْوَمْتُ منه حتى تُسَاقَ إلى فَرَسَةٍ جَدِيدَةٍ .

وكانت كَلِمَاتُ ثارتُ نفسي على هذا الوضعِ الوضعِ الذي ارتضيتُ لها
أَسْكَنْتُهَا بأنه مجَاهِدَةٌ ومكافَحةٌ في سبيلِ الحَيَاةِ . ودَفِيعَ الخطرِ عنها .

وكُلَّما أَتَيْتُ ضَمِيرِي على ما أَتَيْتُهُ من إِزْهَاقِ الأرواحِ أَسْكَنْتُهُ بأن هذه
الأرواحُ صاعدةٌ قَريباً لا محالةَ إن لم تَكُنْ اليومَ فَمَداً وإِثماً كُفِي صاحبها
ويلاَتِ الاِتِّظَارِ والعذابِ .

عشتُ كذلك وقتاً ما ، وحشاً ضارِياً ، طالتْ أَظْفَارُهُ ، واسترسلَ
شعرُهُ ، وبشَعَ منظَرُهُ ، واسترخَى لحمُهُ ، وزالتْ عنه آدميَّتُهُ ؛ ولكنها
كانت تُعَاوِدُهُ أَحْيَاناً .

وذاث يوم كنت في جدلٍ مع نفسي التي كانت لا تستطيعُ استطابةَ هذه الحياةِ ، ولا الاستكانة إليها ، وكانت قد انتصرتُ علىّ ، وأرنتني ألا جَدوى ولا معنى لحياةٍ مرةٍ أليمةٍ موحشةٍ في مقبرةٍ ، لا تحوطني فيها إلا الجثث ، ولا تقعُ عيني داخلها إلا على رِمَمٍ وعظامٍ ، ولا أستشيق في هوائها غيرَ رائحةٍ مثننةٍ كريهةٍ ، ولا عملٍ لي غيرَ إزهاقِ الأرواحِ لأخذ زادَ أصحابها أتبلغُ به لُيَمينِي على هذه الحياةِ الأليمةِ .

ثم أين هي الحياةُ ؟

أهذه الحياةُ التي أحيّاها هي الحياةُ ؟

إن الموتَ خيرٌ منها كثيراً .

وبينما أنا أعاني هذا الصّراعَ الهائلَ المحتدمَ المضطربَ في دُخيلةٍ نقيسُ ، سمعتُ صوتَ حركةٍ خفيفةٍ في الجانبِ الآخرِ من الجبِّ ، فأصغْتُ بسُمعي فتكرَّرَ الصوتُ ، فنهضتُ وتسَلَّختُ بِسِلَاحِي ، وهو قصبةٌ من عَظْمٍ ؛ وبعثتُ شَطْرَ الصوتِ ، وأنا لا أزالُ أَكْذِبُ سَمِيي ؛ فبابُ المغارةِ لم يُرَفَعْ عنه الحجرُ ، فضلاً عن أن الوقتَ كانَ فجراً كما نبأَتني بعضُ شِماعاتِ الضوءِ التي تنفذُ من خلالِ شقوقِ بينِ الفوّهةِ والصخرةِ التي توضعُ عليها ؛ وهو الوقتُ الذي لم يمتدِ القومُ أن يأتوا فيه لِيُلقُوا بميتٍ جديدٍ ، وبضحيةٍ جديدةٍ .

إذنَ عَمَنَ يصدُرُ هذا الصوتُ ؟ . وتقدمتُ أَتَقَرَّسُ في الظلامِ ، الذي اعتادتُ عيناى الرؤيةِ فيه ، فأبصرتُ شعباً أسودَ يولّي عند ما أحسَّ

حركة سَيرِي فتمَجَّبتُ من ذلك وأدركتُ أَنَّهُ وَحْشٌ أَنَّى يَهْشُ جُثَّتِ
الموتى ، ولكن من أين أَنَّى هذا الوحش ؟ .

وتَبِعْتُ هذا الشيخَ الهاربَ ، لأعرفَ المصدرَ الذى أَنَّى منه ، فرأيتُه
قد اتَّجَهَ إلى صَدْرِ المِغَارَةِ ثم اختفى عن بَصَرِي . فقدمْتُ أحولُ أن
أشُقَّ بناظرِي حُجْبَ الظَّلامِ ، فلاحَ لِي من بُعْدٍ وسط هذا السوادِ شيءٌ ،
يلمع كالنَّجم الساطعِ فى اللَّيْلَةِ الحالِكَةِ . ثم لم يلبثُ أن اختفى ، ثم عاودَ
الظهورَ ، وهكذا ظلَّ يختفى عن عَيْنِي تارةً ويظهرُ أخرى ، وأنا أبحثُ
أخطأ إلى يمينه فى طريقٍ وغيرِ آخِذٍ فى الارتجاجِ ، توقُّ السيرِ فيه
الصخورُ والأخجارُ .

ووضَّحَ لِي الضوءُ ، وصرتُ كلما اقتربتُ منه زادَ أمامي اتِّساعاً ،
وازدادَ وضوحاً ، حتى أشرفتُ عليه . فظننتُ أَنَّهُ منقَذٌ آخَرُ ينفذُ إلى
الخارجِ ، فاستخفَّى الفرجُ ، وهرعتُ نحوه ، فصار ظنِّي يَقِيناً ووجدتهُ
مُجَوِّةً صغيرةً كالثقبِ فى جدارِ المِغَارَةِ ، رجَّعَ لِي أَنَّ الوحشَ قد قَبِيتُها
انتفَذَ منها إلى داخلِ المِغَارَةِ لتأكلَ من جُثَّتِ الموتى .

ولا يستطيعُ إدْرَاؤُ أنْ يُدْرِكَ مقدارَ موجَةِ الفرجِ الهائلةِ التى غمرتني ،
ولا أنْ يدوِّرَ بخليهِ فكرةً مما عَادَتُ عليه من خِيفَةِ الطَّربِ ، ولا أنْ
تطوِّفَ بمخيِّلَتِهِ صورتي وأنا أرقصُ وأصقُّ ، وأنط وأب ، وأتمهم
بكلماتٍ هى نَشِيدُ النِّجَاجِ ، وترَنِيمَةُ الْخِلَاصِ .

وعالجتُ خروجي من الثقبِ ، حتى صرْتُ خارجَه ، وجلستُ أتنسَّمُ

نَسِيمَ الحُرِّيَّةِ ، وأملأُ رَتْنِي من الهواءِ التَّيِّبِ المنعشِ ، وتلقَّتْ حورِي
أشْبَعُ عَيْنِي من الفضاءِ الواسِعِ ، وأمتَّمتُها بضوءِ الشمسِ البهيجِ ، وقد
سكنتُ روحي ، وهدأتُ نفسي ، واطمأنَّ قلبي ، وأيقنتُ بالحياة بعد
الموتِ ، أو أنِّي بُعثتُ من جديدٍ .

ثم نظرتُ إلى ما حورِي لأرى في أيِّ مكانٍ أنا ؟ وإلى أيِّ بقعةٍ من
الأرضِ صعدتُ ؟

فوجدتُ نفسي فوقَ جبلٍ عالٍ يفصلُ بينَ بحرَيْنِ ، ومن ورائِهِ
الجزيرةُ والمدينةُ ولا يستطيعُ أحدٌ من أهلِها أن يَصِلَ إليه ، حينئذٍ
اطمأنَّ قلبي ، وحمدتُ اللهَ وشكرتُهُ على فضلهِ كثيراً . ولما لمَ أجِدْ شيئاً
يُمكنُ أن أَكُلهُ عدتُ إلى المنارةِ ، فأخذتُ زادي الذي كنتُ أدخِرُهُ
للأيامِ العجافِ ، وخلعتُ ما علىَّ من الملابسِ القذرةِ ، وارتديتُ شيئاً
مما كانَ نظيفاً في ملابسِ الموتى . وجعتُ شيئاً كثيراً مما كانَ عليهمُ
من الخلقِ والجواهرِ والآلِيَّ ، وحرزتهُ في الأكفانِ ، وصعدتُ من
الثقبِ إلى ظهرِ الجبلِ ، وجلستُ أترقبُ مرورَ سفينةٍ بعرضِ البحرِ
لتأخذني معها .

ومكثتُ في هذا الانتظارِ زمناً طويلاً . كان زادي فيه قد نَقَدَ ،
واضطربتُ إلى العودةِ إلى عادتي القديمةِ من قتلِ الوافدين على المنارةِ ،
والاستيلاء على زادهم ، ثم أَثقل كل ما يقعُ تحتَ بصري من لآلئٍ

وجواهرٍ وذهبٍ وأُصمهُ إلى ما جَمَعْتُهُ وأَعَدَدْتُهُ فوق الجبل استعداداً لساعةِ الرَّحِيلِ .

وأخيراً ، حانت هذه الساعةُ ، فلمحتُ سفينةً في عرضِ البحرِ ، فَنَشَرْتُ شِرَاعِي الذي أَعَدَدْتُهُ لهذهِ الغايةِ وهو قِصْبَةٌ ساقٍ لَمِيَّتْ ، عَقَدْتُ بِطَرَفِهَا قِطْعَةً نَسِيجٍ كَبِيرَةٍ يَبِضَاءٍ مِنَ الْأَكْفَانِ ، وَأَخَذْتُ أَلَوَحَ بِهَا عَيْنًا وَشَمَالًا وَأَوَّجَهُ نَظَرَ رُكَّابِ السَّفِينَةِ إِلَى . وَسِرْعَانٍ مَارَأَوْنِي لَارْتِفَاعِ الْجَبَلِ ، وَحَوَّلُوا سِيرَ السَّفِينَةِ نَاحِيَتِي .

وكانت لي فرحةٌ ما فرحتُها طولُ عُمُرِي ، وَانْتَشَبْتُ نَشْوَةً مَا تَذَوَّقْتُ حُلَاوَتَهَا فِي حَيَاتِي ، وَظَلَلْتُ أَنْظُرَ إِلَى السَّفِينَةِ وَهِيَ مُقْبِلَةٌ تَتَهَادَى نَحْوِي ، وَقَدْ تَبَدَّثُ لَعْنَتِي عَلَى صُورَةٍ جَمِيلَةٍ فَاتِنَةٍ جَذَابَةٍ كَالْمُرُوسِ الْمَجْلُوقَةِ ، فَدَدْتُ يَدَيَّ نَحْوَهَا وَإِنِّي لَا كَاذُ أَتْلُو بِنَفْسِي فِيهَا وَأَنْزَلَ الْبَحَارَةُ زُورِقًا ، وَنَزَلَ بَعْضُهُمْ فِيهِ ، وَصَارُوا يَحْدِفُونَ حَتَّى اقْتَرَبُوا مِنْ قَاعِدَةِ الْجَبَلِ ، وَصَاحُوا عَلَى يَسْتَفْهِمُونِي :

من أنت ؟ وما سببُ جلوسِكَ فوق هذا الجبلِ الذي ما رأينا قبلاً ذلك عليه أحدًا قط ؟

فصحتُ : أَنَا رَجُلٌ تَاجِرٌ ، غَرِقَ الْمَرْكَبُ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُنْجُوَ بِنَفْسِي وَبِحِوَانِجِي فَوْقَ لَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ حَمَلَنِي إِلَى هَذَا الْجَبَلِ فَاعْتَلَيْتُهُ بَعْدَ جَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ . فَأَشَارُوا لِي بِالنُّزُولِ إِلَيْهِمْ ، فَحَمَلْتُ مَا جَمَعْتُهُ وَانْحَدَرْتُ حَتَّى بَلَغْتُ حَافَةَ الزُّورِقِ فَسَاعَدُونِي عَلَى النُّزُولِ فِيهِ .

ولما وصلنا إلى السفينة سألني الربان :

كيف وصلت إلى هذا الجبل يا رجل ؟ . فأني على طول عهدي
بالبحر ، وكثرت طوافي بهذا المكان ، ومروري بذلك الجبل ما رأيت
عليه غير الخوش والطيور .

فأخبرته بما أخبرت به بحارته من قبل حينما تلقفوني في الزورق ، ولم
أشأ أن أخبره بالحقيقة خوفاً من أن يكون على ظهر السفينة أحد من
أهل هذه المدينة المشنومة .

وأخرجتُ لصاحب المركب شيئاً كثيراً مما معي من جواهر ودرر .
وقلت له : يا سيدي أنت سببُ نجاتي من هذا الجبل ، فتقبل هذا
مني مقابل صنيعك معي ، ومغروفيك لي .
ولكنه لم يقبل مني شيئاً وقال لي :

نحن لا نأخذ من أحد شيئاً . وإذا نجينا غريقاً من بحر أو من
جزيرة أطلعناه وكسوناه ووهبنا له من لدنا هبة يستعين بها على حاله ،
ولا نتظر من أحد جزاء ولا شكوراً إنما نبنى رضا الله تعالى ،
ونلتس ثوابه .

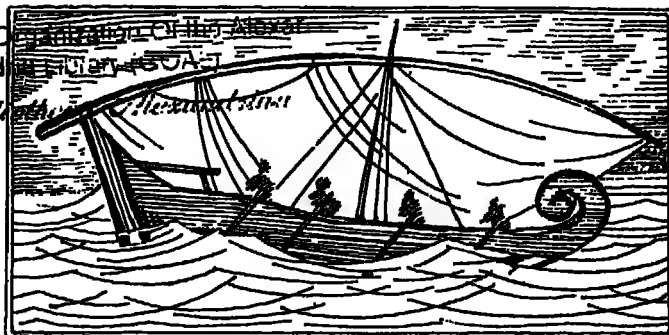
فشكرته كثيراً ودعوت له دعاء طيباً .

وسارت بنا السفينة من بحر إلى بحر ، وانتقلت بنا من جزيرة إلى
جزيرة إلى أن وصلنا إلى البصرة ، فأقمتُ بها أياماً قلائل . ثم انحدرتُ
إلى بغداد وتوجهتُ إلى داري ، واجتمعتُ بأهلي وأحبائي ، ففرحوا بي

وهنتوني ، وتصدقتُ على الفقراء والأيتامِ بِمالٍ كثيرٍ . وعُدْتُ إلى
سيرتي الأولى ، وصرت لا تَسْعَى الدنيا لِقُرْبِ سعادتي وسُروري .
وهذا هو ما رأيته من عجائب في سفرتي الرابعة ، وغداً إن شاء الله
أقصُّ عليكم ، ما لاقِيته في سفرتي الخامسة من عجائب وغرائب .
أمر السندبادُ بإحضارِ المشاء على عادته ، فأكلوا وشبعوا ، ثم أمر
بإعطاء السندباد الحمال مائة مثقالٍ من الذهب .
وانصرفَ الجمعُ وهم متعجبون مما سمِعُوا أشدَّ العجب .
وفي اليوم التالي حضر السندبادُ الحمال . وبعد أن انْعَقِدَتْ حلقةُ
الأصحابِ وتناولوا طعامهم ، ابتدأ السندبادُ البحريُّ في الحديثِ فقال :



General Organization of the Arab League
Library of the Arab League
Bibliothèque de l'Organisation de la Ligue Arabe



السَّفَرَةُ الْخَامِسَةُ

علمتُ يا إخواني ما يدفعني إلى الرغبة في السفر، ويستمرُّ يجوانحي من التَّهَمُّ إلى التجارة والتَّرحال. على الرغم مما قلَّسنيته في رِخْلَاتي من مصاعب وأهوال يشيبُ من هولها الولدان.

فقد كنت إذا طَالَ على الوقت وأنا نائم هادئاً مستريحاً، لا يشغلُ فكري شأغلٌ ولا يكدرني مكدرٌ، وأكادُ لا أعملُ عملاً إلا الجلوس إلى الإخوان، والاستمتاع بأسباب السُّرور والطرب، - كنت حينذاك - أجدُ نفسي وقد شعرتُ بالملالة والضيق.

واشتدَّ بي الحنين إلى السفر، وممارسة التجارة، والانتقال من بلدة إلى بلدة، ومشاهدة شعوبها، وغالبية الرجال الكادحين فيها.

وكنْتُ كلَّما راجعتُ نفسي وحاوَلْتُ أَنْ أَكْتُمَهَا عَنِ السَّفَرِ، وَكَلَّما ذَكَرْتُهَا بِأَمْرٍ عَلَى مِنَ الْبَلَايا فِي كُلِّ رَحَلَةٍ نَصَدْتُ لِي بِأَنْ مَا فِي الْغَيْبِ قَدْ قُدِّرَ، وَأَنْ كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَى مَا كُتِبَ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْهُ حَدَرٌ، وَلَا يُوقِعُهُ فِي شَرٍّ لَمْ يَقْدِرْ رَحَلَةً وَلَا سَفَرَ، وَمَا يُوَاجِهُ التَّجَارَ وَالْمَسَافِرِينَ مِنَ الْأَخْطَارِ فِي رِحْلَتِهِمْ لَا يَصِيحُ أَنْ يَنْتَنِيَهُمْ عَنْ عَزَمِهِمْ، وَلَا يَقْعُدَ بِهِمْ عَنْ تَرْجَاهِهِمْ .

وهذا الشُّعُورُ، وَذَلِكَ التَّفَكُّيرُ، شَرَعْتُ فِي إِعْدَادِ نَفْسِي لِلرَّحَلَةِ الْخَاسَةِ، تَدْفَعُنِي رَغْبَةً مِلْحَةً، وَيَحْدُونِي أَمَلٌ كَبِيرٌ، وَلَا سِيَّما أَنِّي فِي كُلِّ رَحَلَةٍ مِنْ رِحْلَاتِي السَّابِقَةِ كَانَتْ تُظَلِّمُ الدُّنْيَا فِي وَجْهِ، وَتَقْطَعُ بِي الْأَمَلَ؛ ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تُقْضَى، وَيَتَّصِلَ حَبْلُ الْأَمَلِ؛ فَأُنْجُو وَأَكْسِبُ وَأَعُودُ إِلَى أَهْلِي؛ وَقَدَرْتُ أَنْ عِنَايَةً خَاصَةً مِنْ اللَّهِ تَلَحُّظُنِي، وَتَجْهَزْتُ بِضَائِعِ ذَاتِ قِيَمَةٍ غَالِيَةٍ، وَتَوَجَّهْتُ بِهَا إِلَى مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ فَشَاهَدْتُ فِي مِينَائِهَا سَفِينَةً كَبِيرَةً، يَدُّو عَلَيْهَا رَوْتَقُ الْجِلْدَةِ وَالْبَهَاءِ فَأَعْيَبَنِي، وَرَغِبْتُ فِي شِرَائِهَا، وَسَأَلْتُ بِحَارَتِهَا عَنْ صَاحِبِهَا، فَدَلَّوْنِي عَلَيْهِ. فَقَاوَضْتُهُ فِي أَمْرِ يَبِيحُ لِي، فَقَبِلَ وَبِذَلِكَ انْتَقَلْتُ مَلِكِيَّتُهَا إِلَيَّ، وَاسْتَرَيْتُ لَهَا رِبَّانًا، وَبَحَارَةً، وَأَنْزَلْتُ فِيهَا أَهْمَالِي. وَجَاءَنِي بَعْدَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الثَّجَارِ وَأَبْدَوْا رَغَبَتَهُمْ فِي السَّفَرِ مِنَّا، فَقَبِلْتُ، فَأَتَوْا يَضَائِعَهُمْ إِلَى الْمَرْكَبِ، بَعْدَ أَنْ دَفَعُوا إِلَى أَجْرِ سَفَرِهِمْ.

وسار بنا المركبُ على بركةِ اللهِ، وما مِنْ أَحَدٍ مِنَّا إِلَّا اسْتَبَشَرَ خَيْرًا،

وأمل في الكسب والربح، وظللتنا نتنقل من بلد إلى بلد، ومن ميناء إلى ميناء، ومن جزيرة إلى جزيرة نمارسُ تجارتنا، ونطيقُ ما بنا من شوقٍ إلى معرفة أحوال الشعوب، ومشاهدة معالم البلاد ومحابها، حتى أتى بنا المطاف في جزيرة بدت لنا قراء جرداء، ليس فيها شيء؛ إلا قبة بيضاء لاحت لنا من بعيد.

وغادر التجار والبحارة السفينة إلى الجزيرة لاستكشافها والتفرج عليها أما أنا فقد تخلفت في السفينة وخليتهم يزلون وحدهم.

وبعد قليل رجع أحد البحارة، وطلب إلى أن أصحبه فتلكتُ بعض التلكتو، قال: قم يا سيدي لمشاهدة هذه البيضة العجيبة التي حينها قبة بيضاء قهضتُ منه، وقد فطنتُ إلى أنها بيضة رُخ كالتى رأيته من قبل، وما كدتُ أقربُ من مكانها حتى رأيتُ الرجال يضربونها بالأحجار. فكسروا جزءا كبيرا منها سال منه ماء كثير. وبدأ فرخُ الرخ داخلها. فصختُ بهم:

كفوا. لا تفعلوا ذلك، فيأتى طيرُ الرخ ويهلكنا جميعا.

فلم يصغوا لكلامى. بل واصلوا عملهم، وسحبوا الرخ من داخل البيضة وأخذوا يقطعون من لحمه، ويأخذون منه مقادير كبيرة، وأنا أنظر إليهم وقد أوجستُ خيفة مما سوف يحدث لو أتى صاحبُ البيضة.

وفجأة انتشر الظلام من فوقنا وخيم علينا، فرقمنا رموسنا ننظر

ما حال بيننا وبين الشمس ، فرأيتنا أجنحة الرخ مبسوطة في الجو كالنعامـة
الكبيرة ، فصحت بالركاب : انشدوا السلامة يا ركاب السفينة
وأمرعوا بالصعود إلى المركب فسخرؤا مني ، ولم يمتبؤا بكلامي ، ولم
يفهموا حقيقة الموقف ، لأنهم لم يروا قبل ذلك رخاً إلا أنهم لم يلبثوا
أن أدركوا أن هناك خطراً كبيراً ، فأمرعوا يتساقون في الصعود
إلى المركب ينشدون النجاة .

ودوى في الفضاء صوت الرخ كالرعد القاصف ، فانخلعت قلوبنا
وصيحت على الربان والبحارة : ادفعوا بالمركب إلى عرض البحر ،
قبلما تنهلك .

وأسرعنا جميعاً نعاون في الابتعاد بالسفينة قبل أن يصيبنا ضرر من
هذا الرخ الهائج الذي كان لا ينقطع من دوى صراخه بعد أن أدرك
ما حل بينضته .

وما كان أشد فزعنا حين رأيناها رخين ، قد أقبلنا نحونا وأخذنا
يحوّمان حول المركب ويرسلان أصواتاً منكراً متواصلة أصمّت آذاننا
وخلعت قلوبنا .

وبعد أن تبعنا المركب فترة ، رأيناها قد كرا عائدتين إلى الجزيرة
فاطمأنت قلوبنا وهذا روعنا ، وسجدنا لله على ذلك .

ولكننا ما كدنا نطمئن وتنفّس الصعداء ، حتى أبصرناهما قد رجعا
إلينا وبين رجلٍ كلٍ منهما صخرة عظيمة ، فعاودنا الفزع ، واتابنا

خوفٌ شديد ، وحامٌ أحد الرُّخَّين فوق السفينة ثم ألقى بصخرته ، وفي تلك اللحظة حوّل الرُّبَّان سيرة السفينة فجأة ، ف انحرفت عن موقع الصخره قيداً أثملة فسقطت في الماء بجوار المركب . وأحدثت فراغاً عظيماً كدنا نرى منه قرار البحر وارتجّت السفينة وتمايلت وأوشكت أن تنقلب بنا ، ثم ما كدنا ننقبه ونفوق من غشيتنا حتى كان المقدّر فينا قد وقع فقد ألقّت أنثى الرخ بصخرتها ، فنزلت بمؤخرة السفينة فكسرتها وحطمت دقها تحطيماً ، ومالت السفينة ثم انقلبت بنا ففرق لساعته من غرق ، وطوحت الأمواج بمن طوحت .

وجاهدت أنا حتى تشبّثت بلّوج من ألواح المركب المتناثرة ، واعتليته وكان المركب قد غرق بالقرب من جزيرة أخرى في وسط البحر ، لم ألبث طويلاً حتى لاحت لي أشجارها فجاهدت في التجديف بساق لأساعده اللوح على الاتجاه إلى ناحيتها ، فبلغتها بعد أن نال من التعب مبلغاً عظيماً ، صعدت إلى الشاطئ ، واستلقيت عليه وقتاً من الزمان ، فلما شعرت بيزد الراحة يدب في أعضائي ، نهضت وعشيت في هذه الجزيرة ، فرأيتها كأنها روضة من رياض الجنة : أشجارها يانعة مويقة ، وأنهارها دافقة ، وطيورها مفردة . ورأيت فيها كثيراً من الفواكه ، وأنواعاً مختلفة من الأزهار ، فأكلت من الفواكه حتى شبعت وشربت من الأنهار حتى ارتويت ، وحمدت الله على ذلك وأثنيته عليه .

وأمسى المساء ، فرقدت فوق المشب ، ولكن النوم لم يهـ أجباني

وطلبتُ مُسْنِقَةً قَلِقًا ، لا يقر لي قرارٌ . حتى انبلج الفجرُ ، رغم أني لم أسمع ولم أرَ بهذه الجزيرة ما يُريب وسرت في الجزيرة أَسْتَكْشِفُ مأواي الجديد ، الذي رمثني المقاديرُ إليه لعلِّي أجد لي منفذًا للخلاص . وتوغلتُ في السير وسطَ أشجارٍ وأحراجٍ متكاثفةٍ اقترجتُ بي فجأةً عن مكانٍ منسجٍ به عينُ ماءٍ جاريةٍ أقيمتُ عليها ساقيةٌ . فتمجيتُ لذلك ، ولكن ، ما كان أشدَّ ذلك العجب حين أبصرتُ شيخًا جالسًا على حافةِ الساقيةِ من الناحيةِ الأخرى . وقد انتثرَ بإزارٍ من ورقِ الأشجار ، فطافَ بذهنِي أن هذا الشيخَ لا بُدَّ أنه كان غريقًا مئلي ، تحطمتْ به سفينتهُ ، واستطاعَ النجاةُ ، والالتجاءُ إلى هذه الجزيرة ، فدنوتُ منه وسَلَّمْتُ ، فردَّ علي السَّلامَ بالإشارةِ ولم يكلم . قلتُ له : يا شيخُ ما السَّببُ في جلوسِكَ في هذا المكان ؟ .

فركَ رأسه متأسفًا ، وأشار لي بيده ، أن أحمله وأقله إلى الناحيةِ الأخرى من الساقيةِ فرَمَيْتُ لهذا الشيخِ العاجزِ المريضِ ، وأشفقتُ عليه لضَعْفِهِ ووَحْدَتِهِ ، وهَدَمْتُ إليه وحملتهُ على كَتِفِي بهمةٍ ونشاطٍ ، رغم أنِّي كنتُ مُتَسَبِّحًا مَكْدُودًا ، منهوكَ القُوَى ، وذهبتُ به إلى الناحيةِ الأخرى من الساقيةِ حيث أشار . ورققتُ به وقلتُ له : انزل على راحتِكَ هادئًا .

ولكنه لم ينزل ، بل لَفَّ ساقِيهَ حولَ رَقَبَتِي ، فنظرتُ إليهما فوجدتُهما كجلدِ الجاثوس خشونةً وسوادًا ، ففرغتُ منه ، وأردتُ أن



أَلْقِيَهُ مِنْ فَوْقِ كَتِفِي . وَلَكِنَّهُ إِزْدَادَ ضَنْطًا بِسَاقِيهِ حَوْلَ رَقَبَتِي لَخَاوَلْتُ
 إِزَاحَتَهُ عَنِّي ، وَالتَّمَلُّصَ مِنْهُ فَزَادَ ضَنْطُهُ حَتَّى اسْوَدَّتْ أُمَامِي الدُّنْيَا ،
 وَأَصْبَحْتُ غَيْرَ مُطِيقٍ ضَنْطَهُ ، وَلَا مُحْتَمِلٍ ثِقْلَهُ ، فَدَمَعْتُ عَيْنَايَ ، وَانْحَبَسَ
 الدَّمُ فِي وَجْهِي ، وَكَادَ يَنْقَطِعُ نَفْسِي ، وَجَفَّ رِقِّي ، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثُ أَنْ غِيبْتُ
 عَنْ وُجُودِي ، وَسَقَطْتُ بِهِ مَغْشِيًّا عَلَى ، فَرَفَعَ سَاقَهُ عَنْ رَقَبَتِي بَعْدَ أَنْ
 كَذْتُ أَقْعَدُ الْحَيَاةَ . وَأَخَذَ يَضْرِبُنِي عَلَى ظَهْرِي وَصَدْرِي ضَرْبًا مُوجِعًا
 مُؤَلِّمًا جَمَلِي أَنْتَبَهَ مِنْ غَشْيَتِي قَهْضْتُ قَائِمًا وَهُوَ لَا يَزَالُ عَلَى كَتِفِي .
 فَأَشَارَ لِي أَنْ أَدْخُلَ بِهِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ حَيْثُ الْفَوَاكِهُ الطَّيِّبَةُ ، وَالتَّمَارُ الشَّهِيَّةُ .

فَدَخَلْتُ بِهِ وَسَرْتُ يَنْهَا ، فَصَارَ يَنْتَقِي مِنْهَا وَيَأْكُلُ . وَكَلَّا أَعْجَبَنِي نَوْعُ
 أَشَارِ إِلَيْهِ ، فَاتَّقَلْتُ بِهِ نَحْوَهُ ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ مَا طَابَ لَهُ الْأَكْلُ ؛ وَظَلَلْتُ
 هَكَذَا أَحْمَلُهُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ ، وَأَتَقَلُّ بِهِ هُنَا وَهَنَا حَتَّى نَالَ مِنِّي التَّعَبُ
 مَبْلَغًا عَظِيمًا ، وَإِذَا تَوَانَيْتُ أَوْ تَهَلَّيْتُ أَوْ خَالَفْتُ يَضْرِبُنِي بِرَجْلَيْهِ ضَرْبًا
 أَشَدَّ مِنْ ضَرْبِ السَّيَاطِرِ .

وَمَرَّتْ بِي أَيَّامٌ وَأَنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الشَّائِنَةِ ، وَهَذَا الْوَضْعِ الْمُزْرِي .
 وَذَلِكَ الطَّاعُوتُ جَائِمٌ عَلَى كَاهِلِي ، لَا يَفُكُّ لِمَآرِي ، وَلَا يَحُلُّ وَثَاقِي ، وَلَا
 يُبَادِرُ مَجْلِسَهُ مِنْ كَتِفِي لَيْلًا وَلَا نَهَارًا ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ لَفَّ رَجْلَيْهِ حَوْلَ
 عُنُقِي ، وَشَدَّهَا شَدًّا قَوِيًّا لَا أَسْتَطِيعُ التَّخَلُّصَ مِنْهَا فَكَأَنَّهُمَا كَلَابًا تَنَازِلُ
 مِنْ حَدِيدٍ ، وَيَنَامُ قَلِيلًا ثُمَّ يَصْحُو ، فَيَمَارِدُ ضَرْبِي ، فَانْهَضُ مُسْرِعًا وَأَنْجُوهُ
 بِهِ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ ، وَلَا أَسْتَطِيعُ مُخَالَفَتَهُ بِمَا أَقَابِيهِ مِنْ بَاسِهِ وَقُوَّتِهِ ، فَهُوَ

فظُّ غليظُ القلبِ ، فيه جَسَارَةٌ وَشَرَّاسَةٌ ، وكنتُ أَطيعُهُ كذلك لعله يَمِطُّ عَنِّي ، ويتركُ كَتِفِي في أَيِّ لحظةٍ من اللحظات ، فَأَتَمَكَّنُ من الفرار منه ؛ ولكنَّهُ كانَ لا يَفْعَلُ ، حتى أَنه كانَ إذا اضطرَّ إلى التخلُّصِ من فضلاتِ طعامِهِ تَخَلَّصَ منها وهو ملازمٌ كَتِفِي ؛ ولا يتركُنِي أَنامُ غيرِ سويِّاتٍ قليلةٍ ، وهو مُلَازِمٌ مَكَانَهُ من كَتِفِي لا يَبْرَحُهُ .

وصرتُ أَسِيرًا ذليلاً . نادِماً على ما فعلتُهُ من خيرِ بهذا الشيخ ، وتألَّمتُ إذ صَنَنْتُ معروفاً في غَيْرِ أَهْلِهِ ، وزادَنِي أَلَمًا يَأْسِي من التخلُّصِ منه ، وطلَّبتُ الموتَ وَتَمَنَّيْتُهُ على الله في كلِّ وَقْتٍ .

بَقِيتُ على هذِهِ الحَالَةِ السيِّئَةِ أَيَّامًا ، لا يُجِدُنِي استعطافٌ ولا استِرْحَامٌ ، ولا يُقَيِّدُ عَوِيلٌ ولا بُكَاءٌ .

حتى كُنتُ سائرًا ذاتَ يومٍ وهو على كَتِفِي في أَحَدِ أَنْحَاءِ الجزيرة ، فوجدتُ يَقْطِنُ كَثِيرًا قَلِيلُهُ رَطْبٌ وكَثِيرُهُ يَابِسٌ ، فخطرتُ بِإِلَى فِكْرَةٍ ، وقلتُ : لعلِّي أُسْتَعِينُ بها على التخلُّصِ بما أَنَا فيه من شَقَاءٍ . فأخذتُ واحدةً كَبِيرَةً من اليَقْطِنِ اليَابِسِ ، وأفرغتُ جَوْفَهَا ، وذهبتُ إلى كَرَمَةِ النَّبِّ ، فَلَائِهَا عَصِيرًا ، وسدَدْتُ قُوْهَهَا ، وَوَضَعْتُهَا في الشَّمْسِ ، وتركْتُهَا أَيَّامًا حتى صارتُ نَخْرًا .

وكنتُ كُلَّ يومٍ ، أَذهبُ إِلَيْهَا ، في مَكَانِهَا ، وأُظْهِرُ عَيْنَايَ بِهَا ، وَجِرْصِي عَلَيْهَا ، فَأَغْرَاهُ هَذَا الِاهْتِمَامُ بِهَا مِنِّي ، على أَنِ يَسْأَلَنِي عَنْهَا . فَأَجِبُّهُ : إنْ هَذَا عَصِيرٌ مِنَ النَّبِّ ، إِذَا صُنِعَ بِهِ مَا صُنِعْتُ ، وَشَرِبَهُ المرءُ ،

أَكْسَبَ جِسْمَهُ قُوَّةً ، وَأَزَالَ عَنْهُ التَّعَبَ ، وَكَذَبْتُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، حَتَّى أَغْرِيَهُ بِشُرْبِ الْخَمْرِ لِتَضَعُفَ صِحَّتُهُ ، وَيَفْقِدَ شَعْوَدَهُ ، وَحِينَئِذٍ أَسْتَطِيعُ التَّخَلُّصَ مِنْ شَرِّهِ ، فَقَالَ : بَعْدَ أَنْ يُصْبِحَ هَذَا الْعَصِيرُ صَالِحًا لِلشُّرْبِ ، فَلَأِنِّي أَحِبُّ أَشْرَبَ مِنْهُ مَمْلَكَ ، فَقُلْتُ : وَلَكِ ذَلِكَ .

وَلَمَّا صَارَ الْعَنْبُ خَمْرًا تَنَاوَلْتُ الْيَقَطِيَّةَ ، وَوَضَعْتُهَا عَلَى فَمِي ، كَأَنِّي أُعْبِ مِنْهَا عَبًّا ، وَلَكِنِّي لَمْ أَشْرَبْ مِنْهَا شَيْئًا ، إِلَّا مَا عَسَى أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَى حَلْقِي ، وَكَانَ قَلِيلًا جَدًّا ، فَأَمَرَنِي أَنْ أُعْطِيَهُ إِيَّاهَا ، فَفَعَلْتُ ، وَجَعَلَ يَمُبُّ مَا فِيهَا بِشِرَاهَةٍ وَنَهْمٍ ، حَتَّى أَفْرَعَهَا فِي جَوْفِهِ ، ثُمَّ نَاوَلَنِي إِيَّاهَا ، وَمَا هِيَ إِلَّا قِطْرَةٌ مِنْ زَمَنٍ ، حَتَّى ذَهَبَ شَعْوَرُهُ ، وَفَقِدَ إِحْسَاسَهُ ، وَانْحَلَّتْ أَعْصَابُهُ ، فَأَلْقَيْتُهُ عَلَى الْأَرْضِ جثةً قَذِرَةً ، لَا تَحْسِبُ وَلَا تَعِي وَإِنْ كَانَتْ فِيهَا الْحَيَاةُ .

وَتَنَفَّسْتُ الصَّعْدَاءَ طَوِيلًا ، وَأَنَا لَا أَصْدُقُ أَنِّي قَدْ نَجَوْتُ بِهِذِهِ السَّهْوَةِ مِنْ ذَلِكَ الْكَأْبُوسِ الْخَائِقِ الَّذِي لَزِمَنِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الطَّوِيلَةَ لِلرَّيْرَةِ ، فَبَغَضَ إِلَى الْحَيَاةِ ، وَجَعَلَنِي أَكْرَهُهَا كَرَاهًا فَضَلْتُ مَعَهُ الْمَوْتَ وَلَكِنِّي لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ .

وَخَشِيتُ أَنَّهُ إِذَا مَا أَفَاقَ مِنْ سُكْرِهِ وَمَادَ إِلَى وَعْيِهِ يُوْذِنِي . فَجِئْتُ بِصَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَضَرَبْتُهُ عَلَى رَأْسِهِ ، فَاخْتَلَطَ لَحْمُهُ بِدَمِهِ ، وَذَهَبَتْ رَوْحُهُ إِلَى الْجَحِيمِ .

وَحَلَّتْ لِي الْجَزِيرَةُ فِيسَرْتُ أَرْضًا فِيهَا ، وَأَنَا مُطْمَئِنٌّ النَّفْسَ ،

مُسْتَرَحٍ الْخَاطِرُ ، آكَلُ ثَمَارِهَا . فَأَشْعُرُ بِلَذَّتِهَا ، وَأَنَامُ مِلَّ جَفْنِي فَلَا يُفْرِغُنِي مُفْرِعٌ .

وَدَاوَمْتُ عَلَى النَّهَابِ إِلَى الشَّاطِئِ ، وَرُقَابَةِ الْأَقْصَى . لَمَلْنِي أَلْحُ سَفِينَةٌ مَارَّةٌ ، تَأْخُذُنِي مَعَهَا وَتَحْمِلُنِي إِلَى أَرْضِ الْوَطَنِ .

وَمَكَشْتُ عَلَى ذَلِكَ زَمَنًا طَوِيلًا ، وَعَلَى ذَلِكَ لَمْ أَيَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فَقَدْ عَوَّدَنِي اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَنِي .

وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا فَإِذَا بِسَفِينَةٍ قَدْ أَلْقَتْ مَرَاثِمَهَا بِالْقُرْبِ مِنَ الْجَزِيرَةِ ، ثُمَّ نَزَلَ رُكَّابُهَا إِلَى شَاطِئِهَا ، وَقَدْ نَصَاعَدَتْ أَصْوَاتُهُمْ ، وَتَمَلَّتْ صُحُفَاتُهُمْ . وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ فِي غَرَابَةٍ .

وَبِدَافِعِ لَا شُعُورِي وَجَدْتُ نَفْسِي أَهْرُؤُلُ نَحْوَهُمْ ، يَفْعُرُونِي فِرْحَ عَظِيمٍ — وَيَدْفَعُنِي حَيْنٌ شَدِيدٌ . كَطِفْلٍ وَجَدَ أُمَّهُ بَعْدَ طَوَّلِ غِيَابٍ . وَرَأَى الْقَوْمُ فَالْتَفَتُوا جَمِيعًا حَوْلِي ، يَسْأَلُونَنِي عَنْ أَمْرِي وَيَسْتَفْهِمُونَ عَن حَالِي . وَعَنْ سَبَبِ وَجُودِي بِالْجَزِيرَةِ .

فَأَخْبَرْتُهُمْ خَبْرِي وَمَا جَرَى لِي مِنْ شَيْخِ الْجَزِيرَةِ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَجَبُ الشَّدِيدُ وَهَتُونِي يَنْجَانِي . وَقَالُوا لِي :

إِنَّ هَذَا الشَّيْخَ . الَّذِي رَكِبَ عَلَى كَيْفَيْكَ يُسَمَّى شَيْخَ الْبَحْرِ ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ دَخَلَ تَحْتَ قَبْضَتِهِ وَخَلَّصَ مِنْهُ إِلَّا أَنْتَ .

ثُمَّ أَحْضَرُونِي طَعَامًا فَأَكَلْتُ ، وَثِيَابًا فَلَبَسْتُ ، وَطُفْتُ مَعَهُمْ فِي الْجَزِيرَةِ مَرَارًا أَرَاهِمُ أَشْجَارَهَا وَرِيَاضَهَا ، وَأَنَا لَا أَكِلُ مِنَ السَّيْرِ

مَعَهُمْ ، وَلَا أَمَلٌ مِنْ كَثَرَةِ أَسْئَلَتِهِمْ فَقَدْ كُنْتُ مُشْتَاقًا إِلَى صُحْبَةِ أَنَاسٍ ،
ظَلَمْتُ إِلَى أَحَادِيثِهِمْ .

وَبِمَدِّ أَنْ طَافُوا بِالْجَزِيرَةِ حَادُوا إِلَى سَفِينَتِهِمْ ، وَرَكِبُوا وَأَنَا
مَعَهُمْ .

وَأَقْلَمْتُ بِنَا وَسَارَتْ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالَى ، إِلَى أَنْ أَتَيْتُ بِنَا الْأَقْدَارُ
فِي مَدِينَةٍ هَالِكَةِ الْبِنَاءِ ، جَمِيعُ يَبُوتِهَا مَطْلَةٌ عَلَى الْبَحْرِ ، وَتِلْكَ الْمَدِينَةُ يُقَالُ
لَهَا مَدِينَةُ الْقُرُودِ ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَ مَا يَأْتِي اللَّيْلُ ، يَخْرُجُ جَمِيعُ سُكَّانِهَا مِنْ
الْأَبْوَابِ الْمُطْلَقَةِ عَلَى الْبَحْرِ ، وَيَبْتَثُونَ فِي الزَّوَارِقِ وَالْمَرَاكِبِ خَوْفًا مِنْ
الْقُرُودِ الَّتِي تَزْحَفُ عَلَيْهِمْ فِي اللَّيْلِ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ مِنْ أَعَالَى الْجِبَالِ تَبْنِي
مَنَارَ الْبَسَاتِينِ .

فَلَمَّا سَمِعْتُ خَبَرَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، دَفَعَنِي حُبُّ الْاسْتِظْلَاجِ وَرَغْبَتِي
فِي رُؤْيَا كُلِّ عَجِيبٍ وَغَرِيبٍ إِلَى الصُّعُودِ إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، وَالتَّفَرُّجِ
عَلَيْهَا ، وَكَانَ ذَلِكَ لَسُوءِ حَظِّي ، وَسَوَادِ طَالِي ، فَمَا كَذْتُ أَنْتَهَى مِنْ
طَوَاقِي وَإِشْبَاجِ فُضُولِي ، وَأَعُوذُ إِلَى السَّفِينَةِ حَتَّى وَجَدْتُهَا قَدْ أَقْلَمْتُ
وَابْتَعَدْتُ بَعِيدًا فِي عَرْضِ الْبَحْرِ . فَصِخْتُ وَبَكَيْتُ ، وَلِمْتُ نَفْسِي ، عَلَى
تَهْوُّرِهَا ، قَائِلًا : مَا لِي وَالْقُرُودِ ، وَلِمَدِينَةِ الْقُرُودِ ، أَمَا شَبِهْتُ بِمَا أَصَابَنِي
فِيهَا ، وَأَقْبَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَقَالَ لِي :

يَا سَيِّدِي هَلْ أَنْتَ غَرِيبٌ عَنْ هَذِهِ الدِّيَارِ ؟

فَقُلْتُ لَهُ : نَعَمْ ، أَنَا غَرِيبٌ ، وَمِسْكِينٌ ، وَكُنْتُ فِي سَفِينَةٍ رَسَتْ

بهذه المدينة فصعدتُ إليها ، أتهرجُ عليها ، ولما عُدْتُ إلى السفينة
وجدتها قد أَقْلَعَتْ وترَكْتَنِي .

فقال لي : لا تَبْتَئِسْ ، وقُمْ معنا ، وانزل الزورق ، فإنَّكَ إنْ مَكَّنْتَ
هنا لَيْلاً أَهْلَكَتَكَ القُرُودُ .
فقلت له : سَمْعًا و طاعة .

ونَهَضْتُ معه ، فَأَنْزَلَنِي فِي زَوْرَقٍ فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَقَارِبِهِ . ودَفَعُوا
بِالزَّوْرَقِ حَتَّى اجْتَمَعُوا بِهِ عَنِ الشَّاطِئِ زُهَاهُ مِيلٌ ، وقَضَيْنَا اللَّيْلَةَ وَلَمَّا
أَصْبَحَ الصَّبَاحُ عَادُوا بِالزَّوْرَقِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَذَهَبَ كُلُّ مَنْهُمْ إِلَى عَمَلِهِ ،
يَفْلَحُ أَرْضَهُ ، أَوْ يُرَوِّي زَرْعَهُ ، أَوْ يُقَلِّمُ شَجَرَهُ ، أَوْ يَقْطِفُ زَهْرَهُ ، أَوْ
يُجَنِّي ثَمَرَهُ .

فإِذَا أَمْسَى السَّاءُ خَرَجُوا إِلَى الْبَحْرِ ، وَقَضَوْا فِيهِ سَوَادَ لَيْلِهِمْ ، ثُمَّ
يَعُودُونَ إِلَى جَزِيرَتِهِمْ إِذَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ .

وَهُنَا حِيلَةٌ أَلْفَهَا هَوْلَاءُ النَّاسِ ، وَاسْتَرَا حُوا إِلَيْهَا ؛ وَبَقِيتُ أَنَا مَعَهُمْ ،
أَخْرَجُ كَمَا يَخْرُجُونَ وَأَعُودُ إِلَى الْجَزِيرَةِ كَمَا يَعُودُونَ .

وَكُنَّا ذَاتَ لَيْلَةٍ نَسْمُرُ فِي الزَّوْرَقِ الَّذِي نَبِيتُ فِيهِ ، فَقَالَ لِي
أَحَدُ رِفَاقِي :

يَا سَيِّدِي ، أَنْتَ غَرِيبٌ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ ، فَهَلْ لَكَ مِهْنَةٌ تَسْتَطِيعُ
مَزَاوَلَتَهَا هُنَا ، فَقُلْتُ :

لَا وَاللَّهِ يَا أَخِي ، لَيْسَ لِي مِهْنَةٌ ، وَأَنَا رَجُلٌ مُتَاجِرٌ ، كَانَتْ لِي سَفِينَةٌ

محملة بالبضائع ، ففرقت في البحر بكل ما فيها ، وما نجوت إلا بمونة الله ،
وأحب أن أعود إلى بلادى ، ولكن الله لم يهتئ لى الأسباب بعد ،
وليس مئى مال أستعين به إذا احتجت إليه .

فقال : لا بأس عليك ، سأدبر لك أمراً تحصل منه على معاشك ،
وتكفل لك رزقك .

وفى الصباح أحضر لى غلالة . وقال لى :
خذ هذه الغلالة . واملاها حصى صغيراً ، وسأرفقك بجماعة من أهل
المدينة لتخرج معهم وتفعل مثل ما يفعلون ، لعلك تكتسب شيئاً
يؤمنك على معاشك ، ثم على سفرك إلى بلادك .

وصحبنى إلى خارج المدينة ، حيث كان هناك جماعة من الرجال
يجمعون الحجارة الصغيرة والزلط فقال لهم :

هذا رجل غريب ، وليس له حرفة يكتسب منها ، فخذوه معكم
وعلموه اللقط لعله يعمل شيئاً يفتات منه . فيكون لكم عند الله
حسن الجزاء .

فقالوا : مرتجياً به .

وساؤوا وأنا معهم بعد أن ملأت غلاتى حجارة صغيرة مثلهم ، حتى
اتهينا إلى وادٍ واسع ، تكاثفت فيه أشجار عالية ، لا يستطيع أحد أن
يبلغ نظرهم أعلاها وقد انتشرت به قروء كثيرة . وما أبصرتنا حتى
قررت إلى أعلى الأشجار ، فأخذ الرجال يرمونها بالحجارة التى جمعوها

في الخالى . والقروءُ تجاوبهم الرجمَ بثمار الأشجار تقطعها وترجمهم بها ،
فتأملتُ هذه الثمارَ التي تُلقيها القروءُ ، فإذا هي ثمارُ جوزِ الهند .

فلما رأيتُ هذا العملَ من القومِ ، اخترتُ شجرةً عظيمةً عليها قروءٌ
كثيرةٌ ، وأخذتُ أَرجمُ القروءَ ، وصارت القروءُ تقطعُ الجوزَ .
وترميتُ به ، فأجمعه كما يفعلُ القومُ . فلما فرغتُ غلاتي من الأحجار
كنتُ قد جمعتُ من الجوزِ قَدْرًا كبيرًا .

وعُدنا جميعًا إلى المدينةِ ، ومبى ما جمعته من الجوزِ ، وحملَ القومُ ،
كلُّهُ على قَدَرِ طاقتهِ .

وذهبتُ إلى صاحبي الذي أرشدني إلى هذا العملِ ، فأعطيتُهُ ما جمعتُ
شاكراً له فضلَه .

فأعطاني مِفْتَاحَ مَكَانٍ في دَارِهِ . وقالَ لي :

اتخِيبُ الجوزَ الجيدَ وضَعُهُ في هذا المكانِ ، حتى تجمعَ ما يُعينكَ
على سَفَرِكَ . والباقي بَعْدُ واتنفعَ بِمَنِّهِ . فشكرتُهُ ، وفعلتُ ما أشارَ عليَّ به .
وزاولتُ هذه المهنةَ ، وصرتُ أخرجُ كلَّ يومٍ مع القومِ إلى الخلاءِ ،
فأجمعُ الحصى ، ثم تنوِّجُهُ إلى الوادِي حيث نعملُ على جَمْعِ الجوزِ وكان
القومُ يَحْبُونِي وَيَتَوَصَّوْنَ بِي ، ويدلُونِي على الأشجارِ الضخمةِ التي
تكثرُ فيها الأثمارُ والقروءُ .

واجتمعَ عندي شَيءٌ كثيرٌ من الجوزِ الطيبِ ، كما بعتُ شيئًا كثيرًا

منه ، انتفعتُ ببعضِ ثمنه ، فاشتريتُ كل ما احتجتُ إليه ، واشتنتُ
نفسى ، وادخرتُ الباقي .

وهكذا مرت الأيامُ ، وأنا أجمعُ جوزَ الهندِ الطيبِ الذى سيكونُ
بضاعتى إذا ما أقبلتُ سفينةً للتجارةِ فيه ، حتى إذا أقبلت السفينةُ
المنشودةُ ، كانت فرحتى بجمعِها لا تُقدَّرُ .

وجئتُ إلى صاحبي ، وأعلمته رغبتي فى السفرِ على ظهرِ هذه السفينةِ ،
فقال لي :

كما تشاء يا صاحبي .

فودعته وشكرته ، وقلتُ ما جمعته وادخرته من جوزِ الهندِ إلى
السفينةِ ، بعد أن رَحَّبَ رئيسُها بسفري معهم ، وتقَدَّرتُ أجرتهُ .

ولم يطلُ رُسُو السفينةِ بالميناءِ ، فقد أقلتُ فى نفسِ اليومِ بعد ما أخذ
التجارُ الوافدون عليها حاجتهم من جوزِ الهندِ وغيرِه ، مقايضينَ
ببضائعِ أخرى .

ورمتُ بنا السفينة على بلادِ وجزرٍ كثيرة ، وكما رست فى إحدى
الموانئ أبيعُ ، وأقايضُ بما مَعِيَ من جوزِ الهندِ وقد مررتنا على جزيرةٍ
استبدلنا فيها بجوزِ الهندِ القرفةَ والفللَ . وذكر لنا جماعةٌ ممن معنا من
التجار أنهم شاهدوا عناقيدَ الفلفل على أشجارِها ، ولكل عتقودٍ ورقةٌ
تظلهُ إذا أمطرت السماء ، وإذا كَفَّ المطرُ ابتعدت الورقةُ عنه . ومررتنا
على جزيرةٍ اسمُها المسرات ، وبها العود القمارى . ثم على جزيرةٍ أخرى وفيها

المودُ الصبني وهو أحسنُ من القماري وأغلى ثمنًا . ثم مررتا على مناص
اللؤلؤ . فأعطيتُ الفواصين شيئًا مما ملى من جوز الهند وقلتُ لهم :

غوصوا غوصةً من حظي ونصبي

فتأصوا ، وطلعوا ومعهم شيء كثيرٌ من اللؤلؤ الغالي . وقالوا لي :
والله يا سيدى إنك لجدٌ سعيد .

وأعطوني ما أخرجوه .

ثم سررتا على بركة الله شطر البصرة ، فبلغناها بمدزمن قصير .
وتوجهتُ منها إلى بغداد وكلّي شوقٍ إلى رؤية أهلي وأصحابي .
ووجدتهم على خير حال ؛ وفرحوا بمودتي وهتفوني بالسَّلامَة .

ولكثيرٍ ما رجعتُ به في هذه السفرة من أموالٍ ومتاع ، خزنتُ
بعضه في خزائني . وأخرجتُ كثيرًا من الأموال فتصدقتُ بها على
اليتامى والفقراء ؛ ووزعتُ الهدايا على الأحباب والأصحاب والأقارب .
وأنستني لذة الريح وحلاوته ، مرارة ما قاسيتُ في سبيله .

ومكثتُ على هذا الحال زمنًا ، ثم دفعني الحنينُ ثانياً إلى الرغبة في
السفر والترحال .

وغداً إن شاء الله أقصُّ عليكم ما لاقيتُهُ في سفرتي السادسة .

ومدت المائدة للعشاء . فأكل القومُ حتى اكتفوا . وودَّعوا صاحبَ
الدار داعين له بالخير . وانصرف السندبادُ الحالُّ بعد أن وهبَ له السندبادُ

البحرى مائة مثقالٍ من الذهبِ كعادته .

وفى اليومِ الثانى اجتمعَ الأصحابُ بمنزلةِ السندبادِ البحرى . وبعد أن تناولوا الطعامَ وأخذوا قسطاً من الراحةِ . ابتدأ يقصُّ عليهم تفاصيل رحلتهِ السادسةِ، فقال :



السَّفَرَةُ السَّادِسَةُ

وِينَا أَنَا يَا إِخْوَانِي سَاكِنٌ إِلَى الرَّاحَةِ ، مُسْتَمِرٌّ طَعْمَ الْهَدْوِ ، بِمَدِّ
عَوْدَتِي مِنْ رَحْلَتِي الَّتِي حَدَّثْتُمْ عَنْهَا — وَفَدَّ عَلَيَّ وَفَدَّ مِنْ التَّجَارِ ، وَلَا تَزَالُ
عَلَى وَجْهِهِمْ غِبْرَةُ السَّفَرِ ، وَوَعَثَاءُ الطَّرِيقِ ، فَهَنَاتُهُمْ بِسَلَامَتِهِمْ ، وَجَلَسْتُ
أَسْتَمِعُ لِأَحَادِيثِهِمْ وَقَصَصِهِمْ ، عَمَّا لَاقَوْهُ فِي رَحْلَتِهِمْ ، وَشَاهَدُوهُ مِنْ بِلْدَانٍ ،
وَنَالُوهُ مِنْ رِيحٍ جَزِيلٍ .

وَمَا فَرَّغُوا مِنْ حَدِيثِهِمْ حَتَّى اسْتَمَرْتُ بَيْنَ جَنِيٍّ رَغْبَةً جَامِعَةً إِلَى
مَعَاوَدَةِ السَّفَرِ وَالتَّجْوَالِ ، وَالسَّمِيِّ فِي بِلَادِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ ؛ وَشَجَعَنِي أَنْ اللَّهُ
عَوْدَتِي النِّجَاحَ مِنْ كُلِّ مُخْنَةٍ ، وَتَقْرِيجَ الْكَرْبِ مَهْمَا اشْتَدَّ . وَلَمْ أَخْذَلْ
تِلْكَ الرِّغْبَةَ ، فَسَرَعَانِ مَا اسْتَجِيتُ لِنَفْسِي وَتَهَيَّأْتُ لِلسَّفَرِ ، فَأَعَدَدْتُ
تِجَارَتِي ، وَأَوْثَقْتُ أَحْمَالَهَا ، وَتَقَلَّهَا الْحَمَالُونَ إِلَى الْمِينَاءِ . ثُمَّ سَافَرْتُ بِهَا مِنْ

بنداد إلى البصرة ، فوجدتُ ميناها مركبا عظيما ، وبه قرء من التجار والكبراء قد أوشك على الإبحار . فَأُزِلَتْ أحمالي فيه ، وأبحر بنا على بركة الله .

وطابَ لنا السفرُ ، فقد كانَ الجوُّ لطيفا ، والريحُ رخاء ، وراجتُ في أسواقِ البلادِ التي مررنا بها بضائنا . وأصبتُ منها ربما وفيرا . وتعلَّمتُ جميعاً الفرج والسُرورَ بهذه السفرة الموقَّعة الميمونة : فقد قطعنا أياها هاتينِ وادعيتُ ، لم تصبنا مشقات ، ولم تنزلْ بنا ضائقات . فإنَّ الحظَّ كانَ سعيداً ، وإنَّ أبوابَ الفرجِ كانت واسعةً ، فنفتحتُ أسواقنا ، وراجتُ بضائنا ، وأقبلَ الناسُ عليها ، فشرَّوها كلها . وربحتُ ما شئتُ أن نربحَ ؛ حتى إذا انتهيتُ من تجارتنا وفكرنا في العودةِ إلى بلادنا ، ذهبنا إلى مركبنا ، ونزلنا فيه .

وسار بنا المركبُ الأيامَ والليالي ، يقطعُ بحراً بعد بحرٍ ، دون أن نرى برّاً ، وتلوحَ أمامنا أرضٌ ، وفي صباحِ يومٍ هبتنا من نومنا على صراخِ ربَّانِ السفينةِ وصياحه ، فأسرعنا إليه ننظرُ خبره ، وتبيَّنَ أمره ؛ فوجدناه في ألمٍ وحزنٍ عظيمين . فالتفتنا جميعاً حوله نستفهم عما حدث ، ونحاولُ أن نهدي ثورته التي لم نُدرِكْ لها سبباً ؛ وبعدَ لأيٍ استطعنا أن نعرفَ منه الحقيقةَ الرهيبةَ ، إذ قال :

اعلموا — يا جماعة — أننا قد ضلَّنا الطريقَ . ودخلنا إلى بحرٍ لا نعرفُ طريقه ، وإذا لم يُقيضِ الله لنا شيئاً يخلصنا ويرشدنا ، هلكنا لا محالة . فابتهلوا

إلى الله تعالى أن ينجيتنا مما سنندفعُ إليه من ظلماتِ ذلك البحر الذي دفعنا إليه الريح دفعا .

فتصاعدت الدعواتُ والابتهالاتُ إلى الله عز وجل أن يكشفَ هذه الغمةَ ، ويزيلَ تلك الحمةَ ، ويهدينا إلى سواء السبيل .

ولكن الله كان قد قدرَ ما سيكون ، فلم تمض غير لحظات حتى أبصرَ ناجِلا مرتقا شائعا، قد ظهرَ أمامنا فجأة . واندفعتْ نحوه سفينتنا اندفاعا شديدا بقوةِ الريح وقذفِ الأمواج ، فهللنا وجزعنا ، وتماثلت أصواتنا ، واشتد هرجنا ومرجنا فوق ظهر المركب ، وأيقنا أننا نندفع حتما نحو الهلاك .

وأصدرَ الرابنُ أمره بالإشراع بحمل القلوع ، ومحاولة تحويل السفينة عن الاتجاه الخطأ الذي دفعنا الريح نحوه ، ووقفها عن الطريق الممك الذي نحن مسوقون إليه . ولكن ذهبت محاولات البحارة والرجال هباء ودون جدوى ، فقد ظلت السفينةُ تندفع وتندفع نحو الجبل بقوةٍ خفيفة ، وكأن بالجبل مغناطيسا يجذبها نحوه . أو كأنه ملاذٌ وحى استعادت من الطوافِ في البحر باللجوء إليه فلم تفلح محاولتنا وقف السفينة ، ولم نستطيع أن نحففَ من قوة اندفاعها . وما هي إلا مضضة برقٍ أو طرفة عينٍ حتى صمَّ آذاننا صوت ارتطام السفينة بصخور الجبل ، وبزلزلة ألواحها من تحتنا زلزلة تفسخت لها أجزاؤها قالت بنا السفينة على الأثر وتسرب الماء إليها ، فصرخنا ، وولولنا ، وأمسك بعضنا بعضا ، وقد

أَيْقَنَّا أَنْ لَا نَجَاةَ . ثُمَّ لَمْ نَلْبَثْ أَنْ سَمِعْنَا رَطْمَةً أُخْرَى ، أَحَالَتِ السَّفِينَةَ حُطَامًا
مَتَارًا ، وَخَلَقْنَا أَجْسَادًا مَبْعُوثَةً فَوْقَ سَطْحِ الْمِيَاهِ ، وَتَحْتَ أَقْضَاصِ
السَّفِينَةِ بَعْضُنَا حَتَّى يُحَاوِلُ أَنْ يَنْجُو ، وَبَعْضُنَا مَيِّتٌ يَلْبَسُ بِهِ الْمَوْجُ .
وَجَاهِدَ الْأَحْيَاءُ فِي التَّمَلُّقِ بِالصَّخُورِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَفْلَحَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْفَقَ
فَاجْتَرَفَتْهُ الْأُمُوجُ ، وَرَدَّتْهُ إِلَى أَعْمَاقِ الْبَحْرِ .

وَكَنتُ أَنَا مِنَ النَّاجِينَ الَّذِينَ سَخَّرَ اللَّهُ لَهُمْ مَوْجَةً عَاطِيَةً دَفَعَتْهُمْ إِلَى
سَفْحِ الْجَبَلِ دَفْعَةً شَدِيدَةً ، ثُمَّ انْحَسَرَتْ عَنْهُ وَبَقُوا عَلَى السَّفْحِ .
وَوَجَدْنَا سَفْحَ الْجَبَلِ مَتَسِّمًا ، تَكَثَّرَ فِيهِ الصَّخُورُ ، قَدْ تَحَطَّمَتْ
عَلَيْهَا قَبْلَ سَفِينَتِنَا عَشْرَاتٌ مِنَ السُّفُنِ رَأَيْنَا حُطَامَهَا وَأَحْمَالَهَا مَنثَرَةً
هَنَا وَهَنَاكَ .

أَبْعَدْنَا عَنْ مَوَاطِيءِ الْمَاءِ قَلِيلًا ، ثُمَّ جَلَسْنَا نَسْتَرِيحُ مِمَّا أَصَابَنَا مِنْ
الذَّعْرِ وَالْفَزَعِ جَمِيعًا ؛ وَمَا كُنَّا نَفِيْقُ حَتَّى بَدَأْنَا نَفْكَرُ فِيمَا سَبَّحْنَا
إِلَيْهِ أَمْرُنَا ؛ وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ نَسِيرَ لِنَزِي مَا وَرَاءَ الْبَصَرِ
مِنَ السَّفْحِ .

وَكَلَّمَا سَرْنَا تَفَقَّدُ الْمَكَانَ ، رَأَيْنَا مَا يَبْهَرُ النَّظَرَ ، وَيُذْهِلُّ الْعَقْلَ ،
فَقَدْ رَأَيْنَا الْأَمْوَالَ وَاللَّائِيَّ وَالْحَلِيَّ فِي كُلِّ مَكَانٍ ذَهَبًا إِلَيْهِ بَيْنَ الْأَحْجَارِ
وَالصَّخُورِ وَالْحَصَى . وَوَجَدْنَا صِنَادِيقَ الْبِضَائِعِ وَالْأَقَشَةِ الَّتِي يَقْذِفُهَا
الْبَحْرُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا . كَمَا وَجَدْنَا صِنَادِيقَ الْمُؤْنِ وَالْأَطْعَمَةِ فَفَرَحْنَا
بِهَا وَهَمَّشْنَا لَهَا ، وَأَسْرَعْنَا إِلَيْهَا ، وَفَتَحْنَاهَا فَوَجَدْنَا بَعْضَهَا قَدْ فَسَدَ

وتعفن ، وتنت رائحته ، ووجدنا بمضها الآخر باقيا على حالته
الجيدة ، لم يفسد ولم يمتن ، فاحتفظنا به لغداثنا ، ورأينا عينا يتبع
منها ماء عذب ، يجري على منحدرات الجبل ، وتيب بين صخوره .

وفي المجرى تلع الجواهر واليواقيت المختلفة . وشاهدنا عينا تسيل
بالمنبر الطبيعي يخرج من بين الصخور ، ويسيل بتأثير حرارة الشمس
على امتداد الساحل ، وإذا ما غابت الشمس تجمدت مثل الشمع .

وهذا المنبر إذا ما سال تمبق منه رائحة ذكية ، تنتشر في أرجاء
الوادي وقد عرفت فيما بعد أن ما سال من هذا المنبر نحو البحر ، تخرج
حيوانات بحرية فتبتلع منه ، وتعود إلى البحر ، فيحس في بطونها
فلفظته ثانيا ، فيتجمد على سطح الماء ، ويتغير لونه وأوصافه وأحواله ،
وتقفذه الأمواج إلى سواحل البحار فيأخذ السائحون والتجار
ويبيعونه .

ووجدنا من العود الصيني والقمارى صنوفا مختلفة ، وأنواعا جيدة
وكنا ننظر إلى ما نجد من اللآلى والجواهر واليواقيت نظرة احتقار
وازدراء ولم تبسم لها كما بسمننا لصناديق المؤن والأطعمة لأن هذه هي
التي ستمسك رفقنا ، وتقيم أودنا وتحفظ حياتنا .

ولذلك طفنا بالسهل ندوس بأرجلنا اللآلى ، التي لم يبهرننا لألوانها ،
ونظا بأقدامنا الأموال التي خرجنا نبي جمعها ، فاجدواها علينا في

هذا المكانِ النائي القفر . فإنَّ حَفَنَةَ حَبٍ أَقْعُ لَنَا ، وَقَبْضَةً كَلَّا
أَجْدَى عَلَيْنَا .

وكانَ هَمْنَا أَنْ نَجْمَعَ كُلَّ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَجْمِعَهُ مِنَ الطَّعَامِ . فَجَمَعْنَا كُلَّ
مَا كَانَ مِنْهُ عَلَى الشَّاطِئِ وَكُلَّ مَا تيسَّرَ لَنَا أَنْ نَنشَلَهُ مِنْ مَوْتِنَا الَّتِي
ابْتَلَعَ الْمَاءُ أَكْثَرَهَا وَصَرْنَا نَقْتَسِمُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ جِزْءًا صَغِيرًا يَمِينُنَا عَلَى
بَقَاءِ رَمَقِنَا وَحَفْظِ حَيَاتِنَا ، حَتَّى لَا تَمْرُضَ لِلْمَوْتِ إِذَا فَرِغَ زَادُنَا سَرِيعًا ،
قَبْلَ أَنْ يَقْبِضَ اللَّهُ لَنَا نَحْرَ جَا .

وَلَكِنْ مَا خَشِينَاهُ وَقَعْنَا فِيهِ بِأَسْرَعٍ مِمَّا قَدَّرْنَا ، قَدْ ظَلَّ رِفَاقِي
يَذْبُلُ عَوْدُهُمْ ، وَيَحْفُ مَاءُ الْحَيَاةِ مِنْهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرٍ ، وَكُلٌّ مِنْ مَاتَ
مِنْهُمْ نَفْسُهُ وَنَكَفَهُ فِي أَثْوَابٍ مِنَ التِّي يَقْذِفُهَا الْبَحْرُ ، وَتَقُومُ بِدَفْنِهِ ،
إِلَى أَنْ غَدَوْنَا نَقْرًا قَلِيلًا ، وَلَكِنْ هَذَا النَّفَرُ لَمْ يَسْلَمْ أَيْضًا فَقَدْ أَصَابَنَا
فَجَاءَةٌ مَرَضٌ أَحْسَسْنَا مِنْهُ آلامًا مَبْرَحَةً فِي بَطُونِنَا فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُ
أَحَدٌ غَيْرِي .

أَمَّا رِفَاقِي فَقَدْ مَاتُوا جَمِيعًا ، وَسَقَطُوا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ كَمَا يَسْقُطُ وَرَقُ
الشَّجَرِ الذَّائِلِ فِي فَصْلِ الْخَرِيفِ . قَقَمْتُ بِتَنْسِيلِهِمْ وَدَفْنِهِمْ ، وَأَنَا أَيْكِيهِمْ
وَأَرْثِيهِمْ - وَإِنْ كُنْتُ أُنْتَمِي مَصِيرَهُمْ .

فَقَدْ اسْتَرَحُوا وَدَفَنُوا ، أَمَّا أَنَا فَسَأَلَسِي الْعَذَابَ وَخَدِي وَقَدْ تَصِيرُ
جَسَدِي بَعْدَ ذَلِكَ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَالْجَوَارِحِ .

وَفَكَّرْتُ فِي أَنْ أَجْهَزَ لِنَفْسِي قَبْرًا ، أَرْقُدُ فِيهِ إِذَا مَا شَرْتُ بَعْضَنِي ،

وهكذا عضضتُ بنانَ النديم حيث لا ينفعُ الندم ، واستغرقني التفكيرُ حيث لا يُجدي التفكير .

رَفَعْتُ كَفِّي إِلَى السَّمَاءِ ، وَتَضَرَّعْتُ إِلَى اللَّهِ ، وَقُلْتُ : يَا إِلَهِي . لَقَدْ عَوَدَتْنِي الرَّحْمَةُ ، حِينَ ظَنَنْتُ أَنْ لَا رَحْمَةَ ، وَأُرْشَدَتْنِي إِلَى الْخُلَاصِ فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي أَقْنَنْتُ أَنْ فِيهَا الْهَلَاكُ ، فَلَا تَتَخَلَّ عَنِّي يَا رَبِّي وَأَعِنِّي عَلَى مَا فِيهِ نَجَاتِي .

وَكُنْتُ أَجْلِسُ وَالْمَاءُ أُمَامِي يَنْسَابُ فِي مَنحَدَرَاتِ الْجَبَلِ مِنْ فَوْقِ الرَوَابِي ، فَتُظْهِرُ أَحْيَانًا مَسَارِبَهُ فَوْقَ الصَّخُورِ وَتَنْسِبُ أَحْيَانًا بَيْنَ الْأَعْشَابِ أَوْ تَخْتَفِي بَيْنَ الْأَحْجَارِ ، فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا خَرِيرًا يَخْتَلِطُ بِخَفِيفِ الشَّجَرِ ، وَتَفْرِيدِ الطَّيْرِ ، فَتَسْمَعُ مُوسِيقَى الطَّبِيعَةِ فِي أَجْلِ الْحَانِهَا . وَكَانَ مَنَظَرُهُ جَمِيلًا جَدًّا يَسْحَرُ الْعْيُونَ وَيَأْخُذُ بِجَمَاعِعِ الْقُلُوبِ . وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَنَاطِرَ كَانَتْ قَدْ فَقَدَتْ قِيَمَتَهَا عِنْدِي ، فَلَمْ يَمُدَّ بِسُرْعَى نَظِيرِي جَمَالُ ، أَوْ يَحْرُكُ حَوَائِي مُوسِيقَى وَلَوْ كَانَتْ مِنَ السَّمَاءِ .

وَجَافَةٌ خَطَرُ يَبَالِي خَاطِرُ سَرِيعٍ عَجِيبٍ ، فَسَأَلْتُ نَفْسِي :

إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ مَاءُ هَذَا النَّهْرِ الْجَارِي الدَافِقُ بَيْنَ صَخُورِ الْجَبَلِ وَكُهُوفِهِ ؟ أَلَا بَدَأَ أَنْ يَسِيلَ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ وَلَا بَدَأَ أَنْ لَهْ نَهَائَةً وَمَصَبًّا .

اسْتَحْصَوْتُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ وَوَجَدْتُ فِيهَا خِيطَ الْأَمَلِ فَلَمَّا ذَا لَا أَلْقَى بِنَفْسِي فِي مَاءِ هَذَا النَّهْرِ فَيَحْمِلُنِي تِيَارُهُ إِلَى حَيْثُ يُسِيرُ ، فِيمَا نَجَاةٌ وَحَيَاةٌ وَإِمَامُوتٌ مَرِيحٌ يَكُونُ خَيْرًا مِنْ هَذَا الْإِنْتِظَارِ الْمَقِيتِ الْبَتِيسِ ، الَّذِي

لا أستطيعُ أن أَسْمِيهَ حياةً ولا أستطيعُ أن أَسْمِيهَ موتاً .
ولم أتوان لحظةً ، فنهضتُ من فوري ، وجمعتُ مقداراً من خشبِ
الثود الصبني والقمارى ، وشدتُ بمَقْصَا إلى بعضِ بحالٍ من حبالِ
المراكبِ المحطمةِ ثم جثتُ بألواجٍ من خشبِ هذه المراكبِ وسويتُها
من فوقه وكونتُ من هذا كله قارباً صغيراً .

ولم تقلعُ نفسي عن غيِّها ، ولم تنسَ حبَّها للجواهر واللائي والنهبِ
والفضة ؛ فلما رأيتُ قارباً منسياً لم أرضَ أن أَخْرِجَ به فارغاً فجمعتُ
من كنوزِ الجزيرة ما يستطيعُ أن يحمله ، وأخذتُ ما كان باقياً من الزادِ ،
وأترلتُ القاربَ إلى النهرِ ، ووضعتُ كل هذا فيه ، وجمعتُ له خشبتينِ
على جنبيه كأنهما مجدافان .

ركبتُ فى القاربِ وسرتُ به مع تيارِ هذا النهرِ ، وما زالَ التيارُ
يدفعُهُ حتى دخلَ بى تحتَ الجبلِ فوجدتُ نفسي فى ظلمةٍ شديدةٍ ،
لم أكُ أدبِّينُ فيها ما أمامي وأخذَ الجبلُ يضيقُ حولَ القاربِ شيئاً
فشيئاً ، حتى لَامَسْتُ صُخُورَهُ جوارِبُهُ فاستعذتُ بالله ، وقلتُ لنفسى :
ما العملُ إذا ما ضاقتْ بى الجبلُ عن ذلك وحشرَ القاربُ بين صُخُورِهِ ،
فلا أنا بمسْطِيعِ العودةِ به ، ولا أنا بمسْطِيعِ تسييره .

واحلولكَ الظلامُ من حولي ؛ وأصبحتُ فى ليلٍ دامسٍ ، لا يبرُهُ
شعاعٌ من ضوءٍ ولا بصيصٌ من أملٍ ؛ وشعرتُ أن سقفاً من فوقِ قد
اختكَّ برأسي فانطرحْتُ على وجهي فوقَ القاربِ ، وقد تبدَّدَ مني

ما أُمِّلْتُهُ فِي النِّجَاجَةِ ، وَمَا تَخَيَّلْتُهُ مِنْ احْتِمَالِ الْخِلَاصِ ، وَظَلَلْتُ مُنْبَطِحاً عَلَى وَجْهِ فَوْقَ الْقَارِبِ وَأَغْمَضْتُ عَيْنِي ، وَأَحْطَتُ وَجْهِي بِذِرَاعِي ، وَاسْتَسَلَّمْتُ وَأَخَذْتُ التِّيَّارَ يَدْفَعُ الْقَارِبَ هُنَا وَهَنَّاكَ . فَتَارَةً يَسِيرُ وَتَارَةً يَرْتَعِلُ فِي صَخْرَةٍ فْتَمَوْقُهُ عَنِ السَّيْرِ أَحْيَانًا ، ثُمَّ يُورِجُهُ التِّيَّارُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِنَ الصَّخْرَةِ ، وَيَسْتَأْنِفَ مَسِيرَةَ التِّيَّارِ .

وبعد وقتٍ لَا أَدْرِي طَوْلَهُ ، شَعَرْتُ أَنَّ التَّهْرَ قَدْ بَدَأَ يَتَسَّعُ مِنْ حَوْلِ الْقَارِبِ . وَأَنَّ سَقْفَ ذَلِكَ السَّرْدَابِ قَدْ بَدَأَ يَرْقَعُ مِنْ فَوْقِ . فَدَاعَبَنِي الْأَمَلُ مِنْ جَدِيدٍ ، وَلَكِنَّهُ مَا ابْتَدَأَ أَنْ تَرَكْنِي وَطَاوَدَنِي يَأْسُ مِنَ النِّجَاجِ لَمْ يَدْعُ لِلْأَمَلِ جَلَالًا ، فَقَدْ أَحْسَسْتُ فَجَاءَةً أَنَّ الْكَهْفَ قَدْ صَاقَ وَصَاقَ وَأَنَّ السَّقْفَ قَدْ انْخَفَضَ حَتَّى أَوْشَكَ أَنْ يَلَامِسَ الْمَاءَ . وَأَنَّ الظَّلَامَ قَدْ اشْتَدَّ قَتْلَانِي قُنُوطٍ شَدِيدٍ وَيَأْسٍ مُرْبِرٍ وَأَيَقَنْتُ أَنَّ فِي هَذِهِ الْمَغَاوِرِ ، وَفِي هَذَا الظَّلَامِ سَتَكُونُ نَهَائِي ، فَمَدْتُ إِلَى قَاعِ الْقَارِبِ ، وَاسْتَلْقَيْتُ مُسْتَيْسِسًا وَاسْتَسَلَّمْتُ لِرَحْمَةِ الْأَقْدَارِ .

وَلَا أَدْرِي مَا مَرَّ عَلَيَّ وَأَنَا عَلَى هَذَا الْحَالِ ، فَقَدْ ظَلَلْتُ هَكَذَا لَا أَعْرِفُ لَيْلِي مِنْ نَهَارِي ، يَضِيقُ بِي التَّهْرُ تَارَةً وَيَنْفَرِجُ أُخْرَى وَمَا أَدْرِي أَكَانَ الَّذِي غَشِيَنِي هُوَ انْغَمَاءٌ طَوِيلٌ ، أَوْ أَنَّهُ قَدْ غَلَبَنِي النَّوْمُ فَمَا انْتَبَهْتُ بَعْدَ ذَلِكَ وَفَتَحْتُ عَيْنِي حَتَّى غَشَاها ضَوْؤُ الشَّمْسِ السَّاطِعُ الْمُنِيرُ ، وَتَبَيَّنْتُ أَنِّي فِي فِضَاءٍ فُسِيحٍ أَرْضُهُ خَضِرَاءُ وَسَقْفُهُ زُرْقَةُ السَّمَاءِ ، فَتَوَلَّيْتُ ذَهُولًا خَرَجْتُ مِنْهُ إِلَى عَجَبٍ وَاسْتَرْهَابٍ ، وَسَأَلْتُ نَفْسِي أَفِي

حلم أنا أم في يقظة ، أفي حقيقة أنا أم في خيال .

وأخيراً رفعت رأسي لأتثبت مما أنا فيه ، فوجدت القارب قد شُدَّ إلى وتدٍ بجانب ضفة النهر الذي كان ينساب ربيعاً ملتوياً كالأضواء في وسط الأرض المشوشة بالخضرة النضرة ، ورأيت جماعة من الناس قد التفتوا حول القارب وغيروهم جميعاً شاخصة إلى ، فذرت بسبي فيهم أتاملهم ، فبدوا لي كأنهم خليط من هنود وحبش فلما رأوني هكذا وقد أفتت من غشيتي واسترددت وعي ، تقدموا مني وخطبوني ولكني لم أققه من خطابهم شيئاً ، فقد كلموني بلغة لا أفهمها ، ولم أجد منها حرفاً فرجع لدى أنني حقيقة في خيال لا في حقيقة ، وأن ما أنا فيه ليس إلا أضغاث أحلام . وهو أجس هجست في نفسي لهُول ما تكبدته من ضيقٍ وشدّة .

ولكني أبصرت رجلاً يشق هذا الجمع ، ويقبل على ، فلما وصل إلى مال على وقال لي بلسان عربي مبين (السلام عليكم يا أخانا) . فرددت عليه التحية بأحسن منها .

ثم ابتدرني سائلاً :

مَنْ تكون ؟ ومن أين جئت من خلف هذا الجبل ، فما علمنا أن هناك طريقاً يسلك إلينا ؟ !

فسرّيت عن نفسي ، وحاولت التهوض ، فأما نبي الرجل على ذلك ، حتى أجلسني فقلت :

من تَكُونُونَ أَنتُمْ؟ وَأَيُّ أَرْضٍ هَذِهِ؟

فَقَالَ يَا أَخِي نَحْنُ أَصْحَابُ هَذِهِ الْأَرْضِ وَالْحَقُولِ ، وَقَدْ جِئْنَا لِنَسْقِي زُرَاعَاتِنَا فَوَجَدْنَاكَ نَائِمًا فِي الْقَارِبِ وَهُوَ يَنْسَابُ مَعَ تِيَارِ النَّهْرِ ، فَأَمْسَكْنَاهُ ، وَرَبَطْنَاهُ ، وَبَقَيْنَا نَنْتَظِرُكَ حَتَّى اسْتَيْقَظْتَ ، فَأَخْبَرْنَا مَا شَأْنُكَ ؟

دَرْتُ بَعْنِي فِيمَا حَوْلِي ، فَوَجَدْتُ الْجَبَلَ الشَّامِعَ مِنْ خَلْفِي ، وَمَاءَ النَّهْرِ يَنْحَدِرُ مِنْ بَيْنِ صُخُورِهِ وَيَنْسَابُ فِي مُنْحَدَرَاتِهِ ، فَعَرَفْتُ أَنَّنِي فِي يَقْظَةٍ ، وَأَنْنِي حَقَاقِدُ نَجْوَتْ مِنْ غِيَابِ الْجَبَلِ وَأَتَقَيْذْتُ مِنَ الْمَوْتِ الَّذِي كَانَ مِنِّي قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى .

فَحَمَدْتُ اللَّهَ كَثِيرًا وَشَكَرْتُ لَهُ مَا أَوْلَانِي مِنْ رَحْمَةٍ وَرِعَايَةٍ ، وَالتَفْتُ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي خَاطَبَنِي ، وَقُلْتُ لَهُ :

بِاللَّهِ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِي ، إِنَّنِي بَشِيءٌ مِنَ الطَّعَامِ أَوَّلًا ، فَإِنِّي جَوْهَانٌ ، وَتَكَادُ أَحْشَائِي يَا كُلُّ بَعْضُهَا بَعْضًا ، ثُمَّ اسْأَلْنِي بَعْدَ ذَلِكَ عَمَّا تُرِيدُ .

فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ ، وَأَتَانِي بِطَعَامٍ ، وَسَاعَدَنِي هُوَ وَإِخْوَانُهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْقَارِبِ إِلَى شَاطِئِ النَّهْرِ ، فَجَلَسْتُ عَلَى الْعُشْبِ الْخَضِرِ ، وَأَكَلْتُ حَتَّى شَبِعْتُ ، وَشَرَبْتُ حَتَّى ارْتَوَيْتُ ، وَهُوَ لَاءُ الرِّجَالِ مِنْ حَوْلِي ، يَحْيَوْنِي بِالْإِشَارَةِ حِينًا ، وَبِالنَّظَرَةِ أُخْيَانًا .

وَمَا لَبِثْتُ أَنْ أَحْسَسْتُ أَنْ نَسِيمَ الْحَيَاةِ بَدَأَ يَسْرِي إِلَيَّ خَفِيفًا

لطيفا ، وأن برد الراحة سرى في جسدي ، فسكن روعي ، واطمأنت نفسي ، وأخبرت الناس بقصتي المجيبة وصورت لهم ما لا يثبت من أهوال وما تكبدته من ضيق النهر تحت الجبل وحلوكة غلامه .

وكان بعض الرجال الذين عثروا على النهر ، والتفوا حولى ، يفهم المريّة وبعضهم الآخر لا يفهمها ، فطالب بعضهم بعضا بكلام لم أفهمه ، ثم قال لى أحد الذين يتكلمون العربية :

لقد استقر رأينا على أن نأخذك معنا إلى مدينتنا ، ونعرض أمرك على حاكم المدينة .

قللت لهم : لكم ما ترون ، فافعلوا ما شئتم .

فاصطحبوني معهم ، وتماونوا جميعا على حمل القارب بما فيه من مال وجواهر وذهبنا إلى مدينتهم .

وهذه المدينة هى أكبر مدُن جزيرة سرنديب .

وجزيرة سرنديب تقع جنوبى الهند ، ويمر بها خط الاستواء : ساعات ليلا اثنتا عشرة ساعة ، وساعات نهارها اثنتا عشرة ساعة ؛ فالليل والنهار فيها متساويان دائما . وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخا ، وعرضها ثلاثون فرسخا ؛ وتمتد على جانبيها سلسلة من الجبال العالية ، تحصران بينهما واديا خصبا .

وفى جبال هذه الجزيرة أنواع كثيرة من الأحجار الكريمة ، والمعادن النفيسة .

وتنبت في سفوح الجبال ، وفي أرض الوادي أشجار كثيرة ، يؤخذ من عيدانها وأوراقها وأزهارها وأثمارها — أنواع من البهار ، ينقله التجار معهم إلى بلادنا ، ويتخذون منه سلعة رائجة ، تُدر عليهم ربحاً كبيراً .

ورأيت في هذه البلاد الأفيال الضخمة ، التي يستخدمها أهلها في الركوب ، وجرّ العجلات ، وحمل الأثقال ؛ وغير ذلك من الأعمال التي نستخدم نحن فيها الخيل والبغال والحمير .

ولحاكم المدينة فيل أبيض ، ، إذا أراد ركوبه ألبسوه الحرير الأبيض المحلى بالخيط الكثيرة المصنوعة من الذهب والفضة ، وعلقوا في رقبته وبين عينيه وحول أذنيه وعلى ناييه قطعاً ثمينة من الأحجار الكريمة .

وإذا خرج الملك في موكبِهِ سار خلفه الوزراء والأمراء .
وإذا أهلت طلعتة على فرد من أفراد رعيته خرواً ساجداً ، تعظيماً للملك ، وتمجيداً له .

وأدخلني رفاقي على حاكم المدينة وأخبروه بقصتي ، فرحب بي وكان يعرف المريّة ، وبأدلى التحية ، ثم استفهم عن أمري فشرحت له ما جرى من البداية إلى النهاية ، فعجب لذلك أشدّ العجب ، وهنأني على سلامتي ونجاتي .

وبعد أن قضيت في مجلسه بعض الوقت استأذنته وخرجت إلى حيث القارب وانتقيت منه شيئاً من أقسّ الجواهر ، ثم عدت وقدمته



هديةً إليه ، فتقبلها منى شاكراً ، وأكرم منى وأزلى من نفسه منزلةً طيبةً ، وأفرد لى مكاناً فى قصره .

وأقمتُ عندَ الحاكمِ مدةً من الزمانِ ، وخالطتُ عليه القومَ ، والمترددِينَ على القصرِ من أهلِ المدينة ، والوافدين عليها ، وكلُّ من عرفَ أنى غريب ، أو سمعَ بطرفٍ من قصتى — يأتينى ، ويطلبُ منى أن أقصَّ عليه ما رأيته وشاهدته فأقصه عليه .

وفى ذات يوم كنتُ جالساً فى مجلسِ الحاكمِ فسألتنى عن بلادى وعن أهلها ، ونظامِ الحكمِ ، وحالِ الناسِ الاجتماعية ، وطرقِ معاشهم ، وصليتهم بالحاكمِ ، ومقدارِ حجتهم له أو بنقضهم لآثامه . وغير ذلك .

فوصفتُ له بعداد وعظمتها ، وما هى عليه من الفخامة والأبهة ، فهى كثيرةُ الدور والقصور ، حاضرةُ الممالك الإسلامية كلها ، فيها خليفةٌ يسهرُ على شئونِ رعيتِهِ ، ويقضى بينهم بالعدلِ ، فينتصفُ للمظلومِ من الظالمِ ، ويحمى الضعيفَ من القوى ، ويحفظُ مالَ اليتيمِ ، ويعطفُ على المسكينِ ، ويفرجُ كربةَ المكروبِ ، ويُنِيتُ البائسَ الملهوفَ .

يحبُّ العلمَ والعلماءَ ، ويتذوقُ الأدبَ ويقدرُ الأدباءَ ، يُفسيحُ لهم فى مجلسِهِ ، وهو يناقشهم ويناقشونه ، ويسمعُ منهم ويسمعونَ منه .

يجلسُ للوعاظِ ، وينصحوه ، فيبكيه نصيحهم ، وتسيل دموعه .

له وزراءٌ خيرونَ بشئونِ السياسةِ وتديرُ الملكَ .

وله ولايةٌ وقضاةٌ مُنصفونَ عادلونَ .

والشعبُ في يسرٍ ورخاءٍ . ليس فيه الفقيرُ المعدمُ ، وليس فيه الغنى الواسعُ الثراء ؛ لا يهتمُّهم جمعُ المالِ وكثرتهُ ، ويكفيهم أن يعيشوا هاتين راضينَ مطمئنينَ على أنفسهم وعلى دينهم . .

فليس عجباً ، إذن ، أن يعلّقَ الشعبُ به ، وأن تلتفّ القلوبُ حوله ، وأن يحبّه الناسُ ، ويُنزّلوه منهم منزلةَ الوالدِ العطوفِ الشفيقِ ، وأن تنطلقَ ألسنةُ الشعراءِ بمدحه ، وألسنةُ رجالِ الدين بالدعاء له .

وما زلتُ أحدثُ الحاكمَ ، وأطيلُ في الحديثِ ، وشجّعني على ذلك أنه كان يُصنّي إلى إصغائه شديداً ، ويسمعُ وكأنه يسمعُ حديثاً عجيباً ، وما كدتُ أنتهي من ذلك الحديثِ الطويلِ ، حتى بدا عليه الارتياحُ لمّا وصفتُ من سياسةِ الحاكمِ ، وحُسنِ تدبيره ، وجميلِ صلّتهِ برجالِ دولته ، وبالعامةِ والخاصةِ من رعيتهِ ، فقال :

والله إن حاكمكم يسيرُ وفق منبجِ عقليّ حكيمٍ ، وتدبيرِ قويمٍ ، وقد عَزَمْتُ على إعدادِ هديةٍ له ، تمثّرُ عن تقديري لمكاتبتهِ ، وإعجابي بسياستهِ تحملها إليه معكَ عند ما تيسرُ لك السفرُ .

فقلتُ : سمعاً وطاعة يا مولانا ، سأحملها إليه بإذنِ الله ، وأخبره أنك محبُّ له ، معجبٌ به .

ومرت الأيامُ بعد ذلك تبعاً ، إلى أن بلغتني يوماً أن جماعةً من أهل المدينة قد جهزُوا مركباً للسفرِ ، وأعدّوه إعداداً حسناً ، وأنهم ينوون التجوّلَ به حتى نواحي البصرة ، فأسرعتُ من فوري إلى الملكِ ، وأعلمته

بأمر هذا المركب ، وبسطت له رغبتي في السفر معهم . فقال لي :
لك ما تشاء ؛ إن أقت معنا ، أقت أهلاً ، ونزلت سهلاً ؛ وإن
أردت السفر فالأمن من رفاقك ، واليمن في ركابك ، والسلامة تظلك
والعافية في جسيمك .

فقلت له : يا مولانا لقد غمرتني بمروفتك ، وأسرتني بإحسانك ، وما
كنت لأجد خيراً منك بديلاً ، ولكنني اشتقت لأوطاني وبلادي ،
وتأقت نفسي لرؤية أهلي وأصحابي ؛ ولولا أن من الوفاء أن يحن الغريب
إلى وطنه ، وينشوق إلى أصحابه وأهله — لآثرت البقاء في رحابكم ،
والمقام في ظلكم .

فقال : تلك صفة طيبة ، ما اتصف بها أهل وطن إلا عزوا ، وحب
الوطن إيمان في القلب ، والإنسان الذي يستحق أن يعيش هو الذي
يحمل وطنه أغلى عنده من كل شيء حتى نفسه .

ثم أحضر أصحاب المركب ، والتجار المسافرين ، وأوصاهم بي خيراً ،
ودفع لهم عن أجره المركب ، ثم وهب لي هبة سنية ، وأرسل معي هدية
عظيمة إلى حاكم بغداد كما وعد من قبل .

وودعت الملك ، وجميع أصحابي الذين تعرفت بهم هناك ، وركبت
المركب ، وسرنا على بركة الله مبتلين إليه أن يلفنا مرامنا ، ونصل إلى
ما نبني سالمين .

وكان ربان المركب شجاعاً ماهراً ، عالماً بشئون البحر ، حارفاً

بجَوَافِهِ ، فَذَارَ بَنًا مِنْ بَحْرٍ إِلَى بَحْرٍ ، وَاتَّقَلَ بَنًا مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ .
 حَتَّى وَصَلْنَا بِمَوْنِهِ تَمَالَى إِلَى الْبَصْرَةِ ، فَوَدَّعْتُ أَهْلَ الْمَرْكَبِ ، وَشَكَرْتُهُمْ
 عَلَى مُرُورِهِمْ وَحُسْنِ مَعَامِلَتِهِمْ لِيَّائِي ؛ وَتَزَلْتُ إِلَى الْمِنَاءِ وَمَعِيَ أَهْمَالِي .
 وَأَقَمْتُ بِالْبَصْرَةِ بَعْضَ الْوَقْتِ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى بَغْدَادَ ، وَتَوَجَّهْتُ إِلَى قَصْرِ
 الْخَلِيفَةِ ، وَقَدَّمْتُ لَهُ هَدِيَّةَ حَاكِمِ الْمَدِينَةِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا ؛ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ
 قِصَّتِي مَعَهُ بِمَجْلَةٍ مِنْ غَيْرِ تَقْصِيلٍ .

وَذَهَبْتُ إِلَى مَنْزِلِي ، فَتَلَقَّانِي أَهْلِي وَأَحْبَابِي بِمَا لَا تَرِيدُ عَلَيْهِ مِنَ النِّبَاطَةِ
 وَالشُّرُورِ ، وَفَرِحُوا بِوُدَّتِي فَرَحًا أَنْسَانِي كُلَّ مَا تَرَى عَلَى مِنْ شِدَائِدِ .
 وَخَزَنْتُ أَمْوَالِي وَأَمْتَعْتِي بِمَدَّ أَنْ أَخْرَجْتُ مِنْهَا جِزَاءً كَبِيرًا ، خَصَصْتُهُ
 لِلْأَرَامِلِ وَالْأَيْتَامِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَأَقَمْتُ الْوَلَايَمَ ، وَنَحَرْتُ الذَّبَائِمَ
 لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَحْتَاجِينَ .

وَبَعْدَ أَيَّامٍ أُرْسِلَ إِلَيَّ الْخَلِيفَةُ رَسُولًا يَسْتَدْعِينِي . فَذَهَبْتُ مِنْ
 فَوْرِي إِلَيْهِ ، فَسَأَلَنِي عَنْ سَبَبِ هَذِهِ الْهَدِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَحْضَرْتُهَا لَهُ مِنْ
 حَاكِمِ تِلْكَ الْبِلَادِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا ، وَعَنْ الطَّرِيقِ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَعَنْ
 تَقْصِيلِ مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَعَنْ سَبَبِ زُرُؤِي هُنَاكَ .

فَقُلْتُ لَهُ : وَاللَّهِ ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا أَعْرِفُ لِلْمَدِينَةِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا
 طَرِيقًا . وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ غَرَقِ الْمَرْكَبِ بِحَوَارِ الْجَبَلِ ، وَكَيْفِيَّةِ
 وَصُولِي إِلَى تِلْكَ الْمَدِينَةِ الَّتِي أُرْسِلَ إِلَيْهَا حَاكِمًا هَذِهِ الْهَدِيَّةَ عِنْدَمَا
 أَخْبَرْتُهُ بِأَحْوَالِ بِلَادِنَا ، وَأَسْبَابِ رَقَبَتِهَا ، بِفَضْلِ حِكْمَةِ خَلِيفَتِنَا ،

وعدله ، وحسن تديره ، وإخلاص وزرائه وولاته وقواده وقضاته
له ، وحبهم إياه ، وجيل تعاؤنهم معه .

فسرّ الخليفة منى ، وأثنى على ، وأكرمى ؛ وأمر المؤرخين
بتدوين قصتي وحفظها في خزائنه ، ليطلع عليها كل من رغب في
ذلك من أهل زمانه ، ومن يحيئون بعمده .

وأقمت في بغداد رَدْحاً من الزمن ، عدت فيه إلى سيرتي الأولى
من الركُون إلى الراحة ، والتمتج بكل أسباب السرور ، في حدود
ما أحلّ الله لنا .

وغداً إن شاء الله أحدثكم كيف كانت سفرتي السابعة ، وما رأيته
فيها من العجائب والغرائب .

وأمر السندباد البحري للسندباد الجمال بمائة مثقال من الذهب ،
فأخذها وانصرف ، بعد أن تناولَ عشاءه مع السندباد البحري
وأستجاب .

وفي الغد بكر السندباد الجمال بالحضور إلى دار السندباد البحري ،
ولما اكتملَ عقدُ الأصحاب ، وتناولوا غذاءهم — التفتوا حول السندباد
الرحالة ، الذي ابتدأهم فقال :



السفرة السابعة

اتنظم عقدُ الاجتماع في هذا اليوم على عادة الإخوان ، وتحدث السندباد البحري فقال : يا إخواني ، كلما سكنتُ إلى الراحة والهدوء ، واطمأننتُ إلى حياةٍ وادعة ، وعيشةٍ راضية — تأقتُ نفسي ثانياً إلى العمل ، واشتأقتُ إلى التجوال ، وأعني من ذَاكرتي ما كبذنته من مشاق ، ولاقيته من متاعبٍ وأهوالٍ . وكلما حاولَ أقاربي وأصدقائي أن ينصَحُونِي بالإخلادِ إلى الراحة . والركونِ إلى الهدوء والسكينة في ظلِّ ذلك النسيم الواسعِ الرخيص ، وقضاء ما تبقى لي من عُمرِي في وطني ، متوفرّاً على تربية أولادِي ، ورعاية شئون من تَلَزَمَنِي رعاية شئونهم من أهلي — كلما حاولوا ذلك ، وتوسلوا إليّ بمختلفِ الوسائل — نفرتُ

منهم، وَصَمَّتْ أُذُنِي عَنِ الاسْتِمَاعِ لَهُمْ، وَأَعْرَضْتُ عَنْهُمْ إِعْرَاضًا شَدِيدًا. وَصَحَّ عَزَمِي عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى الرِّحْلَةِ السَّابِعَةِ، فَهَيَّأْتُ لَهَا مَا هَيَّأْتُ مِنْ تِجَارَةٍ وَأَسْبَابٍ، ثُمَّ جَلَّيْتُهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، وَهَنَّاكَ وَجَدْتُ مَرْكَبًا عَلَى أَهْبَةِ السَّفَرِ، وَفِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبَارِ التِّجَارِ، فَزَلْتُ مَعَهُمْ، وَاسْتَأْنَسْتُ بِهِمْ. وَفِي الْيَوْمِ نَفَسَ بِنَا الْبَحْرَ بَنَا الْمَرْكَبِ، وَكَلْنَا قَرَحُونَ مُسْتَبْشِرُونَ، مَوْقِنُونَ أَنَّا سَنَجْنِي رَيْحًا كَثِيرًا، وَمُؤْمِنُونَ أَنَّا سَنَمُودُ إِلَى بِلَادِ نَاسِ الْمَدِينِ غَائِبِينَ. وَصَفَا لَنَا الْجَوُّ، وَطَابَتْ لَنَا الرِّيحُ فَسَارَتْ رِخَاءً، وَتَيَسَّرَتْ لَنَا السَّبِيلُ فَخَضْنَا الْبَحَارَ، وَطَفْنَا بِمَاءِ الْأَقَالِيمِ نَبِيعُ وَنَشْتَرِي، وَتَعَمَّضُ، فِي كُلِّ مَا نَعْرِضُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَدِينِ وَالْمَوَانِي، وَقَدْ أَصْبْنَا رِيحًا وَفِيرًا. وَكَلَّمَا زَادَ رَيْحُنَا، أَمَعْنَا فِي التَّوْغَلِ فِي الْبَحَارِ، وَقَضْنَا بِأَقْسِنَا فِي بَحَارٍ لَمْ نَخْضُهَا مِنْ قَبْلُ، وَوَقَفْنَا عَلَى بِلَادٍ لَيْسَ لَنَا بِهَا عَهْدٌ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا أَهْلُهَا، يَأْخُذُونَ مِنَّا وَنَأْخُذُ مِنْهُمْ.

وَمَا زَلْنَا نَطُوفُ وَنَطُوفُ، حَتَّى جَاوَزْنَا بَحْرَ الصِّينِ.

وَبَيْنَمَا نَحْنُ التِّجَارَ وَالرَّكَابَ جَالِسُونَ عَلَى ظَهْرِ الْمَرْكَبِ ذَاتَ يَوْمٍ تَحَدَّثْتُ وَنَسَمَرْتُ، وَيَقُصُّ كُلُّ مَنْ مَعَهُ مِنْ الْقَصَصِ، وَيَحْكِي مَا لَدَيْهِ مِنْ نَوَادِرٍ وَمُتَلَجٍّ، وَيَسْرُدُّ مَا لَقِيَهِ مِنْ حَوَادِثَ، وَمَا لَاقَاهُ مِنْ أَحْدَاثٍ — إِذْ بَرِحَ صَرَصِيرٌ عَاتِيَةٌ، عَصَفَتْ فَجْأَةً، فَاعْتَكَرَ الْجَوُّ، وَاعْبَرُ الْأَفْقُ وَثَارَ الْبَحْرُ، وَعَلَتْ الْأَمْوَاجُ كَالْجِبَالِ، وَصَارَ الْمَرْكَبُ بَيْنَهَا كَكُرَةٍ صَغِيرَةٍ، تَقْدِفُهَا مَوْجَةٌ تَدْقَعُهَا أُخْرَى.

ثم لم تلبث أبوابُ السماء أن انفتحت ، وانصبَّت الأمطارُ انصباباً هائلاً أخذَ يشتدُّ ويشتدُّ ، فأحسَّنا أن الدنيا قد قامت قيامتها : فانشقت السماء ، وفجرت البحارُ ، ففاض الماء ، وعصفَ الهواء ، وقرصنا البردُ ، وغضبت الطبيعةُ ، فلا تسمعُ إلا زفيراً وضجيجاً ، ولا ترى إلا هولاً من ورائه هولٌ ، فكاد النُهول أن يصيبنا ، وشغلنا جميعاً عن أنفسنا ، ومما أصابنا ، وأسرعنا ، مع ما نحنُ عليه من فزعٍ ، إلى بضاعتنا فقطيناهما حتى لا يفسدَها الماء ، وابتلنا إلى الله أن يكشفَ عنا هذه الغمة ، ويُزيل تلك المحنة .

وبدأ أن الریان قد التبسَ عليه الأمرُ ، وغمَّ عليه الطريقُ وسط هذه الأنواء الشديدة ؛ فقد رأيناه مخفَّفٌ من ملابسه بسرعة ، ونشبَّتْ بمودِ الصارى ، ويمتليه بسرعة ؛ حتى إذا ما بلغَ أعلاه أخذَ يتطلعُ إلى الأفقِ عنةً وسرّةً ، ويحاولُ أن يستكشفَ الطريقَ ، وتطلعت عيوننا جميعاً إليه ، وتعلقتْ أنظارُنا به ، ترقب ما يُخبرُ به ، وما سيمليه من أوامر وإرشادات تنقذُنا ، وتأخذُ بيدنا مما نحنُ فيه .

ولكن خابَ أملنا ، وضاعَ رجاؤنا ، فقد رأينا الرئيسَ وقد أعاد نظره إلينا ، وعيناه تشيَّمان المأْ وحيرةً ، ثم جاءنا صوته متقطعاً حزيناً ، يقولُ :

ياركبابَ السفينة ، اطلبوا من الله تعالى النجاةَ بما وقَعنا فيه ، فقد غلبتنا الرياحُ على أمرنا ، وسأقت السفينةُ في غير طريقِ النجاةِ ؛ ونحن

الآن في مكانٍ مجهولٍ ، لم يطرُقهُ من قبلنا بحارٌ ، ويظهر أننا وصلنا الآن إلى آخر بحار الدنيا ، وهو البحرُ الذي إذا وصلَ إليه أحدٌ لا يخرجُ منه ، ولا تُكسَبُ له النجاةُ ؛ فارتوا أنفسكم ، وليودعْ بعضُكم بعضاً فإن الهلاكَ واقعٌ لا محالة ؛ وارضوا لأنفسكم بما قَدَّرَ اللهُ لكم .

وهبطَ الرَبانُ من فوقِ الصاري عابسَ الوجهِ ، أصفرَ اللونِ ، كثيباً حزيناً هموماً ، وأسرعَ إلى صُنْدُوقِ أُمْتِيتِه ، وفتحهُ ، وأخذَ منه كيساً ، أخرجَ منه تراباً مثلَ الرمادِ ، وبللَهُ بالماءِ ؛ وانتظر قليلاً ، ثم قَرَبَهُ من أنْفِه ، وشَمَّ رائحتهُ ، وتنفَّسَ نفساً عميقاً ؛ ثم أخرجَ من الصندوقِ كتاباً صغيراً وقرأ فيه ، ثم التفتَ إلينا وكنا جميعاً ملتفتين حوله ، ننظرُ ما يفعلُ ، وننتظرُ ما يأمرُ .

قال بصوتٍ متهدجٍ خائفٍ ، مضطربِ الثِّبراتِ :

اعلموا يا رفاقي ، أن في هذا الكتابِ أمرًا عجيباً يدلُّ على أن كلَّ من وصلَ إلى هذا المكانِ ، لا يتجو منه مُطلقاً ، بل يكون مصيرُهُ الهلاكَ ، فإن في هذا المكانِ إقليمًا يسمى إقليمُ الملوكِ ، وفيه قبرُ سيدنا سليمانَ بنِ داودَ ، عليهما السلامَ ، وفيه حِيتانٌ عظيمةٌ الخِلقةُ بشعةُ المنظرِ .

وكلُّ مركبٍ وصلَ إلى مياهِ هذا الإقليمِ تخرجُ إليه حِيتانٌ عظيمةٌ هائلةٌ ، ما رأى جواؤُ البحارِ مثيلاً لها ، فتَنقُضُ عليه وتبتلِّمُهُ بما فيه ، ومن فيه ، فلا تُبقي ولا تَدْرُ .

وما أتمَّ الرَبانُ كلامه ، الذي أنصتُنا إليه مدهوشين ذاهلين ، حتى

أخرجنا من دُهلنا تتابعُ لطماتِ الأمواجِ للسفينةِ ، وارتقاها ثم
انخفاضُها بسرعةٍ مُخيفةٍ ؛ وأعقبَ ذلك صوتٌ دَوَى في الفضاءِ
كالرعدِ القاصفِ ، أربعا ، وزلزلَ كيانتنا . وما كدنا نتنبه حتى
أبصرنا شيئا أسودَ هائلا ، كالجلجِلِ الرقيقِ ، يقبلُ على المركبِ ؛
فرفنا أنه أحدُ هذه الحيتانِ الضخمةِ ، التي كان يحدثنا عنها الربادُ
منذ لحظةٍ . فأيقنا أننا هالِكُون لا محالةَ ؛ وظلنا ننظرُ إليه وقد تملقت
عيوننا به ، ونحن نرتجفُ فرقا ورُعبا .

ثم ما كان أشد هولنا ، وأعظمَ فزعنا — حينما أبصرنا حوتا ثانياً ،
يفوق الأولَ ضخامةً وعُتواً ، قد أقبلَ نحونا يشقُّ الماءَ شقاً ، فرفنا ألا
أمل في نجاتنا ، وبكىنا أنفسنا وأخذ يودّعُ بعضنا بعضا .

وبينا نحنُ كذلك ، أظهِرنا حوتا ثالثاً كان أبشعَ من سابقيه
منظراً ، وأشدَّ ضراوةً ؛ فكدنا ننهلُ عن أنفسنا ، وغابت عقولنا .
وما دَرَيْنَا بمد ذلك إلا والمركبُ قد ارتفعَ وتعالى بنا فوقَ موجةٍ
عاليةٍ كالجلجِلِ الشامخِ ، سارت بنا وقتاً ما ، ثم قففتنا بشدةٍ على شِعبٍ
عظيمٍ من الصخورِ . فتحطمَ للمركبِ ، وتبعثت ألواحُه وغرقت حوْلُه ،
وتملّبت الأمواجُ الجائعةُ على مجاهدةِ الركابِ في سبيلِ النجاةِ ،
فأغرقتهم جميعاً .

وتشبّثُ أنا بلوحٍ من الخشبِ تشبّثَ المستميتُ ، وقبضتُ عليه
قبضةً قويةً ، رغمَ ما نالني وإيَّاهُ من الصدماتِ والقذفاتِ بين أشلاءِ
(١)

السفينة الفارقة ، وعلى أسنة الصخور المشرعة كالرمح :
وأخيراً استطعتُ أن أعتلي اللوحَ بعد أن كادتُ قواي تنحورُ ،
وتصيبني غشية من فرط التعب .
وانطرحتُ على اللوح ، وأنا لا أزالُ قابضاً على جوانبه ، بكنتُ
يديّ حتى لا يفلتَ من يدي لشدة ضرب الأمواج التي أخذتُ تتلقفني
باللوح واحدةً بعد أخرى .

ووسط هذه المفاجآتِ والمنعصاتِ ، وعلى متن الموتِ ، طاف ذهني ،
وسبحَ خيالي ، إلى ماضي القريبِ والبعيدِ .
كنتُ في وطني ، وبين أهلي وعشيرتي ، مستريحاً مطمئناً مسروراً ،
فكيف طاوَعْتُ نفسي هذه المطبوعة على التمرّدِ والطمع ، على تركِ نيمي
الذي كنتُ أرتعُ فيه ، سعيّاً وراءَ الربح والتجارة .

أأنا حقاً في حاجةٍ إلى مالٍ ، وأنا أعندِي منه ما لا أستطيعُ بفناء نصفه
أو ثلثه بقية صرّي ١٢ وإنّما هو جشعُ الإنسانِ ، وعدمُ قناعته ، هما
أوتى من نعيمِ الله . إن هذا هو الجزاءُ الوفاقُ ، فكم من مرة وقعتُ في
مثل هذه المآزقِ ، وتعلّكني الندمُ والجزعُ ، وابتلّيتُ إلى الله تائباً تائباً
ثم ما كادُ أذوقُ هدوءَ الراحةِ ، وأتقيأُ ظلالَ النعيمِ - حتى ألتصقُ
ما قلّسيتُ من شدائد ، ولقيتُ من أهوالٍ .

وهكذا صرّتْ ألوَمُ نفسي وأقرعُها ؛ ولكنّ الندمَ الآن لا يدفعُ
عني خطراً .

وقضيتُ ليلةً مَرَّةً بين الأمواج الصاخبةِ ، ذقتُ فيها من العذابِ
ألوانًا وأشكالًا . وفي اليومِ الثاني لاحتُ أُمَامِي أرضُ خضراءَ ، وكان
اللوْحُ الذي أنا عليه ينجذبُ بسرعةٍ عظيمةٍ نحوَها ، تدفعُهُ الأمواجُ الشديدةُ .
وما كدتُ أقربُ من الشاطئِ حتى جاءتُ موجةٌ شديدةٌ قويةٌ
حملتني في غيرِ هَوَادةٍ ، نحوَ الشاطئِ ، ثم أخذ الماءُ ينحسرُ عن المكانِ
الذي انتهيتُ إليه ، وكادَ يحملُنِي معه إلى الدَّاخلِ — فأُلقيتُ قسَى من
فوقِ اللوحِ ، وتشبَّثتُ بالطينِ ، وقاومتُ جَزَرَ الماءِ حتى انحسرَ عن
المكانِ ، وبقيتُ أنا على الأرضِ

زحفتُ قليلًا نحوَ الأرضِ ، ثم استلقيتُ عليها مُتهالِكًا لا حَرَكَ بِي .
وقضيتُ على هذه الحالِ وقتًا ليس بالقصيرِ ، حتى استرددتُ بعضَ قُوَّتِي ،
وعادَ إليَّ بعضُ نَشَاطِي ، فتحاملتُ على قسَى ، ووقفتُ على قدَمِي ، وسرتُ
أَسَى في الجزيرةِ أبحثُ عن شيءٍ أَشْكاهُ ، وأقتاتُ منه . فقد نالَ مِنِّي
الجوعُ منالًا عظيمًا ، وصاحتُ عَصَافِيرُ بطنِي .

لم أَمْشِ غيرَ بعيدٍ حتى رأيتُ الجزيرةَ عامرةً بالأشجارِ ، زَاخِرَةً
بالتَّامِ ، فيها الماءُ يجري جداولَ وأنهارًا ، فأكلتُ حتى امتلأتُ ،
وشربتُ حتى رويتُ ، فشعرتُ باتِّعاشٍ وقوةٍ ، وبديبِ الحَيَاةِ
يعودُ إليَّ . فشيتُ في الجزيرةِ أجوسُ خِلَالِهَا . فرأيتُ في جانبها
الآخرَ نَهْرًا عظيمًا سريعَ الجريانِ ، فتذكرتُ النهرَ الذي اندفعتُ مع
تيارِهِ في سفرَتِي السابقةِ ، والفلَكِ الذي صنَعتهُ وركبتُ فيه — وخطرَ

يالى أن أصنع لى فلكاً مثله ، أركبُ فيه ، وأتركه ينسابُ مع تيارِ هذا
النهر ، لعلهُ يحمِلُنِي إلى مكانٍ تكونُ فيه نجاتى . ولم أضعُ وقى فى
التفكير ، فسرعان ما جمعتُ الحشبُ وكان من خشبِ الصندل الثمين ،
وكنتُ لا أدركُ قيمته ، وقتلتُ من أليافِ بعضِ النباتاتِ والأغصانِ
حبالاً شدتُ فيها عيدانَ الصندلِ بمَضَمّا إلى بعضٍ ، حتى تَمَّ لى صنعُ
الفلكِ ، وأنزَلْتُهُ إلى الماء ، وحملتُ معى قليلاً من الفاكهةِ لعدائى ، ونزلتُ
فيه وأنا أرجو السلام من الله . وسرتُ فى النهرِ ثلاثَ ليالٍ سويّاً ،
ابتعدتُ فيها عن المكانِ المزدحمِ بالأشجارِ والأثمارِ ، ودخلتُ فى مكانٍ
يبدو قحلاً مَقْفِراً إلا من بعضِ الأعشابِ والحشائشِ الناميةِ على جانبيِ
النهر . وكان التعبُ قد أخذ مِنّى مأخذاً كبيراً ، فانطرحتُ على الفلكِ
أبنى النَوْمِ ، وقد أسلمتُ أمرى إلى الله ، فلم ألبثُ أن استغرقتُ فى
نومٍ عميق .

انتبهتُ من نومي ، فإذا أُمَامى جبلٌ عالٍ ، وماءُ النهرِ يجري داخل
ذلك الجبلِ وقد تذكرتُ ما قالسيته ، ودارتُ بخاطرى ما عانيتهُ فى سَفَرَتى
السابقةِ من مشاقِّ ، وما لاقيتُهُ من أخطارٍ ، فحاولتُ أن أَقِفَ اندفاعَ
الفلكِ مع التيارِ ، وبذلتُ كلَّ ما أستطيعُ بذله ، ولكنْ ذهبَ كلُّ
ذلك سُدًى ؛ فلم أستطيعُ وقفَ الفلكِ ، أو تغييرَ اتجاهِهِ ، وانقلتُ الفلكُ
مُتَدَفِّعاً مع تيارِ الماءِ القويِّ اندفاعاً شديداً ؛ وسرعان ما كنتُ أنا والفلكُ
تحتَ الجبلِ ؛ تحفُّ بنا جدرانُهُ ، ويكتنِفُنَا ظلامه ، فأسلمتُ أمرى إلى

الله ، فهو قادرٌ على أن يُنَجِّينِي ثانياً ، كما نَجَّاني أولاً .

وكان اللهُ بي رحباً ، فلم يسرِ الفلكُ إلا وقتاً يسيراً ، حتى بزغَ أُمَامِي نورُ الفجرِ ، في شكلِ فجوةٍ يسطعُ منها الضوءُ ، فيدُلُّ ليلَ الكهفِ ويخرجُ منها ماءُ النهرِ في تدفُّقٍ شديدٍ .

وبعد بُزْهةٍ كان الفلكُ مندفعاً بي في تيارِ ماءٍ سريعٍ منحدرٍ ، يحدثُ سرعةً انحداؤه خيراً مدوياً عالياً . ورأيتُ على جانبي النهرِ وادياً واسعاً تسطعُ فيه الشمسُ ، قشِبَتْ كلتا يدي بِجَانِبِي الفلكِ ، خوفاً من انقلاتي وسقوطي في الماءَ ؛ وظللتُ في محنتي هذه ، لا أستطيعُ إزاءَها عملاً ، ولا أملكُ مُجَاهَها حَوْلاً ولا قُوَّةً ، يلعبُ بي الماءُ ، وترنحُ بي الفلكُ ، وقد غَشَى رذاذُ الماءِ عَيْنِي ، وطنٌ دَوَّهٌ في أذني ؛ ثم شَعَرْتُ بشيءٍ يُلقَى على كالشباكِ ، ويلفني لفاً ؛ فحاولتُ فتحَ عَيْنِي لِأَتَبَيَّنَهُ وَأَقِفَ على حَقِيقَتِهِ ، فرأيتُ تَجَاهِي مدينةً كثيرةَ الدورِ ، جاليةَ القصورِ ؛ ورأيتُ على ضفةِ النهرِ خلقاً كثيراً ينظرونُ إليَّ ، ورأيتُ ما يلفني شباً كالشباكِ الصيدِ ، ألقي بها القومُ على لِيَجْذُبُونِي إِلَيْهِمْ ، لِمَا رَأَوْنِي مندفعاً مع انحدارِ النهرِ السريعِ . وأفلحَ القومُ في إقْناذِي ، وجذبُونِي بِشِبَاكِهِمْ إلى البرِّ ، ثم خلصُونِي مِنَ الشبَاكِ ، فسقطتُ بينهم شَيْبَةً مَيِّتَةً ، مِنْ كَثَرَةِ مَا قَاسَيْتُ مِنْ جُوعٍ وتعبٍ وخوفٍ .

وتقدمَ من بين الجماعةِ رجلٌ مُسنٌّ ، واقتربَ مِنِّي ، وممَّعْتُهُ وَأَنَا فِي شَيْبِهِ غَيُوبَةً ، يَرْحُبُ بِي ، وَلِشَجْعَتِي ، وخلَعَ عَنِّي بِمَعَاوَنَةِ بَعْضِ الْحَاضِرِينَ

ما كانَ باقيًا عليَّ من ملابسٍ مبلَّلةٍ ، وألبَسني ثيابًا أخرى . فشعرتُ
بالدفء ، ودبت الحرارةُ والحياةُ في أوصالي ؛ فشكَّرتُ للرحل ورفاقه
حُسْنَ صنيعهم ، وجميلَ إحسانهم ؛ فقد خلَّصوني من موتٍ محققٍ .

سألني بعضهم عن أمرى ، فأشارَ لهم الشيخُ أن يترشُّوا حتى أستجيعَ
قُوَّاي ، وأستردَّ نشاطي ، وأطمئنَّ إلى وجودي معهم ، وينشرح
صدرى لهم .

طلبَ إليَّ الشيخُ أن أصحِّبه ، قهضتُ ، وسرتُ معه معتيداً على أذرعِ
الرجالِ ممَّا بي من الإغْياء ؛ وما زلتُ سائرًا معهم حتى وصلتُ إلى الحتام ،
فأدخلوني فيه ، فاستحسنتُ وانتعشتُ ؛ واطمأننتُ ، وخرجتُ بعد ذلك
من الحتام بصحبةِ ذلك الشيخِ الكريمِ ، وذهبتُ معه إلى داره ؛ وهناك
أكرمَنِي هو وأهلُ بيته إكرامًا عظيمًا ، وأحلَّنِي من مجلسه محلًّا كريمًا ،
وهيأَ لي طعامًا فاخرًا شهيًا ، فأكلتُ حتى شبعْتُ وحمدتُ الله ، وشكَّرتُ
فضله ، وأفرد لي مضيبي مكانًا من داره أبيتُ فيه ، وأتمتعُ فيه بكاملِ
حريتي ، وألزمَ غلمانَه وجواريَه بخدمتي ، وقضاء حاجاتي ومصالحي ،
فكانوا يسارعون إلى ذلك ، ملبِّينَ أيَّ إشارةٍ تصدُر مني . وقضيتُ في
ضيافتهِ هذا الشيخِ الكريمِ بضعةَ أيامٍ ، استعدتُ فيها كاملَ قُوَّاتي
ونشاطي ، بفضلِ العنايةِ بي ، والرعايةِ التي كانَ يُحبوني بها .

ثم أتاني ذلك الشيخُ ذاتَ يومٍ وقالَ لي :

يا ولدي ، إننا لفي شدةِ السرور والفرح بنجاتِكَ وسلامَتِكَ ووجودِكَ

يَنَّا ؛ ولكن ، ألا تَنزِلُ مَعِيَ إِلَى السُّوقِ وَقَدْ عَاوَدْتُكَ عَافِيَتُكَ ، لَتَنْظُرَ
فِي أَمْرِ بَضَاعَتِكَ ۱۴

فَنَظَرْتُ إِلَى الشَّيْخِ ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْنِي الْحَيْرَةُ ، وَاسْتَوَلَى عَلَى الْعَجَبِ ،
وَلَمْ أَذِرْ ، مِنْ أَىْ بَضَاعَةٍ يَتَكَلَّمُ أَفَلَمْ رَأَى لَا أَحِيرُ جَوَابًا . قَالَ :
يَا وَلَدِي ، لَا تَهْتَمَّ وَلَا تَفَكَّرْ . هِيَ بِنَا إِلَى السُّوقِ فَإِنْ وَجَدْنَا مِنْ
يُدْفَعُ فِي بَضَاعَتِكَ شَيْئًا يُرْضِيكَ ، قَبَضْنَاهُ لَكَ ، وَإِنْ لَمْ نَجِدْ حَفَظْتُهَا لَكَ
فِي خَزَائِنِي ، حَتَّى تَحْمِلَ أَيَّامُ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ؛ فَإِنَّ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ عِنْدَنَا
مَوَاسِمَ خَاصَّةً ، يَرْضَى النَّاسُ فِيهَا سِلَعَهُمْ وَتِجَارَاتِهِمْ ، وَيَقْبَلُ الْخُرَفَاءُ
مِنْ هُنَا وَهَنَّا ، قُرُوجُ التِّجَارَاتِ ، وَتَزْدَحُمُ الْأَسْوَاقُ ، بِالْبَائِعِينَ وَالْمَشْتَرِينَ ؛
وَفِي غَيْرِ هَذِهِ الْمَوَاسِمِ تَكُونُ حَرَكَةُ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ عِنْدَنَا ضَعِيفَةً ، وَلَيْسَتْ
هَذِهِ الْأَيَّامُ مَوَاسِمَ التِّجَارِ .

ازداد عَجَبِي ، وَاسْتَدَّتْ حَيْرَتِي ، وَوَقَفْتُ مَدْمُوسًا ، لَا أَحِيرُ جَوَابًا ،
وَشَكَّيْتُ فِي أَنِّي نَجَوْتُ ، وَفِي أَنِّي فِي يَقْظَةٍ .

وَبَعْدَ تَرَدُّدٍ رَأَيْتُ أَنْ أَطَاوِعَ الشَّيْخَ ، وَأَنْ أُسَاطِرَهُ ، حَتَّى أَرَى
مَا سَيَكُونُ ، فَقُلْتُ لَهُ :

تَسْمَعُ وَطَاعَةٌ يَا سَيِّدِي ، كُلُّ مَا تُشِيرُ عَلَيَّ بِهِ طَيِّبٌ وَلَا أُسْتَطِيعُ
مُخَالَفَتَكَ فِيهِ .

وَتَوَجَّهْنَا مَعًا إِلَى السُّوقِ ، وَهَنَّا وَجَدْتُ الْفَلَكَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ ،
وَقَدْ مُكِّنَتْ أَلْوَاحَهُ وَعِيدَانَهُ ، وَهَيَّئْتُ عَلَى أَنْ تُعْرَضَ لِلْبَيْعِ .

وجاء منادٍ فصرخَ ينادي ويرضُ خشبَ الصندلِ وعيدانه في المزايدة ،
وهو خشبٌ ثمينٌ ، يُقدَّرُ قيمته أهلُ هذه البلادِ ، لأنه نادرُ الوجودِ
عندهم ، ويصُفُّ عليهم أن يستجليبوه من البلادِ التي يَنبُتُ فيها .
وتزايدَ التجارُ ، واثقوا في الثمنِ ، وتنافسوا في الحصولِ على
الخشبِ ، حتى زادَ الثمنُ على ألفِ دينارٍ . فتدثت التفتَ الشيخُ
إلى ، وقال :

اسمع يا ولدي ، هذا هو سِرُّ بضاعتِكَ في مثلِ هذه الأيامِ ، أنبيئها
بهذا الثمنِ ، أم أحفظها لكَ عندي حتى يَحِينَ أوانُ رواجِ سوقِها ،
وزيادةِ ثمنِها ، فتيبها لكَ ؟ .

قلت له : يا سيدي ، الأمرُ لكَ ، فافعلْ ما ترى .

قال : يا ولدي ، أتبيئني هذا الخشبَ بزيادةِ مائةِ دينارٍ ذهباً على
ما قدَّرَ التجارُ له من ثمنٍ ؟ .

قلت : نعم ، بئْتُ ، ولكَ شُكْرِي .

فقدتني الشيخُ الثمنَ جميعه ، ثم أمرَ غلمانه ، بنقلِ الخشبِ إلى
مخازِنِه . ولما عُدنا إلى منزله أحضر لي أكياساً ، مملأها بهذا المالِ ،
ووضعا في صندوقٍ ، أَقْلَه بِقُلٍّ من حَدِيدٍ ، ثم سلمني مفتاحه .

ومرتُ على بمنزِلِ هذا الشيخِ الطيّبِ أيامُ آخرَ ، أحلّني فيها أحسنَ
محلٍّ ، وأكرمَني أبلغَ إكرامٍ .

ولما طالتْ إقامتي ، واختلطتُ ببعضِ الناسِ من أهلِ المدينةِ ، وكان

من بينهم بعضُ أقارب الشيخ، عرفتُ أن الشيخَ عندهُ بنتٌ في سنِّ الزواج؛ وعرفتُ أنها مليحةٌ جميلةٌ، فرأى هيفاء، وأنها وحيدتهُ، فليسَ عندهُ أولادٌ سِواها؛ ولذلك يُمرِّها كلَّ الإغزازِ، ولا يفكرُ إلا في راحتها وإرضائها .

خلوتُ إلى نفسي يوماً، وأخذتُ أفكرُ في أمري، وطافَ بذهني أطرافٌ وخيالاتٌ كثيرةٌ، منها: أتى رأيتُ ذلك الأبَ الشيخَ يطفئُ على ويكرمني، فأحسستُ أن قلبي قريبٌ من قلبه، وأنَّ بينَ روحينا تألفاً شديداً .

أرخصتُ لنفسي العنانَ في التفكيرِ، فخطرَ ببالِي أن أفاتحَ الشيخَ في الزواجِ من ابنته التي ليسَ له أولادٌ سِواها، وإن أجازني الشيخُ إلى ذلك كنتُ جِدَّ سعيدٍ .

وكنتُ كلما خلوتُ إلى نفسي عاودتُ التفكيرُ في هذا الموضوعِ، وازدَدتُ تعلقاً به، حتى حَبِيتُ إلى العزلةِ، والاعتكافِ عن الناسِ، ليسبحَ خيالي في جَوْعٍ واسعٍ من الأمانِ والآمالِ التي أرتبها على هذا الزواجِ إذا تمَّ

لاحظتُ على الشيخِ وبعضُ من عرقيِّ من أقاربه ما أنا فيه من تفكيرٍ طويلٍ دائمٍ، ومن ميَلٍ إلى الانفرادِ بنفسِي، والفرارِ من الناسِ والمجتمعاتِ، فسألوني عما بي، فلم أجبهم بشيءٍ، وأنكرتُ أن في الأمرِ

شيتاً ؛ وقدروا أن هذا التفسير لم يكن إلا في التفكير في وطني وأولادي وأهلي .

وأراد أحد من صادقهم أن يعرف حقيقة الأمر ، فسألني ، وألح في السؤال ؛ فاضطرتُّ إلى أن أكشف له عما في نفسي ؛ فأعجبته ذلك ، ووعدني أن يتحدث إلى الشيخ في هذا الأمر .

تحدث ذلك الصديق إلى الشيخ في أمر تزويج ابنته من ذلك الرجل الغريب ، وأتي ذلك هو من نفس الشيخ ، وقبل أن يزوجه ابنته التي لم يُرزق غيرهما ، لم يجد حرجاً في أن يصرِّح بأن ذلك كان أمنية من أمانيه ، فإنه كان يرى أن فيه اطمئناناً على ابنته من بعده ، حيث يتركها بين يدي رجلٍ كريم أمينٍ مثلي . ثم قال لي : ستكونُ مثلاً وليدي ما دُمت حياً ، وجميع ما عندي ملكٌ لك ، وإذا رأيت في المستقبل أن تماود التجارة وتعود إلى بلادك فلن يمنعك أحد .

فقلت : والله يا سيدي إنك قد صرت لي في منزلة الأب ، فالأمرُ أمرك في كل ما تريد .

فأمر الشيخ من قوره بإحضار القاضي والشهود ، وزوجه ابنته وأولم لنا ولية عظيمة ، وأقام حفلاً كبيراً ، اشترك فيه أغلب أهل المدينة .

وزُفَّت إلى العروس ، فوجدتها باهرة الحسن ، بهيئة الجمال ، ذات قدٍ واعتدالٍ ، مرتديةً آخر الملابس ، متحليةً بأحسن الحلي والجواهر ،

فأعجبني ، وفرحتُ بها ، وأحببتها ، وأحببتني . وأقتُ معها وأنا هانيٌ
سعيدٌ ، أغبطُ نفسي على هذا النعيم الذي ساقه الله إليّ ، وأهنئُها على
هذه السعادة التي أرتعُ فيها .

وكانَ الشيخَ وقد اطمأنَّ قلبه على ابتنيه ، وقرَّت عينه بسعادتها
وبوجودها في عصمة رجل يَدُودُ عنها ويحميها — قد طابت نفسه على
تركها وتركِ الدنيا ، فما لبثَ أن مَرَضَ مَرَضَ الشيخوخةِ ثم مات ،
فجهزناه ودفناه بما يليقُ بمكانته ومقامه ، وأخذتُ في مواساة زوجتي ،
حتى سُرِّيَ عنها .

وحللتُ بعد موتِ صهرِي في محله ، وصار جميعُ ما كان يملكه
من غلمانٍ ومالٍ وعقارٍ ملكَ يدي ، وولاني التجارُ مكانه من الرياسةِ
عليهم ، فأصبحتُ شيخَ تجارِ المدينة .

فلما خالطتُ أهلَ المدينة ، وعاملتهم ، وعرفتُ عاداتهم وطباعهم
رأيتُ من أمرهم ومن خلقهم عجباً . رأيتُ أغلبَ الرجالِ في ميادِ
مَوقُوتٍ من كلِّ شهرٍ يَنْقَلِبُ خَلْقَهُمْ ، وتَتَغَيَّرُ أَشْكَالُهُمْ ، ثم تظهرُ لهم
أجنحةٌ فيصيرُونَ كهَيْئَةِ الطيرِ ، ثم يطيرُونَ إلى عَنانِ السماءِ ، وينيُونَ
أوقاتاً متفاوتةً ، تاركينَ نساءَهُمْ وأطفالَهُمْ ، ثم يعودون .

تعمجتُ من أمرِ هؤلاء الناسِ وسألتُ نفسي ، ومن أيِّ جنسٍ هُمُ ؟
وعلى أيِّ مِلَّةٍ يكونون ؟ وكيف تَنَبَّأتْ لهم هذه الأجنحةُ التي تظهرُ
وتختفي ، وكأنها بفعلِ ساحرٍ عليم ، أو شيطانٍ رَجِيم .

وكانت ملازمتي للشيخ ، وطولُ اعتكافي في داره ، وعدمُ اختلاطي بالناسِ والبعْد عنهم ، فلم أشاركهم في مجالسهم ، ولم أعالِمهم — كل ذلك جعلني لا أعرفُ عن هذه الحالة شيئاً في زمن وجودِ الشيخ ؛ فلما مات ، واختلطتُ بهم ، وسائرهم ، وعاملتهم ، وأُثروني شيئاً عليهم — عرفتُ هذه الحالة المحيية فيهم .

توجستُ خيفةً منهم ، وارتبْتُ في أمرهم ، وساورتني شكوكٌ كثيرةٌ ، وتنازعني خيالاتٌ وأوهامٌ لا حصرَ لها . ثم فكرتُ في أن أسأل زوجتي عن أمر هؤلاء الناسِ ، وأن أستوضحَها حقيقتهم ، فلعلها تكونُ على علمٍ بِسرِّهم .

ولكنني عدتُ فعدلتُ عن ذلك ، وفضلتُ أن أبحثَ هذا الأمرَ بنفسِي ، فلعلِّي أستطيعُ أن أكشفَ سرَّهُ ، وأقِفَ على خبيثته .

أتى اليومُ المعلومُ ، وهو اليومُ الذي يُغيِّرونَ فيه هيئتهم ، فلم ألبثُ أن رأيتهم طيوراً ، وهُموا بالطيرانِ .

أسرعتُ إلى أحدهم قبل أن يطيرَ ، وكان من بُحَّارِ الشُّوقِ ، فدخلتُ عليه وأردتُ أن أستدرِجَه ، فقلتُ له :

أقسمتُ عليك يا أخي بالله أن تحمِلَنِي معَكَ في طيرائك ، حتى أفرِّجَ من الجوّ على مشاهدِ الدنيا وأعودَ معكم .

فقال لي : هذا شيءٌ لا يمكنُ أبداً ، ولا أستطيعُ أن أفعله قط . فكررتُ عليه القولَ وألصحتُ عليه في الرجاء ، وكنتُ كلما

أَمْنْتُ فِي الْإِلْحَاحِ أَمْنَنَ هُوَ فِي الرَّفْضِ . وَلَكِنِّي لَمْ أَيْأَسَنَّ ، فَزِيلْتُ
أَلْحُ وَأَلْحُ حَتَّى صَاقَ بِي ذَرْعًا ، وَلَمْ يَحْدِ مَنْصَأًا مِنَ الْقَبُولِ ، وَعَلَى غَيْرِ
رَغْبَةٍ مِنْهُ .

حَمَلَنِي الرَّجُلُ فَوْقَ ظَهْرِهِ ، وَطَارَ بِي مَعَ رِفَاقِهِ وَأَخَذُوا يَرْفِرِفُونَ
بِأَجْنِحَتِهِمُ الَّتِي نَبَتَتْ فِي جُنُوبِهِمْ لِحَافَةً ، وَكُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ فِي سِرٍّ
مِنْ زَوْجَتِي وَغُلَامَانِي وَأَصْحَابِي .

وَمَا زَالَ الطَّائِرُونَ يَرْتَفِعُونَ فِي الْجَوِّ ، حَتَّى بَلَّغُوا طَبَقَاتِهِ الْعُلْيَا .
فَقَطَمَسَتْ الْأَشْيَاءَ وَالْعَالَمُ أَمَامَ عَيْنِي وَأَصَابَنِي دُورٌ خَشِيتُ مَعَهُ
السَّقُوطَ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ حَامِلِي فَتَشَبَّهْتُ بِهِ بِكُلِّ مَا بَقِيَ لِي مِنْ قُوَّةٍ
وَاحْتِمَالٍ .

وَبَيْنَمَا أَنَا أَعَانِي وَيَلَاتِ هَذِهِ الْمَخْنَةُ الْقَاسِيَةُ الَّتِي قَذَفْتُ بِنَفْسِي فِيهَا
فَوْقَ ظَهْرِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ يَشُقُّ أَجْوَازَ الْفَضَاءِ كَالشُّهَابِ الرَّاصِدِ ،
أَوْ كَالنَّجْمِ النَّاقِبِ ، طَرَقَ أَذُنِي تَسْبِيحٌ وَتَكْبِيرٌ بِاسْمِ اللَّهِ ، فَاتَّبَعْتُ
مِنْ شِبْهِ غَشِيَةٍ كُنْتُ فِيهَا ، وَطَافَ بِخَاطِرِي أَنَّهُ تَسْبِيحُ الْمَلَائِكَةِ فِي
سَمَاوَاتِهَا ، فَلَمْ أَتَمَلَّكَ أَنْ هَتَفْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

وَمَا أَعْمَتْ تَسْبِيحِي ، حَتَّى أَحَاطَ بِالطَّائِرِينَ شَوَاطِئُ مِنْ نَارٍ ، كَأَنَّهُ
يَحْرِقُهُمْ ، فَهَبَطُوا مُسْرِعِينَ ، وَأَلْقَى بِي حَامِلِي عَلَى ظَهْرِ جَبَلٍ ، وَخَلَوْنِي
وَمَضَوْا ، وَهَمُّ فِي أَشَدِّ الْغَضَبِ مِنِّي .

فَوَقَفْتُ عَلَى ظَهْرِ الْجَبَلِ أَتَمَلُّ مَوْقِي ، وَأَنَا مَتَحِيرٌ مُشْدُوهُ ،



لا أذرى ما أفعل^١ . تملكني حزنٌ شديد ، وبأسٌ قاتلٌ ، وعدتُ
بالآخرة على نفسي ، وكنتُ أتمنّى من شدّة النّيظِ ، وكادت مرادى
تفتّق ، وصرت أحدث نفسي وأقرّها :

مالي أطيرُ مع هؤلاء الطّائرين^١ وما شأني معهم^١ وما ألقى سيّئود
على من كشف أمرهم^١ أفلا أستطيعُ كيّجَ جراحِ نفسي هذه ، العالقة ،
الأمارة بالسوء ، التي لا ترتدّع ولا تتبرّ^١ وكلما خرجتُ من ورطة ،
قدّقتُ في في ورطة أشد .

وكلما ركنْتُ إلى الراحة ، واستطبتُ رعدَ العيش ، وتلوّقتُ طمّ
السعادة والنمى - ذهت يا نفسي وغوّيت ، وألقيتُ في بين مهاوى
التهلكة ونارِ الجحيم^١ :

أما كفاني ما لقيته من ألوانِ الشقاء ، وقاسيته من محنِ قاصمة ،
يشيبُ من هولها الولدانُ ، حتى جئتُ أجربُ حظّي مع الرّدة
والغفاريّة^١ :

يا إلّهي ، لئن أتقدّنتي في هذه المرّة ، فلنْ أخطو بنفسي بعد
ذلك أبداً^١ :

يا إلّهي ، لئن عدتُ إلى زوجتي وذاري ونمبي ، فلنْ أفكرُ
أبدأ في غيرِ حمدِكَ ، وشكرِكَ ، وتسبيحك ، وتقديسِكَ ،
والصلاة لك^١ :

وفيا أنا أضربُ في عرضِ الجبلِ مذهولاً تائباً ، مسلوبَ اللبِّ

والرشاد—أبصرتُ أُمَامِي فجأةً غلامَيْنِ قَادِمَيْنِ عَلَيَّ، لم أَدْرِ من أين
جاءا، يَشِيعُ من وجهيهما بهاءٌ ونورٌ، ويَدِرُ كلُّ منهما قَضِيبٌ من
ذهبٍ يتوكأُ عليه، فلما أبصرتهما دبَّ في نفسي ديبُ الفرح والأمل،
وتقدمتُ إليهما، وألقيتُ عليهما السلامَ . فردا على السلام . فقلتُ لهما :
بِاللهِ عَلَيكما ، من أتيا ؟ وما شَأْنُكما ؟ !

قالا : نحن من عبادِ الله .

وأعطيانِي قَضِيبًا من اللَّذَيْنِ كانا مَعهما وخَلْفانِي ، ومَضيا ، من غيرِ
أنْ يَزِيدَا .

فصَحِيتُ من أمرِ هَذَيْنِ الغلامَيْنِ ، ومن شَأْنِهما ، ومن وجودهما
فوقِ هذا الجبلِ ؛ وفَكَّرْتُ في أنْ أتبِعهما ، وأَتَقِي أثرهما ، لعلِّي أجِدُ
طَرِيقًا يَكُونُ فيه النَّجاةُ ، ولكنَّهما كانا قد اخْتَفيا عن ناظِرِي فجأةً ،
فلم أعرفْ أين ذَهبا : أطارا في السماء ، أم ابتَلَعتهما الأرضُ ، أم اخْتَفيا
في كَهْفٍ لا أعرفُهُ ؟ ! لستُ أَدْرِ

فصَحِيتُ أُسِيرُ فوقِ الجبلِ على غيرِ هُدًى . ودون أنْ تَبْرُقَ أُمَامِي
بارقةٌ أمل ؛ وأنا أَتَوَكَّأُ على القَضِيبِ الَّذِي قَدَّمَهُ لي الغلامان ، حتى قَطَعْتُ
شوطًا بعيدًا .

وَحِيلَ إليَّ بعدَ حينٍ أنْ الجبلُ قد بدأ يَقلُّ ارتفاعًا ، ويزيدُ تدرُّجًا
فوطئتُ العِزَمَ على الجِدِّ في السَّيرِ ، فقد أَجَدُّ مكانًا ^{*}أَسْتَطِيعُ الانْحِدَارَ منه
إلى بَطْنِ الوادِي .

وفيا أنا أحوِلُ يوما المَبْطُوطَ من فوقِ إحدى الصخورِ إلى الصخرةِ
التي تليها — بعد أن قضيتُ أياماً ساعياً فوقَ هذا الجبلِ — طرقُ أذني
صوتٌ، فوقفتُ أَسْمَعُ فلم أسمعُ غيرَ صُراخٍ وعويلٍ، قدّرتُ يَصْرِي
أبحثُ عن مصدرِ هذا الصوتِ، فأبصرتُ شيئاً يزحفُ ويتلوى،
فأخفتُ أتبيّنه، فإذا هوحيةٌ كبيرةٌ هائلةٌ قد التقتْ ساقِي رجلٍ،
وتعلّ على أزدِرادٍ بقيةَ جسمه، والرجلُ يصرخُ، ويصيحُ قائلاً:
من يخلصني يخلصه الله من كل صنيق وشدة، من يفرجَ كَرْبِي يفرج
الله عنه كَرْبَهُ يومَ القيامةِ .

وبحركةٍ لاشعوريةٍ، وجدتُ نفسي قد اندفعتُ نحو هذه الحية
البشعة، ثم أهويتُ على رأسها بقضيبِ الذهبِ الذي في يدي .
فما كانت إلا ضربة واحدة، حتى لفظت الحية على أثرها الرجلَ من فها .
فلما وجد الرجلُ نفسه حُرّاً طليقاً، أكبَّ على يديّ يُوسِعُهُما لثماً
وتقبيلًا، ودموعُ الفرح تهطلُ من عينيّه، وهو يقولُ لي:
لقد أسرّتنِي يا سيدي بمروفيك، وطوّقتُ عُنُقِي بِجَمِيلِكَ: فقد أغثتنِي،
وفرجتْ كَرْبِي، وأثَقّذتْ حَيَاتِي، فصيرتَنِي بِذلك خَادِمًا لَكَ، وعبداً
من عبيدِكَ، ولن أفارقَكَ في مسيرِكَ .

فقلتُ له: مرحباً بك مِن رَفِيقِ أنيسٍ، وصاحبٍ ومُعينٍ .
وقصصتُ على الرجلِ قصّتي، فدَهِشَ منها، وتعجّبَ . وقال لي:
إنه خرجَ يحوِبُ الجبلَ بحثاً وراءَ بعضِ الحشائشِ الطيبةِ، فخرّجتُ عليه
هذه الحيةُ التي كادتْ تبتَلِّمُهُ، وخلصته منها، ثم عرضَ عليّ أن أصبحَ

إلى مدينته ، وكان يعرفُ طُرُقَ الجبلِ ومسالكه ، خَيْرَ آبِشَعَايَه وَدُرُوبِهِ .
ففرحتُ بهذا أَشدَّ الفرح ، وسُررتُ من لِقائِي لهذا الرجلِ الذى أَتَانِي
على يَدَيْهِ الفرجُ .

وأسرغنا فى السيرِ على سُفوحِ الجبلِ ومنحدراتِهِ أيامًا آخر ، كان
غذاؤُنَا فيها ما نلقاهُ من الطحالب والأعشاب ، ونَوَمْنَا بعضَ ضججات
قصيرةٍ فيما نَجِدُهُ فى طَرِيقِنَا مِنَ الكُهُوفِ .

وذاكَ صَبَاحٍ كُنَّا نَجِدُ فى السيرِ كَعَادَتِنَا ، قَبْلَ أَنْ يَرْتَفِعَ قَرصُ
الشمسِ فى السماء ، ويسلُطَ علينا أشعتهُ المحرقةُ التى نَحْدُ من سَيْرِنَا ،
وتَنبِطُ من عَزَمَتِنَا — وَقَعَ نَظَرُنَا على جَمَاعَةٍ مِنَ الرِّجَالِ جَالِسِينَ ، تَدُلُّ
هَيْئَتِهِمْ على أَنَّهُمْ قَدْ اسْتَيْقَظُوا مِنَ النَّوْمِ قُرْبًا ، فَإِنَّ آثَارَهُ مَا زَالَتْ
فى عِيُونِهِمْ ، ففَرَحْنَا بِرُؤْيِهِمْ ، وَلَكِنَّا اقْتَرَبْنَا مِنْهُمْ عَلَى حِرْصٍ وَحَذَرٍ .
دَقَقْتُ النَظَرَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ أَشَدَّ دَهْشَتِي حِينَ رَأَيْتُ يَنْهَمُ الرَّجُلَ
الَّذِي كَانَ يَحْمِلُنِي ، وَتَرَكَنِي فَوْقَ الْجَبَلِ .

وَمَا دَرَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا وَأَنَا مُكَبِّ عَلَيْهِ أَقْبَلَ رَأْسَهُ وَيَدِيهِ ، أَطْلُبُ
مِنَهُ الْعَفْوَ عَنِّي مُتَذَرِّئًا إِلَيْهِ قَتْمًا عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ صَدَرَ مِنِّي مِمَّا أَغْضَبَهُ
عَلَيَّ . وَقَلْتُ لَهُ مُتَطَلِّفًا مُعَاتِبًا ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ يَرْضَى بِوَجْهِهِ عَنِّي :

يَا صَاحِبِي ، مَا هَكَذَا يَفْعَلُ الْأَصْحَابُ بِأَصْحَابِهِمْ .

فَقَالَ : أَنْتَ الَّذِي كِدْتَ أَنْ تُهْلِكَنَا بِتَسْبِيحِكَ حِينَما كُنْتُ
أَحْمِلُكَ عَلَى ظَهْرِي .

فقلت له : إنني لم أكن أعلم من أمركم شيئاً . ولكن خذني معك ،
وعهدي لك ألا أنيس بينت شفة ما دمت فوق ظهرك . وبعد لأي
قبل أن يأخذني معه ، وحملني فوق ظهره ، وشدني في القضاء ، وما زال
طاراً حتى حطّ بي قرب منزلي .

ودخلت على زوجتي ، فلما رأتني هبت فرحةً بلقائي ، وماقتني وقبّلتني .
ثم أخذت تستفسر عن سبب غيابي ، وعلة تركي لها ، وهجرني لمنزلي
تلك الأيام الطويلة ، ورأيتها ذابلةً شاحبة اللون ، مقرحة الجفنين من
فرط ما حملت من همٍّ ، ومن كثرة ما أراقت من دمع .

فمزّ على ما سيئته لها من حزن ، وجلبته لها من غمٍّ ، بمحافتي وسوء
تصرفي . فأخذت أعتذر لها ، وأخبرتها بكل ما كان من أمري ، وما
فعلته ، وما حدث لي .

فقالت : احترس بعد ذلك من خروجك مع هؤلاء الأقوام ، ولا
تعاشرهم ، ولا تخالطهم ؛ فإنهم إخوان للشياطين ، ولا يعرفون الله .
فقلت لها : وكيف كان حال أهلك معهم ؟

قالت : إن أبي لم يكن منهم ، وهو برئ من فعلهم ، واعلم أنه
ما فضل تزويجي منك إلا لتسكون حامية لي ، وردّها يدفع عني شرّ
هؤلاء القوم ، لِمَا رآك عليه من الصلاح والتقوى ، والاتصال بالله ،
والبعد عن الشيطان .

والرأى عندي ، وقد مات أبي ، وليس لنا مآرب في الإمامة في هذا

المكان ، الذى نحنُ كالترباء فيه بديننا وطباعنا — أن نبيع ما نملك ونشتري بـشئنا تجارة ، ونزح إلى بلدك ، الذى أرجح أنك فى أشد الحنين إليه ، وقد ظننتُ لما طال غيابك عني أنك قد ارتحلت إلى بلدك ، ولكنى عدتُ واستبعدتُ هذا الظن ، لما علمتُ أنه لم يحنِ إلى مدينتنا سفينة ارتحلت عنها مدة غيبتك .

فاستحسنْتُ رأيها ، واستصوبتُها ، فإنه لم يتجاوز هوَى كان بنفسى ، وشرعتُ فى تصفية التجارة ، وبيع المقار ، وتفريق ما فى المخازن شيئاً فشيئاً .

ولكن طال انتظارنا لليوم المنشود : اليوم الذى تأتى فيه سفينة تحملنا إلى وجهتنا . كرت على ذلك الأشهر ، ومرت السنين ، ونحن على ما نحن عليه من انتظار وتشوق وترقب ، حتى مات فينا الأمل ، أو كاد ، وضعف منا الرجاء ، وابدأنا نوطن أنفسنا على ألا حياة لنا غير هذه الحياة ، وأنا سنظلُ كذلك ما بقي لنا من العمر ، فلا تغيير ولا تبديل .

ولكن شاء الله بعد ذلك أن يُغير هذا الأمر تغييراً ، ويبدله تبديلاً . فقد هبَّ جماعة من التجار والرحالة المؤمنين يغيثون الضرب فى أرض الله ، والتجول فى بحار الدنيا ، ومنهم من يبنى التجارة والسمى وراء الرزق ، ومنهم من يبنى الحج أو المجاورة . وأما سبيلهم إلى ذلك ، فهو أن يتفقوا فيما ينتمى على بناء سفينة ، تحملهم وتحمل ما يأخذون معهم من زاد ومتاع ، وتجارات وغيرها .

وما وصلتُ إلى على أنباء هذه النية ، حتى أيدتها ، وتمحستُ لها بكل ما بي من قوة ، وطفْتُ على جميع من أبدى رغبةً في السفرِ أحثه وأحمسه . ثم كنتُ بعد ذلك من أولِ المنفذين للفكرة بمشاركتي فيها بالمالِ ، والنشاطِ الذي كنتُ أبدله ، وبالإغراء الذي كنتُ أغري به مَنْ على شاكلتي من الناس .

وكلَّ العملِ بالنجاح ، وابتدأ هيكَل السفينة يتكوَّن شيئاً فشيئاً بمعاونةِ عمالٍ لهم درايةٌ وخبرةٌ ببناء السفن .

وأتى اليومُ الذي احتفلنا فيه بإتمام السفينة ، وإنزالها إلى البحر ، بعد مدةٍ من الزمنِ قضيتها في المجاهدةِ والمكافحةِ ، وتذليلِ ما يعترضُ بناءها من صعبات .

واتخذنا لها رباناً وبخارةً ممن لهم إلمامٌ بشتون البحر ، وطرقه ، ومسالكه ؛ ومعرفةً بمهابِّ الريحِ واتجاهاتها . وأنزلَ بها الركابُ متاعهم ، والتجارُ حمولتهم ، وحلَّلتُ بها أنا وزوجتي وأحمالي ، ومن رَغِبَ في مصاحبتنا من الفلمانيِّ والجلواري ، وسرنا على بركةِ اللهِ يحدونا الأمل ، ويدقُّنا الرجاء .

وجابت بنا السفينةُ المحيطات والبحارَ ، ومرت على بلادٍ وجزرٍ ما رأيتها ولا مرَّرت بها من قبلُ ، على كثرةِ ما طفتُ وسافرتُ ؛ وكنا كلما رست بنا السفينة بميناء زاولنا فيه البيع والشراء والمقايضة ، وكان نصيبنا جميعاً من ذلك ربحاً وفيراً .

ودخلت بنا السفينة بعد ذلك في مياه أعرفها . وطافت بنا على بلدان وموانئ قريبة من بلادنا ، فارتاحت نفسي ، وتنفست الصعداء ، لآتهاء الرحلة في زمن أقصر من زمن كل رحلة رحلتها من قبل . فإن الأنواء والأعاصير لم تهاكس السفينة ، ولم تعوقها في أثناء هذه الرحلة الطويلة إلا قليلا .

ووصلنا إلى البصرة بعون الله ورعايته ، فلم أقم بها ، بل أكتريت من فوري مركبا أنزلت به أهلي وأحالي ، وسرنا في نهر دجلة ، حتى وصلنا إلى بغداد ، دار السلام .

...

ولا تسألوا يا إخواني ، عن فرحتي برجوعي إلى وطني ، وملاقاة أهلي ، الذين كانوا قد فقدوا الأمل في رجوعي ، وعدوني من زمن في عداد الأموات والمفقودين بند أن تتيئت عنهم في هذه السفرة كل هذه السنين الطويلة ، التي زادت على كل مدة قضيتها في أي سفرة من سفرائي السابقة .

وما كدت أصل إلى داري حتى انتشر خبر عودتي في أنحاء المدينة ، فخرج الناس من أهلها أفواجا وجماعات قاصدين إلى داري ، مهئين مسلين ، فاعففت عن فرد إلا أكرمته ، وما خليت نورا إلا أهديت إليه ، وما تركت فقيرا إلا وصلته وأطعمته .

وعشت مع زوجتي وأهلي : هائكا ، وادعا ، راضيا ، مطمئنا ؛ وقد ثبت

وَأُنَبِّتُ وَلَمْ يَعِدْ بِي شَوْقٌ إِلَى السَّفَرِ وَالتَّحَالٍ ، بَعْدَ أَنْ قَدِّمْتُ بِي
السَّنَ ، وَهَمَنْ مَنَى الْعَظْمُ وَضَحَفَتْ مَنَى الْقُوَّةُ . وَقَتَرَمَنَى النَّشَاطُ .

وَقَدْ وَجِدْتُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا يَرْضَى بِهِ عَنْ
نَفْسِهِ ، وَيَرْضَى بِهِ غَيْرَهُ ، وَيَنْفَعُ بِهِ أَهْلَهُ وَوَطَنَهُ ، مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ ،
وَأَبْوَابٍ شَتَّى ، فَتَضَرَّغْتُ لِنَلَاكِ الْعَمَلِ وَكَرَّسْتُ لَهُ وَقْتِي ، فَلَا قَرَانِي ،
وَأَشَاعَ الطَّمَأْنِينَةَ فِي قَلْبِي وَعَادَ بِالْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ عَلَى الْقَرْدِ وَالْمَجْمُوعِ .

وَكَانَ عَمَلِي هُوَ يَرَى بِالْفُقَرَاءِ وَنَصْرِي لِلْمَظْلُومِينَ ، وَتَقَرُّجِي كَرِبَةَ
الْمَكْرُوبِينَ ، وَإِفَاتَةِ الْمُهَوِّفِينَ ، وَتَرْيَةِ الْيَتَامَى ، وَيُسَاعِدُنِي عَلَى ذَلِكَ
مَا جَمَعْتُ مِنْ مَالٍ ، وَمَا اسْتَتَمِرْتُ فِيهِ مَالِي وَأَنَا فِي بِلَادِي مِنَ الْقِيَامِ
بِمَشْرُوعَاتِي عُمرَانِيَّةٍ كَثِيرَةٍ تَعُودُ عَلَى أَبْنَاءِ الْوَطَنِ بِالْخَيْرِ الْعَمِيمِ .

• • •

وَالْآنَ يَا أَيُّهَا السَّنْبَادُ الْبَرِي ، هَلْ تَرَانِي كَمَا رَأَيْتَنِي أَوَّلَ وَهَلَةٍ ؟
وَهَلْ تَصِفُ مَنْزِلِي كَمَا وَصَفْتَهُ مِنْ أَوَّلِ نَظَرَةٍ ؟

فَقَالَ السَّنْبَادُ الْحَمَالُ : وَاللَّهِ يَا سَيِّدِي إِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ غَيْرِكَ يَسْتَأْهِلُ
النَّعِيمَ بِقَدَرٍ مَا قَلَّ سَيِّئَتِ ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْمُنَافَةَ بِقَدَرٍ مَا عَاقَبْتِ ، وَلَا يَنْتَظِرُ
مُثْرَبَةً مِنْ اللَّهِ بِقَدَرٍ مَا قَدِّمْتُ .

فَقَالَ السَّنْبَادُ الْبَحْرِي : وَإِنَّا لَنَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُعِينَنَا عَلَى
أَدَاءِ رِسَالَتِنَا مَا بَقِيَ لَنَا عُمرٌ .



خاتمة

اتمى السندباد البحرى من سرد قصص رحلاته السبع على صاحبه
السندباد البرى ، وعلى من كان يُجالسهما من الأصحاب ، وكان حديثه
مُتمِّماً جميلاً ، يُنصِتون إليه ، ويُتابعونه ؛ ويظهر أثر ذلك في وجوههم :
تنبسط أساريرهم إذا سمعوا ما يسرهم ، ويُقطَّبون جيئهم إذا سمعوا
ما يحزنهم ؛ وكانت المغامرات التى قام بها السندباد البحرى ، والمخاطر التى
لاقاها فى متناويه البحر ، ومغازات البر ، وألوان العذاب التى قاساها ،
ومجائب الخلوقات التى صادفها : من ثعابين ، وحيات ، وقرود ، ومن أناسٍ
لهم عادات لم يألها ، ومن حكام مرَّوا على أساليب من الحكم لم يعهدها -
كانت هذه الأشياء كلها تهز مشاعرهم ، وتحرك وجدانهم ؛ لذلك لم يكن



عَجَبًا أَنَّهُمْ أَبَدُوا السَّنْدِيَادَ الْبَحْرِيَّ بِمَدِّ أَنْ اتَّعَى مِنْ حَدِيثِهِ سُرُورٌ بِمَا سَمِعُوا مِنْ جَمَالِ الْحَدِيثِ وَطَرَأَتْهُ ، وَمِنْ غَرِيبِ الْحَوَادِثِ .

فَرَدَّ عَلَيْهِمُ السَّنْدِيَادُ الْبَحْرِيُّ بِأَنَّهُ كَانَ سَعِيدًا بِهِمْ ، وَلَا سِيَّاهُ صَاحِبَهُ السَّنْدِيَادَ الْحَمَلِ .

ثُمَّ دَعَا خَازِنَ مَالِهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَمِدَّ بَذْرَةً فِيهَا أَلْفُ دِينَارٍ ؛ فَأَعَدَهَا ، وَقَدَّمَهَا هَدِيَّةً لَصَاحِبِهِ السَّنْدِيَادَ الْحَمَلِ ، وَقَالَ لَهُ :

اعْلَمْ ، يَا صَدِيقِي ، أَنَّ مَا قَصَصْتَهُ عَلَيْكَ بِمَا لَا قِيَّتَ مِنْ أَهْوَالٍ ، وَتَكْبِدَتِ مِنْ مَخَاطِرٍ ، وَقَاسَيْتِ مِنْ صَعَابٍ ، وَعَانَيْتِ مِنْ شِدَائِدٍ — لَا يَصُورُ الْحَقِيقَةُ الَّتِي وَقَعَتْ ؛ فَإِنَّ الْوَصْفَ شَيْءٌ ، وَالْمَعَانَاةَ شَيْءٌ آخَرٌ . وَلِعَلَّكَ تَعْتَقِدُ بَعْدَ هَذَا أَنَّ إِنْسَانًا ، كَأَنَّكَ مِنْ كَانٍ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْتَمِلَ مَا أَحْتَمِلْتُهُ كُلَّهُ أَوْ بَعْضَهُ ؛ وَلَوْ لَا أَنِّي صَبَّرْتُ نَفْسِي عَلَى الْإِحْتِمَالِ ، وَأُكْرِهْتُهَا عَلَى الرِّضَا — لَمَا وَصَلْتُ إِلَى مَا تَرَانِي عَلَيْهِ الْآنَ مِنْ جَاهٍ وَغْنَى ، وَلِمَا رَأَيْتَ ذَلِكَ الْقَصْرَ الْقَضَمَ ، وَهَذَا الْبُسْتَانَ الْمُتَلَيَّ بِمَنْوَفِ الْأَشْجَارِ ، وَالْأَوَانَ الْفَاكِهَةِ ، وَأَنْوَاعِ الثَّمَارِ .

وَلَوْ أَنِّي رَكَعْتُ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَاسْتَسَلَمْتُ إِلَى الدَّعَةِ ، وَآثَرْتُ السَّلَامَةَ — مَا كُنْتُ إِلَّا إِنْسَانًا عَادِيًا مَغْمُورًا ، أَقْنَعُ بِشَطْفِ الْمِيشِ ، وَالْمَلْبَسِ الْخَشَنِ ، وَالْمَسْكَنِ الْحَقِيرِ .

وَإِنْ النَّفْسَ الْكَبِيرَةَ تَرَكَبَ الصُّعَابَ ، وَتَسْتَعْذِبُ التَّعَبَ — لِتَصِلَ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَتَسْتَمِرَّ فِي الْبُؤْسِ لِتَصِلَ إِلَى النِّعَمِ .

وما كاد السندبادُ البرىُّ يسمع هذا الكلام ، حتى نهض من مجلسه ،
وتقدم إلى السندباد البحرى ، وأخذ يده ، وأوسمها ثغماً وتقبيلاً ، وقال له :
إنك رجل حقاً ، عرفت كيف نَشَقُّ لِنَسْعَدَ ، وكيف تَتَمَبُّ لِنَسْتَرِيحَ ؛
فهنيئاً لك ما أنت فيه من عِزٍّ ونعيم ؛ مَتَّعَكَ اللهُ بصحتك ، وبارك لك
فى مالك .

رأى السندبادُ البحرىُّ فى عَيْنَيْ صاحبه السندبادِ البرىُّ أنه يدعو له
من قلبه ، ولمس فيه الإخلاص والمحبة ؛ فرأى أن يستعين به فى تدبير
ماله ، وأن يجعله وكيلاً له .

قَبِلَ السندبادُ البرىُّ ذلك مسروراً ، وقام على مال صاحبه ، وأحسن
القيامَ عليه ، وعمل على تَثْمِيرِهِ وتَنْمِيتِهِ .

وعاش السندبادان معاً : يخلص كل منهما للآخر ، ويمرّه ؛ لا يستغنى
أحدهما عن أخيه ، ولا يصبر على فراقه ؛ ودامت العشرة بينهما ، فقضيا
حياةً : رغيدةً ، هائلةً ، سعيدةً .

تعقيب وتحليل

يرى بعض المستشرقين أن قصة السندباد أُلقت على أنها رواية خاصة ،
لا صلة لها بكتاب ألف ليلة وليلة ، ثم أُضيفت إليه بعد ذلك ، واعتبرت جزءاً
منه ، وقسمت إلى ليال : شأنها في ذلك شأن بقية قصص الكتاب ، وشأن
الكثير الذي أُضيف إليه أيضاً قبل قصة السندباد أو بعدها ، ودخل في حساب
لياليه .

وأيّاً ما كان فإن قصة السندباد هي تلك القصة الخالصة ، ذات الخيال
الخصب ، التي كان له أثره في العاليتين : الشرق والتربّي .

وقد توفر للمستشرقون على دراسة هذه القصة ، وأخذوا يضمنون الزمن
التي أُلقت فيه : أواخر القرن الثالث كما رأى دوجويه ونولدكه ؛ أم هو القرن
التي يليه كما رأى بروكلمان وهوايزت ؟ .

ثم اختلفوا فيما بينهم في أصل قصة السندباد : أهو عربي أم غير عربي ؟
فبعضهم رأى أن أصل القصة عربي على الرغم من أن اسمها غير عربي ، ثم
أضيفت إليه زيادات القصص التي نسجها خيالهم حتى صارت على وضعها هذا .
وإن العرب أنفسهم كانوا يعرفون غير قليل عن البحار ، وما يكتنف ركوبها
من مخاطر وأحوال ، وكانوا يظنون أنهم بعد أن ينحدروا من البصرة ، ينحدرون
إلى بحر لجّي ، يشاء موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحب : ظلمات بعضها
فوق بعض ؛ وأن هذا البحر قلما ينبو راكبه ؛ أو قلما تغلت سفينة من موجه
الغاتي ، ورياحه الشديدة الكاسرة ، وحيواناته المعبية الغريبة ؛ وكانوا يعرفون
أن وراء هذا البحر جزرا فيها بلاد ومدن كلها خيرات ، فن استطاع أن يصل
إليها جمع من كنوزها وجواهرها ما يَنقَى به دهره كله ، ويضمن معه عيشاً
هيناً رغيداً مع أهله ، وبين أبناء بلده .

عرف العرب هذا ، وأكثرت منه ؛ فلم يدموا رجالاً منهم مخاطرين ، يدفعون بأنفسهم إلى ما وراء البصرة ، وفي بحر كله ظلمات ، لملهم يجدون من وراء ذلك مالا وغنى ، ولملهم يعودون إلى بلادهم بعد أن ينامروا فيخلعون على أهلهم عيشاً سعيداً ، وحياة رغيدة ، ولا يمنهم ذلك ما يسمعون من أن في هذه البلاد سمكا كبيرا طويلا ، يظهر في هيئة الحير والبقر ؛ ولا يحول بينهم وبين وادي اللاس ما فيه من الأفاعى العجيبة المنخلقة ؛ ولا يفرغهم جبل القرد ، والثمايين التي تأكل الادميين ، ولا يهولهم منظر الرخ الذي يستطيع أن يمسك في مخالبه صخرة كبيرة ، إذا قذف بها مركبا كبيرا ، حطمه تحطيا .

ورحلات السندباد ليست إلا بعضاً من هذه الرحلات : خرج صاحبها من بغداد إلى البصرة ، ثم انساح بعد البصرة في ذلك البحر الذي لا يعرف له أولاً ولا آخر ، فلم يكد يمين في البحر حتى تحطم مركبه لسبب من الأسباب ، أو صادفته هو ورفاقه جزيرة من الجزر ، فخرجوا إليها ، ولكن رفاقه يعودون إلى المركب ، ويقلون ، ثم يأتي من بعدهم فلا يجدهم ، ولا يجد المركب ، فتصيبه أحداث وأحداث ، وتمر على رأسه بلايا عظام ، يكاد ينفذ لها صبره ، وتنحل عزيمته ، ولكنه لا يلبث أن يأتيه الفرج ؛ ويعود بعد ذلك إلى بلاده غانماً سالماً . ولا يكاد يقيم في بلده حتى ينسى ما أصابه من صعوبات ، وتشتاق نفسه إلى معاودة ركوب الخطر ، لا لمجرد الرحلة والانسياح ، ولا بنية معرفة ناس غير الناس ، أو بلاد غير البلاد ؛ ولكنه يبني الحصول على المال الذي لا يستطيع أن يصل إلى الكثير منه إلا عن طريق التنقل والترحال .

وقد كان ما يسمونه عما في بلاد الفرس والهند والصين من الذهب والفضة والماس والأحجار الكريمة ، وغير ذلك — بفرهم دائماً يمثل هذه الرحلات الكثيرة الخطيرة .

ولذلك لم يكن عجيباً أن السندباد كلما عاد إلى بلده ، واستقر به المقام ، واطمأن

على أهله ، ونسى متاعبه — فكر في أن يعود إلى رحلة أخرى ، ولا يفكر في أنها قد تكون أشق من رحلته السابقة ، وأشدّ عسراً ؛ لأن حب المال كان يسيطر عليه سيطرة تصرفه عن التفكير في أي شيء آخر حتى نفسه وحياته ، ولأن ميله إلى ركوب الأخطار كان ينسيه كل شيء .

وبذلك تمت رحلاته سبعا ؛ في كل منها مغامرات خطيرة ، ومفاجآت محيية ، ويأس من النجاة ، واستسلام إلى الموت ؛ ثم نجاة فيها حياة وعز وضمير وغنى .

وساعد على تأليف هذه القصة ما عرفه العرب عن قصص الرحالين العرب : كابن الحائك^(١) ، وابن فضلان^(٢) من رحلة القرن الرابع الهجري ؛ ثم ما ألف في عجائب الكون مثل كتاب : عجائب الخلوقات للقزويني^(٣) ، وخريدة العجائب لابن الوردی^(٤) ، ومثل ما ورد في كتاب : مروج الذهب للمسعودی^(٥) ؛ ومثل

(١) ابن الحائك : هو أبو محمد الحسين بن أحمد بن يعقوب ؛ حكيم ، عالم بالأنساب ، والفلك والفلسفة ، والأدب ؛ من أهل اليمن ، توفي بهشتاء سنة ٣٣٤ هـ ، سنة ٩٤٥ م واشتهر بابن الحائك ؛ ومن مؤلفاته : صفة جزيرة العرب ، والمسالك والممالك ، وصحائب اليمن .

(٢) ابن فضلان : هو أحمد بن فضلان بن العباس ، مولد محمد بن سليمان . أفضله المقتدر بالله العباسي سنة ٣٠٩ هـ إلى ملك الصقالية مهمة ، فكتب رحلة عرفت باسمه ؛ ذكر فيها ما شاهدته منذ خروجه من بغداد إلى أنعاد إليها . وفيها وصف مملكة الصقالية ، وعاداتهم ، وغير ذلك . وله رسالة عن الروس ؛ حتى ينشرها مع ترجمة ألمانية لها للعلامة فراهين ، وأضاف إليها ما وجدته في كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة .

(٣) القزويني : هو زكريا بن محمد بن محمود من سلالة أنس بن مالك الأنصاري النجاشي : مؤرخ جغرافي ولد بقزوین سنة ٨٦٠ هـ ، سنة ١٢٠٨ م ورحل إلى الشام وال عراق ؛ توفي سنة ٩٨٢ هـ ، سنة ١٢٨٣ م . ومن كتبه آثار البلاد والعباد ، وخطط مصر (مخطوط) ، وصحائب الخلوقات ؛ وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية والألمانية والتركية .

(٤) ابن الوردی : هو زين الدين عمر بن مظفر . شاعر ، أديب ، مؤرخ . وله في معرفة النجاشي ، وتوق بلبل .

(٥) المسعودی : هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودی : من ذرية عبد الله بن مسعود ؛ ومن مؤلفاته : مروج الذهب ، وأخبار الزمان ، وهو كتاب تاريخ في نحو ثلاثين مجلداً .

كتاب « سلسلة توارىخ » وهو كتاب يتضمن رحلات في الهند والصين وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، وهذه الرحلات التى تضمنها ذلك الكتاب ليست لرحلة بعينه ، وإنما هى لأكثر من تاجر من تجار العرب ، الذين خرجوا إلى هذه البلاد فى القرن الثالث الهجرى .

ومثل كتاب « بُرْزُكُ بن شهر يار » صاحب عجائب الهند ؛ وهذا الكتاب مؤلف بالعربية ، وإن كان مؤلفه فارسياً ؛ دون فيه صاحبه ما رآه وما سمعه فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وأوائل القرن الرابع ، وأكثر فيه من ذكر البحار وأخبار التجارة والتجار ، ودون أخباراً فيها مبالغات كثيرة ، ويصح أن تكون المبالغات من خياله ، أو سمعها من التجار فدونها كما سمعها ؛ فهذه طيور هائلة الحجم لا تفل عن حجم الرخ الذى قرأت عنه فى قصة السندباد ، وتلك أسماك لا تفل ضخامة وطولا وغرابة عن السمك الذى رآه السندباد ، وهكذا .

ولعل ذلك وغيره من الاعتبارات الأخرى هو الذى جعل بعض المستشرقين يرى أن هذه القصة عربية الأصل ؛ أى أن النواة التى حيكت حولها القصة عربية ؛ ثم جعلهم أيضاً يقولون : إنها ألقت فى القرن الثالث الهجرى غالباً ، وهو القرن الذى شاعت فى أوائله ، وفى أواخر القرن الثانى — تلك القصص السابق ذكرها ، على السنة العامة ، ثم دونت بعد ذلك ، كلها أو بعضها .

ورحلة السندباد — فيها وردت لنا — تتألف من سبع رحلات ، اتفقت الكتب العربية وغير العربية على الرحلات الست الأولى ، أما الرحلة السابعة فإن الكتب اختلفت فيها ، وقد أوردناها فى القصة التى قرأتها على نحو ما ذكرت فى كتب القاهرة والشام .

أما برسوفى الطبعة الألمانية فقد ذكر قصة أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن قصة القاهرة والشام .

ولعل القصة ألقت أول ما ألقت عن ست رحلات ، ثم رأى المتأخرون أن

يضيفوا إليها رحلة سابعة ، فأضيفت رحلة طبعة القاهرة على النحو المذكور في القصة ، وأضيفت رحلة برسلو على نحو آخر ؛ ولأجل أن تعرف الفرق بين الخياليين في القصتين نسوق لك ملخصاً لقصة برسلو .

• • •

ولما عازمت على عدم السفر والاشتغال بالتجارة — قلت لنفسى : كفى من فاسيته من أهوال ، وما لاقيت من أحداث جسام ، ولم ألبث أن انصرفت إلى قضاء وقت في اللهو واللعب ، والتمتع بالحياة البرية ؛ وقضاء وقت آخر في استثمار مالى بالاتجار مع أهل بلدى ، ومع من يفدون إلينا من التجار الغرباء . وبينما كنت جالساً ذات يوم — طرق الباب طارق ، ففتح البواب الباب ، فدخل غلام من غلمان الخليفة وقال :

إن الخليفة يدعوك للقائه .

فذهبت إليه ؛ ولما مثلت أمامه قبلت الأرض بين يديه ، وأقرأته السلام ؛ فرحب بى أكرم مرحيب ، وأعلى مكاتفى وشرفى ؛ ثم قال لى :

يا سندباد ؛ إن لى إليك حاجة أطلب أداءها .

قبلت يديه ، وقلت له : ما حاجة مولاي ؟ فأنا خادمه ، وروهن إشارته ؛ ويشرفنى أن أكون لأمره سمياً مطيعاً .

فقال لى : أريد أن تسافر إلى سرنديب لتحمل إلى ملكها كتابنا وهديتنا ؛ فقد كتب لنا وأهدى إلينا^(١) ، وهذا جميل لا بد من رده ، وما أجل أن يرد الجليل على يد من حل الجليل .

(١) وكان الكتاب الذى أرسله حاكم الهند إلى الملوك ترجمته «صفوة الأذغان» ، وكان من الهدايا التى أرسلها إليه حمام من الباتريت الأحمر المملوء دواً ، وزن كل دوة مثقال . وفراش من جلد حية فى حجم الفيل ، وشى جلدها دارات سود على قعر الدرهم ، وقوسطها ققط بينى . وثلاثة مصليات ، ومائتها من جلد طائر يقال له السندل . ومائتا ألف مثقال من المرد المحتلى الرطب . وثلاث وثلاثون ألف من من الكافور المحبب ، كل حبة منه مثقال الفستقة ، وأكبر من اللؤلؤ .

وما إن سمعت قوله حتى اقشعر جسمى ، وارتعدت فرائصى ، وتغير لوني ،
وذكرت الخطر الداهم إن أجبت الخليفة إلى ما يريد ، وركبت البحر ؛ فإني
سمعت على إثثار السلامة ، وكرهت الأسفار .

فخشعت وأجبت :

يا مولاي : أقسم لك أنى كرهت الرحلة ، حتى أنه لتعرونى رعشة عند ذكر السفر
في البحر أو البر . لما كابدت من شدائد عظيمة ، وأخطار جسيمة ، وأهوال مفرّعة .
— وإني يا مولاي حلقت يميناً أنى لا أغادر مدينة بغداد ، ولا أحب أن
أحت فيها .

وذكرت للخليفة بعض ما عانيت في سفراتى الست السابقة .

فحبب الخليفة جد العجب ، وخالها حديث خرافة ، وقال :

والله ما سمعنا أن أحداً غيرك حدث له مثل ما حدث لك ؛ لا في هذا الزمن ،

ولا في الأزمان النابرة !

ولكنى لا أظنك ترفض أن تسافر من أجلى إلى سرنديب ، ولتكن آخر

سفراتك ، وسوف يكتب الله لك السلامة ، فتعود إلينا سرىماً .

وما قصدت إلا أن نسدد لحاكم سرنديب ديناً في عقننا ، فإن الدين ثقيل ،

ورده جميل .

فلم يحسن إلا أن أجيب بالسمع والطاعة .

فسر الخليفة^(١) ، وأمر بإحضار الهدية ، وإعداد الكتاب ، وأعطاني ألف

دينار نقات سفرى ؛ فقبلت يده ، وانصرفت من حضرته .

(١) الخليفة هو المأمون ، أو الرشيد ، أو معاوية الأموى . - على خلاف بين المؤرخين - رجح
المرحوم أحمد زكى بلشا أنه المأمون . والرسالتان المتبادلتان كانتا بين الخليفة وحاكم الهند ، أو حاكم
الصين ، أو حاكم سرقندب ؛ والمرجح الذى نقلنا عنه يذكر أنها كانت بين المأمون وحاكم الهند وتحدث
المسعودى في ص ٤ ج ١٢ من مروج الذهب عن قبل أهدى إلى المأمون من بعض ملوك الهند ؛ وقيل إن
هذا القليل كان من جلة الهدية .

سافرت من بغداد إلى البصرة حيث أبحرت منها ، وسارت السفينة أياماً وليالي ، وكانت الرياح مواتية فلم نلق في سفرنا هذا نصيباً ، ووصلنا إلى سرنديب سلين .

ولما رست السفينة أسرعت إلى قصر الحاكم ، ومثلت بين يديه ، وقبلت الأرض ؛ فلما رآني سرسوراً عظيماً ، وقال :

مرحباً بك يا سندباد ! الله يعلم أنك أوحشتنا ، وأنتا في شوق شديد إلى رؤيتك ؛ فالحمد لله الذي جاء بك إلينا ، فرأيتك مرة ثانية ؛ ثم قام إلى ، وأخذ يبدى ، وأجلسني بجواره . وأحلى أعز جناب . ثم سألني عن سبب حضوري ، فأخبرته قصة الهدية والرسالة ، وقدمتها إليه .

وكانت الهدية مكونة من فرس عربي أصيل ، عليه سرج مزين بالذهب ، ومرصع بالجواهر الثمينة ، وجميع آلاته من حقيق ؛ وحلة فاخرة ، ومائة ثوب أبيض من قباطى مصر ، وحرير السوس ، ووشى اليمين ؛ وديباج خسروانى ، وسلجم خراسانى ، وطفافس إغريقية ؛ وكأس عجيبة من البلور ، مرسوم على أحد جوانبها أسد متحفز للوثوب على صائد راحه على ركبته اليمينى ، وقوسه في يده ، موشك أن ينطلق منها سهم قاتل ؛ ومائدة من خشب ثمين أبيض ، وفيه خطوط سود وحر وخضر ، وستة ثلاثة أشبار ، وغلظها لإصبعان ، وأركانها ذهب .

فرض الحاكم الكتاب ، وقرأه ، فكان مما فيه !

السلام من الخليفة القوى بالله ، الذى منحه هو وأجداده درجة الشرف ، والمجد المريض — على السلطان السعيد .

وبعد ؛ فقد وصل إلينا خطابك ، فسررنا ؛ وقد أرسلنا لك كتب «ديوان

الآلِباب ، و بستان نور العقول » و بعض الهدايا الثمينة النادرة ، فترجو أن تتفضل بقبولها ، والسلام عليك^(١) .

فسر الحالك بقرائه ، وأجزل لي العطاء .

وكان حفيكرك ، عطوفاً علىّ ، كريماً في معاملتي مدة إقامتي في رحابه .

ولم أقصر أنا في شكره ، والاعتراف بمجمله .

ولم تطل إقامتي في سرنديب ، فاستأذنته في العودة إلى الوطن .

وأقمتي وجماعة من التجار والمسافرين سفينة ذاهبة إلى البصرة .

سارت السفينة تمخر عباب البحر ، والريح رخاء ، ومرت بنا على جزائر عدة ، ولكن لم تلبث الريح أن اشتدت ، وزادت شدتها حتى أصبحت عاصفة ، فساعت المركب حيث تشاء ، وكان الریان لا يستطيع لها ردّاً ، ونحن لا نملك إلا أن نضرع إلى الله أن يطفئ بنا ، وأن يهيئ لنا مخلصاً سريعاً مما نحن فيه من كرب وضيق .

ومضت أيام خلناها سنين ، ولم تكد تهدأ الرياح إلا بعد أن لاحت لنا أرض ممتدة شمالاً وجنوباً إلى منتهى أبصارنا ، فسرى عنا بعض ما كنا نجد من الهول والقزع والرعب

ولكن خاب قائلنا ، فلم يمض غير قليل بعد رؤيتنا للبر حتى لحقتنا قوارب لا عدد لها ، فيها قوم وجوههم كوجوه الشياطين ، يلبسون دروعاً ، ويتشحون بقموس ، وفي أيديهم حرايب وسيوف ؛ فأحاطوا بنا ؛ وكل من قاومهم قتلوه أو جرحوه ،

(١) العدد الأول من مجلة ريفوس جيهت (مجلة مصر) . صدر في القاهرة في أول يوليو سنة ١٨٩٤ م ، وكانت هذه المجلة تصدر تحت إشراف جابر دويك شمرية ، لنشر الوثائق التاريخية والجغرافية الخاصة بمصر والشرق العربي ؛ وقد توقف صدورها بعد سنة ١٨٩٧ م .

وهذا البحث متخذ من مخطوط في دار الكتب محفوظ تحت رقم ١٠١ مجموعات ١ وليس في هذا المخطوط أى إشارة تدل على اسم المؤلف ، أو تاريخ التأليف ، لأن الورقة الأولى مفقودة ، وأما الورقة الأخيرة فلأنها لا تحمل أى إشارة .

وأخذوا كل ما تحويه السفينة من مال أو بضاعة ، ونقلوا إلى جزيرة ، وباعونا
بشن بخس ، وكانوا فينا من الزاهدين .

ومن حسن حظي أنني اشتري رجل غني ، فأخذني إلى منزله وأحسن متواي ،
فاستبدل ملابس جديدة بملابسي التي مرقتها المردة المتوحشون ، وأطعمني من جوع ،
وآمنني من خوف ؛ فاطمأن قلبي ، وسكن روحي .

ولما توم أي استرددت قوتي ، قال لي : ألا تحسن صناعة أو حرفة ؟

فقلت له : يا سيدي ؛ إني تاجر ، ولا أحسن غير التجارة .

فقال لي : ألا تحسن فن الرماية .

فقلت له : نعم

فأحضرنى قوساً وكفانة ملاءى بالسهم ، ولما أوشك الصباح أن يسفر — ركب
فيلا ، وأردفني خلفه ، وسار بنا القيل في غابة كثيفة حتى وصل إلى شجرة عالية ،
ثبت أصلها ، واستطالت في الجوف فروعها ، فنزلنا عن القيل ، وترجلنا ، وأعطاني
القوس والسهم ، وأمرني بتسلق الشجرة .

وقال لي : توار بين الفروع حتى إذا طلع الصبح ، ومر بك قطع من الفيلة
— فسدد السهم إلى أطولها ناباً ، وارمه به ؛ فإذا أصبته وقتلته — فأت إلى
لتخبرني بذلك . ثم تركني وقفل راجعاً .

فتملكني الخوف ، وتولاني الرعب ، وظلت مخفياً بين أفرع الشجرة حتى
مطلع الشمس ، وانبعثت الوحوش من مرقدتها ، وأخذت تتجول في أرجاء الغابة ،
وجاءت الفيلة ، وأخذت تمر بي من قريب أو بعيد ، وطفقت أرميها بالسهم
حتى أصبت أحدها في مقتل ، فخر صريعاً . ولما جاء المساء ، وأوت الوحوش إلى
أوكارها — هرولت إلى سيدي ، وأخبرته بصيدي ، فسر لثلك سروراً عظيماً ،
واستقبلني أحسن استقبال ، وأرسل نراً من أتباعه لإحضار القيل المقتول .

واستمر الحال على ذلك عدة أيام : أذهب إلى الشجرة في غلس الظلام ،

وأخفى بين فروعها . وأصطاد فيلاً ؛ فیرسل سیدی من یحمله إليه .
وبینما كنت مخفياً فی الشجرة ذات یوم إذ أقبل علیها قطع من القیلة ،
كانت آصع وتزارح حتى خیل إلى أن الأرض زلزلتها زلزالها ، ولما اقتربت من
الشجرة ، أحاطت بها ، وحاصرتها محاصرة الجیش القوی الغالب ، لعدوه الضعیف
المخلوب .

ثم انفرد من بینها أضخمها جثة ، وأعظمها ناباً ، وأطولها خرطوماً — وانجھ
نحو الشجرة .

ولما وصل إليها ، لف حولها خرطومہ ، وجذبها جذبة قوية ، فاقطعها من
جذورها ، وأما لها ؛ فسقطت على الأرض ، فی شبه غشیة من الرعب والفرع .
اقترب من القیل العظیم ، ولف خرطومہ حول ، ورفعی إلى ظهره ، وانطلق
فی الغابة ؛ فنبهه بقیة القیلة ؛ ولما وصل إلى مكان فی وسط الغابة رفعی من على
ظهره ، وألقانی على الأرض ؛ وتركنی فی هذا المكان ؛ وعاد ومعه القیلة .

ولم أدر : كم من الوقت مضى قبل أن أثوب إلى رشدى ا
ولما أفتت وجدت نفسى بین عظام مئات القیلة ، فعلمت أن القیلة جمعتى إلى
مقبرتها لتدلى على معین لا ینفد من العاج الذى من أجله أقتلها ، فسئ أن نف
عنها ، ونكف عن الاعتداء علیها ؛ فقد وجدنا حاجتنا فی مقبرة أمواتها ، فلا
داعى لقتل أحيائها ؛ وإن الحصول على أنياب الموتى لا یرهقنا ، ولا یكلفنا تربصاً
فوق الشجر ، ولا تعرضاً للخطر ، ولا إطلاقاً للسهام .

تركت مقبرة القیلة ، وسرت نحو مدینة سیدی ، ولما وصلت إليها ذهبت إلى
داره ، وأفضیت إليه بقصتی ، فكاد یجن من الفرح ، وقال لی : لقد ظننت
أنى قدتک إلى الأبد لحزنت علیک ، لأنک لما لم ترجع ، سرت إليك ،
فوجدت الشجرة مقتلعة من جذورها ، فطوفت فیما حول الشجرة من الغابة
فلم أعثرک على أثر ، فعدت أدراجى حزیناً أسفاً ، فالحمد لله على سلامتک .

ثم قال لى : هل تستطيع أن ترشدنى إلى هذه المقبرة ؟ قلت : نعم ؛ إن ذلك على هين ، فقد لحظت الطريق ، وعرفت معاله .

فأعد حملة من أتباعه يركبون القيلة ، وركب فيه وأردفنى خلفه ، وسرت بهم فى دروب الغابة حتى وصلنا إلى المقبرة ؛ فلما شاهدها سيدى كاد يحزن من الفرح ، وأخذ يشد على يدى ، ويقبل جبهتى ، وأمر غلمه وأتباعه أن ينتقوا أحسن الأنياب ، وحملوها على القيلة ، وكررتا راجعين ، وأعاد الحملة مرات حتى امتلأت مخازنه بالسن .

وقال لى سيدى ذات يوم : يا بنى ؛ لقد هديتنى إلى ثروة طائلة لم أبذل جهداً فى الحصول عليها ، وقد كنا قبل ذلك نعتدى على القيلة وقتلها ؛ وكنا نمرض أنفسنا لخطر جسيم ؛ فكثيراً ما كانت تهيج ، وتدوس عشرات من أتباعنا ، انتقاماً لقتلها ؛ فبارك الله فيك ، وخير ما أهبه لك حريتك ، فأنت طليق حر ، وإن شئت أقت معنا عزيزاً كريماً .

قلت له ، وقد تفرقت فى عيني دمة الفرح والسرور :
إني أ حمد الله أن وقتنى إلى أن أعقتنى ، وفككت رقتى ، وإنى ، وإن كنت لم أ أمل محبتك ، أذكر لك أن الوطن غال ، عزيز علينا ؛ أقت به شرخ الشباب منما ، وقد خلفت هناك أهلى وولدى ومالى ؛ وإن عدم عودتى إليهم يسبب لهم الحسرة واللوعة ، ويقضون ما يعيشون من أيام فى حزن دائم ، وألم مقيم .
فقال سيدى : لقد صدقت ، ولو زعمت غير ذلك لظننت بك الظنون ، فأنت مأذون لك بالسفر متى شئت ، وقد كنت من الصابرين ، فأصبر حتى يحل موسم بيع السن ؛ فإن للسن عندنا سوقاً كل عام ، ينسل إليها التجار من كل حذب وصوب ، من وراء البحار ، ومن خلف الجبال ، فمضى أن تأتى سفينة من بلادك ، فتعود عليها ، وقد اقترب وقته .
وحل موعد السوق وجاء التجار ، وباعوا ما حملوا ، واشتروا بشمن ما باعوا سنا .

وجاء سيدى يوما ، وقال لى : إنى عثرت على جماعة من التجار من بلادك ،
واتفقت معهم على أخذك ، ودفعت لصاحب السفينة أجر سفرك فيها .
ثم أعد لى أحلاما من جيد السن ، وهدايا ثمينة ، وأمر بقلها إلى السفينة .
ثم خرج معى سيدى ، ومعه بعض خواصه وأتباعه إلى السفينة لوداعى ، وحينما
كانت السفينة تغلق طافنى سيدى ، وسلم علىّ ، وودعنى أحر وداع .
وأقلت السفينة ، وطلعت ترسو على جزيرة ، وتقلع منها ، وتذهب إلى
أخرى وتقادرها ؛ والتجار ينزلون إلى مدنها ويبيعون ويشتررون ويتعوضون ،
وكنت أحذو حذوم ، أبيع وأشتري وأتعوض .
ثم رست السفينة على ميناء البصرة ، فاشتريت بخالا وجلا ، وحلت تجارنى
واختارت الصحراء إلى أن وصلت إلى شاطئ القرات ، وسرت فى أرض الجزيرة
إلى أن وصلت إلى بغداد ، مدينة السلام ، وذهبت إلى دارى فاستقبلنى
أهلى فرحين .

وبعد أن استرحت توجهت إلى قصر الخليفة ، وطلبت الإذن بالثول بين يديه .
فاستقبلنى بشوق ، وقصصت عليه قصة رحلتى ، فسر لى لى ، وعجب من
أحداث القصة ووقائعها ؛ وأمر أن تدون بحروف من ذهب .
هذا ما حدث لى فى أثناء الرحلة السابعة ، وهى آخر رحلاتى .
والحمد لله ، على كل نعمة يوليها ، وكل شدة يصرفها ويحليها .

• • •

قرئت قصة السندباد على أنها كتاب مستقل ، ووجدت منه نسخ قديمة
فى بعض المكتبات فى باريس وغيرها ؛ وقرئت على أنها قصص ألف ليلة وليلة ؛
واهتم النربيون بها ، وشاعت بين أوساط المثقفين من أبنائهم ، وأقبلوا على قراءتها
إقبالا عظيما .

رأى ذلك بعض الروائيين من كتاب الإنجليز والفرنسيين ، فأغرام تلك بالإقبال على التأليف على نسقها ؛ فأتوا كتباً للرحلات على نحو هذه القصة . ومن أسبق ما ألف في هذا النوع رحلات جاليفر .

ورحلات جاليفر هذه تتألف من بضع رحلات كما تألفت قصة الاستبداد ، منها رحلة إلى بلاد الأقزام ، يسافر في هذه الرحلة إلى البحار الجنوبية ، فيبحر من ميناء بريستول في مايو سنة ١٦٦٩م ، وكانت الرحلة طيبة سعيدة ، ولكنه بعد أن يجتاز البحار الجنوبية ، ويتجه نحو الهند الشرقية — تصادفه ربح عاصفة عاتية ، فتدفع المركب إلى صخرة نائمة في البحر ، ويرطم المركب بالصخر ، فينشق ويتصدع ، ثم يفرق في الماء ، فيلجأ هو ورفاقه الستة إلى طوف النجاة ، ولكنه لم يحلهم ، فغرقوا ، وبقى هو متعلقاً به ، ودار يبصره هنا وهناك ، فوجد نفسه وحيداً ، ينال الموج ، والموج يغال به ، وما زال كذلك حتى انتهى إلى الشاطئ ، وقد كدّه للوج ، وأضناه التعب ، وكان الوقت ليلاً ، فأخذ يلتفت يميناً وشمالاً ، فلم ير أحداً ، أو تخيل إليه أنه لا يرى أحداً لشدة ما كان عليه من جهد وإعياء . وهكذا ظل في رحلته هذه يلقي ما يلقي ، ويعاني ما يعاني ، حتى استطاع أن يعود إلى وطنه .

ومن رحلاته أيضاً رحلة إلى بلاد العماقة .

خرج في هذه الرحلة بعد عودته من رحلته إلى بلاد الأقزام بوقت قصير ، فإن حبه للمغامرات ، وميله إلى ركوب الأخطار ، وخاصة إذا كان يقدر لنفسه السلامة ، أنساه ما قاساه في رحلته الأولى .

فإنه خرج إلى البحار الجنوبية نفسها ، ودار حول رأس الرجاء الصالح ، وصعد في البحر الشرقي حتى وصل إلى مضيق مدغشقر ، حيث هبت عليه رياح غربية استمرت عشرين يوماً تبعثها عاصفة شديدة إلا أنها لم تحطم المركب ، ولم تجمع به ، بل قادت إلى برّ رسّوا عليه ، بعد أن نفد ماؤهم ، واشتد ظمؤهم .

أرسل الربانُ جاليفر ورفاقه ليمسحوا عن الماء ، ولكنه تاه في الأرض ، وانفرد عنهم ، فلم يهتدوا إليه ، ولم يهتد إليهم ، فصاد أدراجه إلى حيث ينتظرم الربان ، فوجد رفاقه قد عادوا إلى المركب ، وركبوه ، وأقلعوا به وأسرعوا ، حيناً رأوا عملاقاً هائلاً يتبعهم .

وهكذا ظل جاليفر سابحاً في خياله . حتى لقد صور نفسه يوماً جالساً في كوخه الخشن على شاطئ البحر . فوجد المنزل يرتفع إلى أعلى . فأدرك أن طائراً هائلاً قد اختطف الكوخ وما فيه . وأندفع فوق البحر . ثم أحس أن الكوخ قد سقط في الماء ، يطفو ويفطس حتى رآه بعض البحارة فألقوه .

ومن رحلاته أيضاً رحلة إلى بلاد : عقلاؤها خيولها ،

يخرج في هذه الرحلة في سفينة على عادته . ولكن يموت كثير من رجاله لأنهم أصيبوا بداء يحملهم يدفعون أنفسهم إلى الماء دفعا ، فاستبدل بهم غيرهم من رجال الجزر التي كان يمر عليها ، ولكن معاونه الجدد كانوا من القراصنة ، فتألبوا عليه ذات يوم ، واندفعوا إلى حجرة ، وقيده بالسلاسل ، ونصبوا عليهم رباناً من بينهم . أما الربان الجديد فإنه أمر أن يلقى جاليفر في أول شاطئ يلقونه ، ولم يلبثوا أن وصلوا إلى شاطئ . فأخرجوه إليه ، ولم يعطوه غير قليل من الزاد ، وتركوا له سيفاً .

عاد على نفسه باللوم والتأنيب ، لأنها هي التي تدفعه إلى الخروج في تلك الرحلات بعد أن يتوب .

فكره وطنه وقومه ، وصحَّ عزمه على أن يستقر في إحدى الجزر ، وألا يعود إلى بلاده ، وإن تهبأت له أسباب العودة .

فنزّل في إحدى الجزر ، وأقام فيها مدة ، يرى ما يرى ، ويسجل ما يسجل ، حتى جا . رجال من بلاده ، وحملوه معهم ، وعاد إلى الوطن .

هذه إشارة وجيزة جداً لبعض رحلات جاليفر ، ونجده يتفق مع رحلاتنا السندباد في جوهر الفكرة ، وفي أصل الموضوع .

فكلالهما يخرج في رحلة بحرية ، ثم تصادفه الأهوال ، ويتعرض للفرق ، ويخلص من بين مخالب الموت ، وتخدمه المصادفات المحضة غالباً ، وتتهيأ له أسباب النجاة .

وفي أثناء ذلك كله يروى أشياء عجيبة ، يلعب الخيال فيها دوراً عظيماً .
إلا أن الفرق بين جوهر الرحلتين ، بساوى الفرق بين حقيقة الزمنين اللذين ألفتا فيهما .

فرحلات السندباد ألفت — فيما يزعمون — في القرن الثالث الهجرى ، وقيل قبله ، وقيل بعده ، أى في القرن التاسع الميلادى
ورحلات جاليفر ألفت في القرن السابع عشر الميلادى . ونجد بين الزمنين أكثر من سبعة قرون .

لذلك لم يكن عجباً أن يكون السندباد هم أن يقص أخبار رحلاته هذه لمجرد القصص ، يقصها للتسلية ، وقطع الوقت ، وشغل الناس عن أمور ، قد تكون سياسية ، أو لصرفهم عن الاستمرار في المناقشات البيزنطية حول مسألة دينية ، أو غير هذه وتلك من المسائل التى كانت تشغل أذهان الناس في العصر الذى وضعت فيه الرحلات ؛ ومع ذلك فسواء أقصد المؤلف أم لم يقصد فإن هذه القصص تفرس في نفس الإنسان فضيلة الصبر على المكاره ، وتقوى إيمانه بالله ، وتجعله يستسلم لقضائه وقدره .
ومن أجل هذا لا نستطيع أن نقول : إن السندباد خيماً كما يقص رحلاته كان يريد أن يكون ناقداً سياسياً . أو ناقداً اجتماعياً ، أو ناقداً اقتصادياً ، أو غير ذلك .

أما جاليفر الذى وضع رحلاته في القرن السابع عشر ، أى في عصر كانت فيه الثقافات تختلف عن ثقافات عصر السندباد اختلافاً كبيراً ؛ وكان يقص رحلاته

على جماعات من الناس لم ثقافات ، وعادات ، وبيئات ، تختلف اختلافا قليلا
أو كثيراً عن ثقافات رجال السندباد ، وعاداتهم ، وبيئاتهم .
وجاليفر نفسه غير السندباد ثقافة ، وبيئة .

ولذلك نجد جاليفر في رحلاته إذا رجعت إليها كاملة — ناقداً اجتماعيا
وسياسيا بارعا؛ فهو لم يرحل لمجرد الارتحال ، أو لما في رحلاته من لذة وألم ؛ ولكنه
رحل ليقول لقومه ، أو ليجتمعه الذى نشأ فيه : أتم ناس فيكم عيوب جمة ،
وصورها لم في تلك الصور الرمزية الجميلة ، التى تجعلهم يتنبهون لها ، ويفطنون
لما فيها ، فينتفضون بها ، من غير أن يكون فى ذلك إيلام للنفس ، وإحراج
لأولى الأمر .

وذلك أن جوناتان سويت صاحب جاليفر كان ناقدا اجتماعيا ، وسياسيا
بارعا ، وكان لانتقاداته أثر عظيم جداً فى توجيه السياسة الإنجليزية فى هذا العصر،
وعرفه الشعب ، واقتن به .

فإنه نظر إلى العالم بمنظار أسود ، وصوره شقاء كله ، وجعله نيرانا يأكل
بعضها بعضا . فهو مرة فى بلاد الأقزام ، ومرة فى بلاد العالقة ، وحيناً فى بلاد
الفلاسفة ، وحيناً آخر فى بلاد السحرة .

ومهما يكن من شئ فإن الصورة العامة التى كونها جاليفر لرحلاته ؛
هى عينا الصورة العامة التى كونها السندباد لرحلاته ؛ أما ما بين الصورتين من
تباين فى الأجزاء الداخلية فقد نشأ من اختلاف الزمن الذى نشأ عنه اختلاف
الثقافة ، ثم من اختلاف البيئة أيضا كما قدمنا .

• • •

أما روبنسن كروزو فقد ألفها دانييل ديفو فى أوائل القرن السابع عشر .
ركب روبنسن كروزو السفينة ، ولم تكد السفينة تمن فى البحر حتى ثار لواء
واضطرب ، وعلا اللج واصطخب ، وظل هو ورفاقه فى البحر يرضى حيناً ،
وينفضب أحيانا ، حتى ابتلع اللج السفينة ، ونجا هو ورفاقه .

ولكن شيطانه ألح عليه في استئناف رحلة أخرى للأبحار ، فأمجرو ربح .
ثم خرج في رحلة ثالثة ، فخرج عليه القراصنة ، قتلوا بعض رفاقه ، وجرحوا
الآخرين ، ونجا هو ، وأصيب به شيخ القراصنة ، فأمخذه خادما خاصا له .
فكر في الحرب ، وبعد سنتين منحت له القرصة ، فهرب في سفينة .
لجأ إلى الشاطئ ، ليستريح هو ورفيق له ، ولكن الوحوش التي رأياها جعلتهما
لا يبرحان الشاطئ ، ولا يتجولان في الداخل ؛ ومع ذلك فقد استطاعا أن يصطادا
أرنباً ، ويحضرا ماء ، ويقتلا أسدا .

ثم استأفأ رحلتهما الشاقة الخفيفة ، وانتهت بهما إلى البرازيل ، وعرف ناساً
كثيرين فيها ، وذكر لهم غينا التي مربها من قبل ، وكيف ابحر فيها ورج ،
فرغب الناس في الخروج معه إليها متجرين وهو معهم .

اضطرب الجو ، وثار الماء ، وجنحت السفينة إلى كتيب من الرمل ، ثم أغرق
للوج الجامح السفينة والركاب ، ولم ينج أحد غيره هو ، حيث قذفه الأمواج إلى
صخرة كبيرة ، استطاع بعدها أن يخرج إلى الشاطئ ، بعد أن جمع من حطام
السفينة ألواحاً ، وكون منها مركبا صغيراً ، وأخذ بعض الطعام والثياب والحب*
والسلاح .

عاش في تلك الجزيرة التي خرج إليها ، وصنع لنفسه كوخاً يأوى إليه ، وكان
كلما لاح له فرصة ذهب إلى السفينة ، وأخذ منها بعض ما بها .

وهكذا ظل دانييل ديفو يأخذ بيد صاحبه روبنسن كروزو حيناً ، ويسله
للشقاء أحياناً ، ويجعله تارة محارباً ، وطوراً مسلماً ؛ وإن أمنه على نفسه وحياته
مرة ، فإنه يفرعه ويضجه مرات ؛ وإن أشبعه يوماً أجاعه أياماً ؛ وإن بسم له الحظ
فترة ، عبس له شهوراً .

وعلى الرغم من هذه السنين التي قضاها قلقاً ضيقاً ، فإنه عاد إلى بلاده
غاثماً سالماً .

ومن ذلك تعلم أن روبنسن كروزو رحالة كالسندباد ؛ كلاهما كان يركب السفينة ، ويسير في البحر ، ويطنى عليها الماء ، ويفرقها الموج أو يخطمها ، أو يجعلها تنجح ، أو يسلمها إلى شاطئ مجهول ، أو غير ذلك ؛ ثم يصيب الرفاق كلهم أو أكثرهم سوء : من موت ، أو أسر ، أو تيه ، أو نحو هذا ؛ وينجو البطل بحياته نجاة ، خير منها للموت أحيانا ، وتصادفه بعد ذلك العقبات فيجتازها عبثا وراء عبثه ، حتى تقدر له النجاة الحقة بالمودة إلى الوطن في يسر ورخاء .

إلا أن روبنسن كروزو كان يذهب إلى جهات معلومة محدودة ، فيصل إليها في أزمئة معلومة محدودة أيضا : وكان يقيم هنا شهرا ، ويقوم هناك عاما أو أعواما ، وكان يعلم عدد السنين والحساب .

وروبنسن كروزو عرف كيف يعيش وحيدا في بلاد لا أنيس بها ولا جليس ، واحتمل على إثبات القمع والشعر ، وعرف أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده عيشا يطمئن إليه ، ويسمد به ، ولكنه يضطر إلى ذلك اضطرارا إذا ألبأته إليه ظروفه .

ووجد في بعض رحلاته قطعا ذهبية ثمينة ، ولكنه كان ينظر إليها ويحتملها ، وأوشك أن يقذف بها في البحر ، لولا أنه آثر أن يحتفظ بها ، فلهذا يجد لها في مستقبل أيامه منفعة .

والسندباد في بعض رحلاته صادفه شيء شبيه بهذا : فهو كان يجد أمامه كثيرا من الجواهر والياقوت ، والذهب ، والفضة ، وكان يظنها بقدميه ، لأن شربة ماء يطنى بها ظمأه ، أو كسرة خبز يمسك بها رفقها — أحب إليه من أن يضعوا في يمينه الشمس ، وفي شماله القمر ، ويملكوه جبال الأرض ذهباً .

ماكاد يظهر هذان الكتابان : رحلات جاليفر وروبنسن كروزو حتى تهافت على قراءتهما جميع الطبقات ، أو كما يقولون : من غرفة رئيس الوزراء إلى غرفة

المرضع ، وذاعا ذيوعا عظيما جدا ، واشتهر أمرها ، وترجما إلى جميع لغات العالم المشهورة .

لم يكد الكاتب الفرنسى جول فرن يعرف خبر هذين الكتائين ، ويعرف السرفى ذيوعهما وانتشارهما — حتى بادر إلى تأليف كتيبات للصية الناشئين فيها رحلات ، وفيها خيال خصب جميل ، جذب الصية إليها ، وجعلهم يقبلون عليها ، ويقرونها فى شغف وسرور ، ولم يكن المصدر الأول الذى أوحى إليه بتأليف هذه الكتيبات هو جاليفر ورو بنسن كروزو فحسب ، ولكنه رجع إلى ألف ليلة وليلة ، وقرأ قصة السندباد ، واستمد منها : فكانت له معينا لا ينضب .

أما الكاتب ويلز فإنه كان فيما يؤلف من قصص يأخذ من السندباد أخذاً صريحاً واضحاً ، وكان لقصة الرنخ التى ذكرها السندباد فى سفرته الثانية أثر أى أثر فيما كتب .

من هذا كله ومن غيره مما لم نذكره ؛ تعرف ما كان قصة السندباد من أثر عظيم فى الأدب الغربى ، إما بذاتها ، وإما بما اشتق منها ، وألف على نسقها من قصص الرحلات خاصة .

أما نحن الشرقيين فلم تبلغ عنايتنا بهذه القصة مبلغ عناية الغربيين ، ولم يظن لها المربون ، ولا المهيمنون على شئون التربية والتعليم ، ولا الآباء والأمهات كما فطن الغربيون .

وكذلك لم يظن الروائيون الشرقيون أنفسهم إلى ما يجب أن يكون لهذه القصة من أثر فى وضع قصصهم .

ولمنا بعد ذلك نكون قد نهينا لما لهذه الرحلات من أثر ، ويسرنا أن تصيح موضع العناية ، حتى يقبل عليها الناشئون من أبنائنا إقبال الناشئين من أبناء الغربيين عليها ، وعلى ما نبع منها من قصص وروايات .

١٩٩١ / ٢٤٤٣	رقم الإيداع
ISBN	977-02-3235-1
	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ١٧٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

الف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التي تنتمى إلى التراث الشعبي.. والتي نالت إهتماماً عالمياً في الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التي تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التي توجد في طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذي تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

- | | |
|----------------------|-----------------------------------|
| ١ - شهرزاد ودنيا زاد | ٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى |
| ٢ - السندباد البحرى | ٨ - أبو الحسن وجارىته تودد |
| ٣ - قمر الزمان | ٩ - الحصان المسحور |
| ٤ - الصياد والعفريت | ١٠ - على بن بكار وشمس النهار |
| ٥ - معروف الإسكافى | ١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة |
| ٦ - الأحذب والخياط | ١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب |
| | ١٣ - على بابا |



دارالمعارف

قرش صتيه
٢,٥٠